

جامعة فؤاد الأول

مجلة
كلية الآداب



المجلد السابع

يوليو ١٩٤٤

تصدر هذه المجلة مرة في آخر كل سنة دراسية ، وتطلب من مكتبة
جامعة فؤاد الأول بالجزيرة . وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية
الى سكرتير التحرير الدكتور زكي محمد حسن بكلية الآداب بالجزيرة .

جامعة فؤاد الأول

مجلة كلية الاداب

المجلد السابع

يولية ١٩٤٤

موضوعات القسم العربى

صفحة	
١	حسن ابراهيم حسن . . . : انتشار الاسلام فى الهند
٢٩	أمين الخولى . . . : هذا النحو ؟
٦٩	على ابراهيم حسن . . . : آراء فى تاريخ دولة المالك البحرية
٨٩	ابراهيم امين الشواربى . . . : مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى
١٢٥	محمد عبد المنعم الشرفاوى . . . : بعض مشكلات تخطيط الحدود السياسية ونتائجها
	جمال محمد محرز . . . : الحزف الفاطمى ذو البريق المعدنى فى مجموعة
١٤٣	الدكتور على ابراهيم باشا
١٦٩	فؤاد حسين . . . : أداة التعريف فى اللغة العربية

موضوعات القسم الاوروبى

١	زكى محمد حسن . . . : حكم التصوير فى الاسلام
١٦	ك. ا. كريزويل . . . : ملاحظات حول حكم التصوير فى الاسلام
١٩	يوسف مراد . . . : البناء الاساسى للكائن الحى
٣٣	م. ب. ديفيز . . . : حملة سفولك إلى موندبيده سنة ١٥٢٣
	محمد سليم سالم . . . : اوفيد : مئاودرفوزيس ، الكتاب التاسع
٤٥	سطر ٧٧٦ - ٧ -

انتشار الاسلام في الهند

بقلم

مسن ابراهيم مسن

تناول كثير من المؤرخين الاقدمين والمعاصرين الكلام على غزوات المسلمين في الهند، وأفاضوا في ذكر الحروب والمجالات ، وما أتاه أمراء المسلمين من الأعمال السياسية، على حين لم يعنوا يبحث أثر هذه الغزوات من الناحية الاجتماعية؛ كما أنهم لم يتركوا لنا شيئاً ذا غناء عن انتشار الاسلام في هذه البلاد ، اللهم إلا ما يذكر من الأفاقيص التي تدور حول ما أتاه هؤلاء الفاتحون من ضروب البطولة والاقدام . فالتاريخ لم يرض عنا بهذه الأحاديث المحلية التي تناقلتها الألسن ، كما أمدنا بسير أئمة المسلمين ودعاتهم الذين ساهموا بنصيب وافر في نشر الاسلام بين أهالي هذه البلاد ، وما بذله سلاطين المسلمين من الجهود الجبارة في سبيل نشر هذا الدين ، وبخاصة ما قام به محمود الغزنوي وأورانجزب Aurangzeb وغيرهما من السلاطين . ويقسم السير توماس أرنولد في كتابه « الدعاية الإسلامية » (١) الجماعة الإسلامية في الهند إلى طوائف ثلاث :

الأولى : طائفة المسلمين الذين رحلوا إلى هذه البلاد ونشروا الاسلام فيها . وقد جاءوا من البلاد الواقعة شمال غربي الهند واستوطنوا إقليم السند والبجواب ؛ وبعضهم من بقايا الجيوش الإسلامية التي أغارت على هذه البلاد في أزمنة مختلفة ، أو من أعضاء الطبقة الأرستقراطية الذين أقاموا في أعالي الهند أو في جزء من هضبة الدكن .

الثانية : طائفة الهنود الذين كانوا يدينون بأديان مختلفة ثم اعتنقوا الاسلام .

الثالثة : طبقة المسلمين الذين جاءوا إلى هذه البلاد من البحر ونزلوا الساحل الغربي وهم من أصل عربي .

ويسكن السواد الأعظم من مسلمي الهند في إقليم البنجاب وما مجاوره . وكثير من هؤلاء المسلمين من أصل أجنبي ينتمون إلى قبائل ليست من السكان الأصليين ، ويلقبون باللقاب لم تكن تعرف في بلاد الهند قبل مجيئهم إليها ، مثل شيخ وسيد وبك وخان . بيد أن الجمهور الأعظم من هؤلاء المسلمين من سكان البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام ، واندجوا في الطبقة الارستقراطية الاسلامية ، واتخذوا ألقاب هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم (١) .

ولم يكن إسلام سكان الهند الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام راجعاً إلى القوة والعنف ، وإنما دخلوا في هذا الدين طوعاً واختياراً (٢) .

وترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد ، فقد أرسلوا أولى حملاتهم ؛ بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة . ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا بمالك كان لها أثر يذكر في تقدم الحضارة الاسلامية .

يقول البلاذري (٣) : « ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعثمان سنة خمس عشرة للهجرة ، فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ، ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى تانة . فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك فكتب إليه عمر : يا أخا خفيف حملت دوداً على عود؟ وإني أحلف بالله أن أسوأصيبوا لأخذت من قومك مثلهم . ووجه (عثمان بن أبي العاص) الحكم أيضاً إلى بروس ، ووجه أخاه المغيرة بن أبي العاصي إلى خور الديكيل (على الساحل الغربي لبلاد الهند ويعرف الآن باسم كراتشي) فلقى العدو فظفر » .

(١) راجع عن الاسلام والمسلمين في الهند L. Massignon : Annuaire du Mond Musulman (Paris, 1925), pp. 288 et seq.

(٢) Arnold : The Preaching of Islam, p. 255.

(٣) كتاب فتوح البلدان ص ٤٣٨ .

فلما ولي عثمان بن عفان الخلافة ولي عبد الله بن عامر العراق ، وأمره أن يوجه إلى الهند رجلا يستطلع أخبارها ويصفها له ، فوجه حكيم بن جبلة العبدى ، فلما رجع وصفها له . ولم يغر هذه البلاد أحد حتى سنة ٣٩ هـ حين وجه على بن أبي طالب إليها حملة بقيادة الحارث بن مرة ، فغتم كثيراً من الغنائم والأسرى . ثم قتل سنة ٤٢ هـ بأرض القيقان من بلاد السند بما يلي خراسان . وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا بلاد السند المهلب بن أبى صفرة فى سنة ٤٤ هـ ، وامتدت فتوحه إلى الأراضى الواقعة بين كابل والمثلثان . ثم امتدت فتوح المسلمين فى هذه البلاد فشملت البوقان والقيقان والديبل . وفى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) عهد الحجاج بن يوسف الثقفى إلى محمد بن القاسم فى غزو بلاد الهند ، فسار إليها سنة ٨٩ هـ ، وحاصر ثغر الديبل وفتح عنة وبنى به مسجداً ، ثم سار إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسنا ، وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح .

وأصل محمد بن القاسم فتوحه فى هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف إذ ذاك باسم نهر مهران ، وهنا التقى بدهار ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتلوا قتالا شديدا انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه . وذكر المدائنى أن الذى قتله رجل من بنى كلاب ، وقال يصف كيفية قتله :

الحليلُ تشهد يوم داهر والقننا ومحمد بن القاسم بن محمد
أنتى فرجت الجمع غير مُعَرَّد حتى علوت عظيمهم بمهتد
وتركته تحت العجاج مجدلا مُتَعَفِّر الخدين غير موشد^(١)

بذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه فى كافة أرجاء بلاد السند ، ثم تابع هذه الفتوح حتى وصل إلى المثلثان ودخلها^(٢) . على أن مؤن المسلمين قد نفدت وكادوا يهلكون جوعا وعطشا ، حتى اضطروا إلى أكل الدواب . وقتل محمد بن القاسم سنة البتة ، وهو مكان عبادتهم ، ويشبه كنائس النصارى وبيع اليهود . ويقول البلاذرى^(٣) : « وكان بد المثلثان بدا تهدى إليه الأموال وتند له الذنور ، ويحج إليه السند فيطوفون به

(١) البلاذرى ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

(٢) Muir : The Caliphate, Rise, Decline and Fall, p. 353

(٣) ص ٤٤٥ .

ويخلقون روسهم ولحام عنده ، يزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم . والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهند في جنوب بلاد البنجاب . قال ياقوت في معجمه : « وبها صنم يعظمه الهند ، وتنج اليه من أقصى بلداتها ، ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم . وسمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلداً يشبه السختيان الأحمر لا يبين من جثته شيء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان وعلى رأسه إكليل ذهب ، وهو متربع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه ، ويسمى العرب المولتان فرج بيت الذهب ، لأنها فتحت في أول الاسلام ، وكان بها ضيق وقحط ، فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا به » (١) .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩ - ١٠١ هـ) كتب الى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الاسلام ، ووعد بأن يقرهم على ما بأيديهم ، وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم « وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلم حليشة بن داهر والملوك وتسموا بأسماء العرب ، وغزا عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر بن عبد العزيز بعض بلاد الهند (٢) . وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) خرج المسلمون عن بلاد الهند . ثم ولي الحكم بن عوانة السكبي « وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصة ، فلم ير للمسلمين ملجأ يلجئون اليه ، فبنى من وراء البحيرة بما يلي الهند مدينة سماها « المحفوظة » ، وجعلها مأوى لهم ومعاداً ومصرها » (٣) .

ولما قامت الدولة العباسية ولي أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) هشام بن عمرو التغلبي بلاد السند . وفي عهده فتحت بلاد قشмир والملتان ، وكانت قد انتقضت ، وهدم البدوين في موضعه مسجداً . وقد تقدمت هذه البلاد في عهد ولايته واستقر بها الأمن وتوطدت أركانه (٤) .

(١) انظر لفظ المولتان في معجم البلدان لياقوت .

(٢) البلاذري ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

وفي عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) غزا المسلمون بلاد الهند في سنة ١٥٩ هـ ، وحاصروا مدينة باربد بالمتجنق وقتحوها عنوة ، وأشعلوا النار في تمثال بوذا . على أن هذه الغزوة كانت كارثة على جند العباسيين ؛ فقد فشا الموت فيهم حتى مات منهم أكثر من ألف ، ودمرت الزوابع سفنهم في الخليج الفارسي ، وغرق كثير من الجند . وما زالت فتوح المسلمين تتسع في بلاد السند والهند في عهد الخليفة العباسي لمأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) ؛ وفي عهد أخيه المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) انتشر الاسلام في البلاد الواقعة بين كابل وقشغر والملتان . وفي ذلك يقول البلاذري : « إن بلدا يدعى العيسقان بين قشغر والملتان وكابل كان له ملك عاقل . وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنما قد بنى عليه بيت وأبندوه . فمرض ابن الملك ، فدعى سدة ذلك البيت فقال لهم : أدعوا الصنم أن يبرى ابني . فغابوا عنه ساعة ثم أتوه فقالوا : قد دعواناه وقد أجابنا الى ما سألناه ؛ فلم يلبث الغلام أن مات . فوثب الملك على البيت فهدمه ، وعلى الصنم فكسره ، وعلى السدة فقتلهم . ثم دعا قوما من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد ، فوحد وأسلم . وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله ، (١) .

==

اصطبغت بعض حملات المسلمين بصفة الجهاد الديني ، ولا سيما هذه الحملات التي قام بها كل من محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ = ٩٩٨ - ١٠٣٠ م) وتيمورلنك التتري . فقد ورت محمود الغزنوي ملكة أبيه سبكتكين الصغيرة ، ولكنه ما لبث أن أزال الدولة السامانية . وغزا بلاد الهند اثنتي عشرة مرة (١٠٠١ - ١٠٣٤ م) . وقتل كثيرا من عبدة الأوثان ، وهدم كثيرا من الهياكل ، وضم بلاد البنجاب وبلاد الغُور^(٢) (١٠١٢ م) . وبلاد ما وراء النهر (١٠١٦ م) ، واستولى على أصبهان من أيدي بني بويه^(٣) . ولا بأس أن نأتي بقصة هاردتا Hardatta أحد ملوك الهند وزعيم بولندشهر Bulandshahr^(٤) . فقد روى سكرتير محمود الغزنوي أن هاردتا لما اتصل

(١) البلاذري ص ٤٥١ .

(٢) يضم أوله وسكون ثانيه وآخره جبال وولاية بين حراة وعزته .

(٣) Browne, Literary History of Persia, vol. I, p. 376.

(٤) أوبران وهو الاسم القديم .

بمسامحة نبا وصول جيوش محمود إلى باربا Barba حول سنة ٤١٠ هـ (١٠١٩ م) سقط في يده ، وأخذ القزع والملع من نفسه كل مأخذ ، وخشى على حياته من عقاب الله ، ولم ير بدأ من اعتقاد الإسلام ، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله سبحانه وتعالى . وسرعان ما تقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله ، وأعلنوا للفاتحين رغبتهم في التحول عن دينهم القديم إلى الإسلام ومناصب الكفار العداء ^(١) .

يقول الأستاذ ولسلي هيج Cambridge History of India (Cambridge, 1928) Vol. III, pp. 26-7. : « يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محمود (الغزنوي) سلطاناً هندياً خالصاً . فقد فتح في خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام في ربوع الهند واقتنح طريقاً سلكه بعده كثيرون ؛ وقنع خلفاؤه ، بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر ، بحكم إقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » .

ويقول ستانلي لينبول ^(٢) : « إن حملات الغزنويين في بلاد الهند ، واتخاذهم لاهور مقراً لهم ، يمكن اعتباره بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد . فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور السبيل أمام محمود بن سام الغوري ^(٣) وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهي ، والذين نشروا نفوذ المسلمين في كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية ^(٤) .

وقد وضعت غارات المغول بقيادة بابر Babar حداً للانقسامات التي أضعفت مملكة دلهي في أواخر عهدها ، واستطاع « أكبر » حفيد بابر أن ينظم إمبراطورية المغول العظام التي بقيت إلى هذا الوقت .

وقد نقل الأستاذ براون ^(٥) عن كتاب ظفر نامه Zafar - nama للمؤرخ الفارسي

(١) Arnold : The Preaching of Islam, pp. 256-57

(٢) The Muhammadan Dynasties, p. 284.

(٣) حكمت الدولة الغورية بلاد أفغانستان و هندستان من سنة ٤٤٣ هـ (١١٤٨ م) إلى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

(٤) Ishwari Prasad : Inde du VII^e au XVII^e Siècle, p. 84 et suiv.

(٥) Lit. Hist. of Persia, vol. III. p 193-4

شرف الدين على يردى^(١) أن تيمور بعد أن ولى ابنه شاه رخ Shah Rukh ملكه خراسان وستان Sistan ومازندران من فيروزكوه Firuzkūh إلى الري في شهر مايو سنة ١٣٩٧ شرع في ربيع سنة ١٣٩٨ في غزو بلاد الهند . ومن بين العوامل التي دفعت تيمور إلى تحقيق هذه السياسة رغبته في نشر الاسلام ، والقضاء على الوثنية في هذه البلاد ، وما بلغه من تسامح أمراء المسلمين لرعاياهم وجيرانهم من وثني الهنود .

وبعد أن حارب تيمور الأفسان وعلى رأسهم سليمان كوه Sulayman Kūh ومسيه پوتر Siyah-Push حاكم كافرستان الذي اتخذ السواد شعارا له في عدة مواقع ، عبر السند في ١٢ المحرم سنة ٨٠١ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ١٣٩٨ م) . وتقدم إلى بلاد الهند ، وأعمل السيف في أهلها ، وأشعل النار في أرجائها . ويقول الأستاذ براون^(٢) : « إن حملات تيمور امتازت كحملاته السابقة بأهدار الدماء . وكان أشد هذه الأعمال وأقساها تلك المذبحة التي ذهب ضحيتها مائة ألف أسير قرب دلهي في ١٢ ديسمبر سنة ١٣٩٨ م . وإن هذه الفظائع التي ارتكبت بعد أن فتحت مدينة دلهي بأيام . وما كان من ذبح عشرة آلاف شخص في مدينة بتنير Batnir قبل ذلك بشهر واحد - كل ذلك لا يقل هولاً إذا ما قورن بهذه الجريمة الشنيعة . »

أما تيمور لنك فقد كتب في مذكراته بعد أن استولى على دلهي : « قضيت في دلهي خمسة عشر يوماً بين رجال البلاط ، أقيم الأسطة والحفلات ، وأنعم بالوان من الأبهة والترف والنعيم . ثم ذكرت أنني قمت بهذه الحملة وأتيت إلى بلاد الهند لأشن الحرب على الكفار ، وأنشر الاسلام في هذه الديار . وقد بارك الله هذه الحملة فجعل النصر حليقي والظفر يتيقن . ولقد قلت شوكة أعدائي ، وقتلت الكفار ، وحطمت الأصنام ، وخضبت سيني من دماء أعداء الدين . والآن ، وقد تم لي هذا النصر المبين ، أشعر أنه

(١) طبع هذا الكتاب في كلكتا في جزئين (في مجموعة Bibhiotteca Indica ١٨٨٢—١٨٨٨) . وقد أسرف شرف الدين في مدح تيمور الذي وضع هذا الكتاب تحت رعايته (وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية مسيو Mercier de la Petit Croix) . ومن كتب في أخبار تيمور أحمد بن عريش الذي كتب كتابه « عجائب القصور في أخبار تيمور » (لندن سنة ١٨٣٦م وكلكتا سنة ١٨٨٨م ، والقاهرة سنة ١٢٨٥هـ) في لمحة شديدة .

(٢) Browne, Literary History of Persia, vol. III. pp. 193—4.

لا يحق لي أن أركن إلى الراحة ، بل لابد لي من أن أواصل الحرب على أهالي الهندستان الكفار تلبية لداعي الدين ^(١) .

ولقد سار على سياسة تيمورلنك في نشر الاسلام في بلاد الهند من جاء بعده من الفاتحين ، فكسرت الأصنام وخربت المعابد ، وبنيت المساجد بدلا منها . ولم يتردد فريق من اعتقدوا الاسلام من أهل السند في التحول الى دينهم القديم كلما سنحت لهم الفرصة . فانه لما غزا قطب الدين أيبك بولندشهر سنة ١١٩٣ م ، قام في وجه أحد أحفاد هاردتا ، وهو الراجا شاندراسن Chandrasen ، وكان متعصباً شديداً التعصب للديانة الهندوكية ، حتى إنه لم يعد للاسلام من أثر في بلاده .

يبد أن رغبة بعض أولئك الفاتحين الحقيقية لم تكن التفاني في نشر الاسلام ، فان بعض الدول التي تولت الحكم في هذه البلاد لم تعمل عملاً صادقا على نشر هذا الدين ، كما عملت أسرة الخلقبي (٦٨٩ - ٧٢٠ = ١٢٩٠ - ١٣٢٠ م) . وكان علاء الدين محمد شاه الخلقبي من أعظم سلاطين هذه الأسرة ، وكان يتفقد أمور رعيته بنفسه ^(٢) .

كذلك عملت أسرة محمد بن تغلق (Tughliqs ١٣٣٠ - ١٤١٢ م) الذي جعل بلاد الهند مركزاً من مراكز الحضارة الاسلامية على نحو ما كانت عليه مصر في عصر المماليك . فقد كان من أهم مظاهر سياسته ترحيه بمن وفد على بلاده من المسلمين ومبايعة في إكرامهم . ولا غرو فقد كان مسلماً يميل إلى تطبيق قواعد الاسلام ، وأشرقت نفسه حب الاسلام والمسلمين . ويقول السير توماس أرنولد ^(٣) : « كان محمد مسلماً تقياً مواظباً على أداء الفرائض الدينية ، وكان لا يشرب الخمر ، دائماً على اتباع تعاليم الاسلام . وقد جلس على العرش ثمان عشرة سنة ؛ ثم بدأت تساوره الشكوك حول أحقيته للحكم لعدم حصوله على تفويض من الخليفة العباسي يجعل هذا الحكم شرعياً . ومن ثم أخذ يستعمل من عدد كبير من الرحالة الذي وفدوا على بلاده ، ووقف منهم على أنه كان في

(١) Elliot : The History of India, as told by its own historians (vol. II. p. 448).

The Muhammadan Period. Edited by Prof. John Dowson (London, 1872-7).

(٢) راجع ماورد في رحلة ابن بطوطة عن السلطان علاء الدين محمد شاه الخلقبي (ج ٢ ص ٢٦) .

وعن السلطان أبي المجهاد محمد شاه أبي السلطان غياث الدين تغلق شاه (ج ٢ ص ٣٤ - ١٠٥)

Arnold : The Caliphate, p. 104 (٣)

مصر خليفة عباسي يلقب المستكني ، وتبادل معه الرسائل . ولما وصل من قبل هذا الخليفة رسول يحمل تقويضاً بحكم محمد بن تغلق ، بالغ هذا في استقباله ، وأحله من نفسه محل الاحترام والتعظيم ، وأمر بذكر اسم الخليفة في الخطبة ونقشه على السكة ، وأرسل إليه الهدايا النفيسة .

ويصف لنا ابن بطوطة (١) قدوم رسول الخليفة العباسي الى ابن تغلق فيقول :
« وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر أبي العباس ، وطلب منه أن يبعث له أمر انتقمة على بلاد الهند والسند ، اعتقاداً منه في الخلافة ، فبعث اليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين . فلما قدم عليه بالغ في اكرامه ، وأعطاه عطاء جزلاً ، وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه . »

وكان محمد بن تغلق يرحب بالسفراء والرحالة والتجار من المسلمين الذين يقدون اليه ويحبب اليهم الإقامة في بلاد الهند ، حتى لقد أصبحت مدينة دلهي قرية الشبه ببغداد في أيام العباسيين من حيث اجتناب العناصر الاسلامية من مختلف الأمصار . ويؤيد هذا ما ذكره ابن بطوطة (٢) عن وصف موكب السلطان محمد بن تغلق في عيدي الفطر والأضحى :

« وإذا كانت ليلة العيد ، بعث السلطان إلى الملوك والخوارج وأرباب الدولة والأعزة والكتاب والحجاب والتقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار ، الخلع التي تعمم جميعاً . فإذا كانت صبيحة العيد زينت القفلة كلها بالحرير والذهب والجواهر ، ويكون منها ستة عشر فيلاً لا يركبها أحد ، إنما هي مخصصة بركوب السلطان ، ويرفع عليها ستة عشر شرطاً (جترأ) من الحرير مرصعة بالجواهر قاتمة ، كل شطر منها ذهب خالص ، وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر . ويركب السلطان فيلاً منها . وترفع أمامه الغاشية وهي ستارة سرجة ، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر . ويمشي بين يديه عبيده ومالكيه . وكل واحد منهم تكون على رأسه شاسية ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وبعضهم يرفعها بالجواهر . ويمشي بين يديه أيضاً التقباء ، وهم نحو ثلاثمائة ، وعلى رأس كل واحد منهم أقرؤف ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وفي يده مفرقة نصابها ذهب . ويركب

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٤٣ .

(٢) ص ٣٧ — ٣٨ .

قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوي ، وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي ، وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على قیل . وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين . ويركب المؤذنون أيضا على القبلة وهم يكبرون . ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره ، كل أمير بفوجه على حدة ، معه طوبله وأعلامه . فيقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة ، وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى . وخلف السلطان مراتبه ، وهي الاعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرايات ، وخلفهم جميع أهل دخلته . ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ، ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ، ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك مجير بن ذى الرجا بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره ؛ وهذا الملك كبير القدر عنده ، عظيم الجاه كثير المال . أخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين على المصرى المعروف بابن الشرايشى أن نفقته ونفقة عبيده ومراتبهم ستة وثلاثون لكافى السنة . ثم يليه الملك نكيه بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك قطب الملك بمراتبه وعساكره ، وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان ، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب . ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتب . وجميع من يركب فى ذلك اليوم يكون مدرعا هو وفرسه ، وأكثرهم بماليك السلطان . فإذا وصل السلطان الى باب المصلى ، وقف على بابه ، وأمر بدخول القضاة وكبار العلماء وكبار الأعزة . ثم ينزل السلطان ويصلى الإمام ويحطب . فإن كان فى عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فئحة برمح يسمونه النيزة^(١) . بعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم . ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره . وكان محمد بن تغلق شديد العطف على المسلمين كافا بجهم والخفاوة بهم ، فقد استدعى أحد سلاطة الخلفاء العباسيين من بغداد وأحلّه من نفسه محل الأكرام والتبجيل . ويقول ابن بطوطة^(٢) :

(١) بكسر التون وفتح الزاى .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦ .

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن العزيز ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادى ، قد وفد على السلطان علاء الدين طره مشير ابن ملك ما وراء النهر ، فأكرمه وأعطاه الزاوية التى على قبر قم بن العباس رضى الله عنهما ، واستوطن بها أعواماً . ثم لما سمع بمحبة السلطان فى بنى العباس : وقيامه بدعوتهم ، أحب القدوم عليه . وبعث له برسولين : أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبى الشرقى الحرباوى ، وآتاهما محمد الهمدانى الصوفى ، فقدموا على السلطان . وكان ناصر الدين ترمذى الذى تقدم ذكره . قد لقي غياث الدين ببغداد ، وشهد لديه البغداديون بصحة نبه ، فشهد هو عند السلطان بذلك . فلما وصل رسوله إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار ، وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ليتزود بها إليه . وكتب له كتاباً بخط يده يعظمه فيه ويسأل منه القدوم عليه . فلما وصله الكتاب رحل إليه . فلما وصل إلى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه ، بعث السلطان من يستقبله على العادة . ثم لما وصل إلى سرتى بعث أيضاً لاستقباله صدر الجهان قاضى القضاة كمال الدين الغزنوى وجماعة من الفقهاء ؛ ثم بعث الأمراء لاستقباله . فلما نزل بمسمود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله . فلما التقيا ترجل غياث الدين ، فترجل له السلطان وخدم غنم له السلطان . وكان قد استصحب هدية فى جملتها ثياب ، فأخذ السلطان أحد الأثواب وجعله على كتفه . وخدم كما يفعل الناس معه ، ثم قدمت الخيل فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له ، وحلف أن يركب ، وأمسك بركابه حتى ركب . ثم ركب السلطان وسائره والشطر يظلهما معاً . وأخذ التنبول بيده وأعطاه إياه — وهنا أعظم ما أكرمه به — فانه لا يفعله مع أحد . وقال له لولا أنى بايعت الخليفة أبا العباس لباعتك ، فقال له غياث الدين : وأنا أيضاً على تلك البيعة ، وقال له غياث الدين : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً : من أحيا أرضاً مواتاً فهى له . وأنت أحيتنا ؛ فجاوبه السلطان باللفظ جواب وأبره . ولما وصلا إلى السراجة المعدة لنزول السلطان ، أنزله فيها وضرب للسلطان غيرها . وباتت تلك الليلة بخارج الحضرة . فلما كان بالغد دخلا إلى دار الملك ، وأنزله بالمدينة المعروفة بسبرى ، وبدار الخلافة أيضاً فى القصر الذى بناه علاء الدين الخليلي وابنه قطب الدين . وأمر السلطان جميع الأمراء أن

يخصوا معه إليه ، وأعد له فيه جميع ما يحتاج إليه من أواني الذهب والفضة ، حتى كان من جملة ما يقتسل يقتسل فيه من ذهب . وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة ، وبعث له جملة من القتيان والخدم والجواري ، وعين له عن نفقته في كل يوم ثلاثمائة دينار ، وبعث له زيادة إليها عدداً من الموائد بالطعام الخاص ، وأعطاه جميع مدينة سيرى إقطاعاً ، وجميع ما احتوت عليه من الدور ، وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه ، وأعطاه مائة قرية ، وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لنهلي ، وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ، ويكون علفها من المخزن . وأمره أن لا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلا في موضع خاص لا يدخله أحد راكباً سوى السلطان . وأمر الناس جميعاً من كبير وصغير أن يخدموا له ، كما يخدمون للسلطان . وإذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره ، وإن كان على الكرسي قام قائماً ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه ، ويجلس مع السلطان على بساط واحد . وإذا قام قام السلطان لقيامه ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه ، وإذا انصرف إلى خارج المجلس ، جعل له بساط يقعد عليه ما شاء ، ثم ينصرف يفعل هذا مرتين في اليوم .

على أن الاسلام لم تتولد أركانه في بلاد الهند الا منذ أيام المغول^(١) ، حين أخذ

(١) لا بأس من أن نشير في هذه الحاشية إلى الفرق بين القنطين : « تر » و « منول » وإلى التطورات التي داخلت كلا منهما .

كلمة تر تختلف بالمعنى العام باختلاف الصور : فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر في قوقس الأرخبون التركية Turkish Orkhon التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي ، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة .

وفي جميع الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي كان القاتخون يسون بالتتر في كل مكان تزلوا فيه ، سواء أكان في الصين أم في البلاد الاسلامية أم في بلاد الروسيا وغرب أوربا . ويسى ابن الاثير أسلاف جنكيز خان باسم التتر ، وهم التتر الأول ، وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سكيثيا « Scythia » أو سكوتيا .

ولم يظهر اسم المغول في عالم الوجود حتى القرن العاشر ؛ ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم ، وكان يحمل ذلك الاسم ، ثم أخذ لنفسه السيادة على بقية العشائر المتحالفة ، ومن ثم أطلق اسم البعض على الكل (Lane-Poole : Muh. Dyn. p. 200) .

على أن بعض المؤرخين يرون أن لفظ « مغول » لم يكن مروطاً في خارج البلاد التي كانت تسكنها قبائل الرحالة على حدود صحراء جوبي قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ؛ كما يقولون =

المختوس ياحرون الى اعتقاده . وقول الأسقف ليفروي Lefroy^(١) : « لا امطعم الإسلام ، مع ما عرف عنه من تمثيل قوى الحقيقة وجود الله سبحانه ، مع عقيدة الثلاث التي تقوم على الخضوع والتسليم ، تبع تلك أن الاسلام لم يتصر في هذا المعركة غريب ، بل لقد غدا قلب الماشاق الذي سرى في شربان الحياة والفكر في بلاد الهند العليا . وسرعان ما أحيى التفكير وبعث في الحياة نشاطاً وقوة ، سرى في كثير من العقول التي لم يسبق لها أن تأثرت بمثل هذا تأثير الفكري » .

ولده بابر Babar فاتح هندستان المغولي من سلالة تيمورلنك وجنكيزخان سنة ١٤٨٢ م في فرغانة التي كان يحكمها أبوه . وبعد أن طرد عن يد أحد الملوك من أسرة

== احتمال اطلاق هذا اللفظ على جميع هذه القبائل ، حتى امتد غوذ رجل منهم تسمى بهذا الاسم على جميع تلك الحشائر المتحالفة . وقد انتقلت قوة من قوى المغول الحربية إلى بلاد آسيا الصغرى ، وكان أعقابهم (القرن ساروا أتراك بلا شك) يسكنون بالقرى السود Kara Tatar ، وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حلات تيمورلنك في البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا Amasia وقيصرية . وكان عددهم يناهز الثلاثين ألفاً أو الأربعين ألف أسرة . وقد هاجم تيمورلنك إلى أواسط آسيا ، فأزلهما يازيد الثاني الثاني العثماني بعض الأماكن في بلاد كاشغر وخوارزم ، وقد عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمور إلى بلاد آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد .

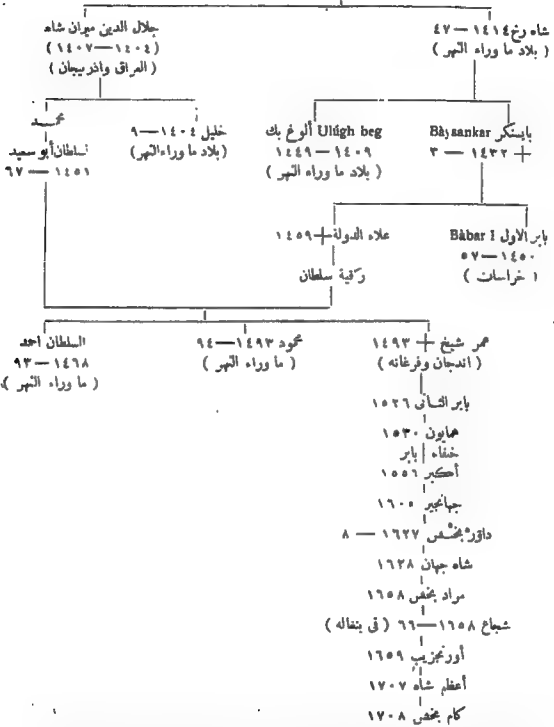
كذلك تسمى في روسيا وشرق أوروبا اسم التتر يطلق غالباً على جميع الشعوب التركية بلعدا الممانيين . ويرى بعض المؤرخين من المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية ، ومنه تفرعت معظم بطونها وأغذها ، وهو مرادف للترك عدد التترجة ، حتى أنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تتر ، ومنهم المانجويون والتركان . وقد تناول هذا الاسم (تتر) بنوع من التوسع جميع المغول وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال في الصين .

وأما كلمة تتر بالمعنى الخامس فهي اسم لشعب معين ، إذ لا تطلق إلا على سكان حوض نهر الفلجا من بلاد قران Kazan إلى استراخان ، وكذا على سكان شبه جزيرة القرم ، وجزء من سيبيريا ممن يتكلمون اللغة التركية . ويظهر أن الشعوب التي كانت مغولاً في الأصل واللغة كانت تسمى نفسها بالتتار . وقد استبدلت كلمة تتر بدجكيزخان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل Moghul ، ولا يزال لفظ مغل مستعملاً إلى اليوم في بلاد أفغانستان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون يحتفظون بلقبهم حتى الآن .

وقد أدخل دجكيزخان تلك التسمية رسمياً في بلاده . على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم البقاع الغربية من امبراطورية المغول رغم دخولها رسمياً في تلك البلاد ، كما نلم ذلك من الرحالة الأوروبيين أشبال حنا بيان السكاريني John of Pian El Carpini ووليم روبروك William of Rubruck وغيرهما . (١) Arnold : Preaching of Islam, p. 259. تال عن كتاب Mankind and the Church, p. 286 (London, 1907).

الأسرة التيمورية في الهند

تيمور ١٣٦٩ - ١٤٠٤ م



لقد بذل أباطرة الدولة المغولية التي استمر تفوذها في بلاد الهند حقبة طويلة من الزمن عند من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٧٥٩ م ، وتمايل عرش الملوك في خلالها كثير من الاباطرة النظام من الأسرة التيمورية ، جهودا صادقة في سبيل نشر الإسلام في هذه البلاد .
ومن هؤلاء الاباطرة النظام بابر قاغ هندستان المغول من سلالة تيمورلنك وچنگيزخان .

أزبك الصياني سنة ١٥٠٤ م ، عول على إخضاع أفغانستان ، فاستولى على كابل ، وأخضع قندهار (١٥٠٧ م) . وهناك كثر أتباعه وعظم شأنه ، ثم أخذ يفكر في غزو بلاد البنجاب التي فتحها تيمور منذ مائة سنة وسبع سنين ، واستطاع أن يجمع جيشا زوده بكثير من البنادق . ولما آفس في نفسه القوة سار على رأس أنصاره من التركين ونزل في بلاد البنجاب .

وكانت بلاد الهند في ذلك الوقت منقسمة على نفسها ، كما كان أهلها على تمام الاستعداد للترحيب بأي غاز يكفل لبلادهم السلامة والطمأنينة ، وقر في ربوعها الأمن والنظام . وسرعان ما احتل بابر لاهور (١٥٢٥ م) ، ووضع أساس دولة مغولية نسبت إليه . وفي ٢٠ أبريل سنة ١٥٢٦ هزم بابر جيش ابراهيم لودي آخر سلاطين أسرة لودي (٨٥٥ - ٩٣٠ هـ = ١٤٥١ - ١٥٢٦ م) و Sultan دلهي هزيمة منكرة عند مدينة Panipat ، أشهر مدائن السهل المسمى باسمها ، وتقع على بعد عشرة أميال شمال مدينة دلهي ، وانتصر عليه انتصارا مؤزرا برغم قلة عدد جنوده الذي لم يتجاوز خمسة وعشرين ألف ، على الرغم من أن جيش سلطان دلهي كان يربو على أربعة أمثال جيشه ، وعلى الرغم من أنه كان مزودا بعدد من القيلة لا يقل عن ألف فيل . وسرعان ما دخلت جيوش بابر مدينتي دلهي وأجرا Agra ، وأخضع شمال بلاد الهند . وبذلك امتدت فتوحه من نهر السند الى حدود بنغالة ، وتلقب بلقب أمبراطور بلاد الهندستان . وما كتبه بابر بعد أن فتح هذا الجزء من بلاد الهند : « إن هذه البلاد تختلف تمام الاختلاف عن بلادنا . فهي أحسن هواء وأكثر خصبا ونماء ، كما أنها لا تقرن ببلدنا من حيث الغنى والثراء » (١) .

خلف بابر ابنه همايون Humayun (١٥٣٠ - ١٥٥٦ م) ، وكان في التاسعة عشرة من عمره . على أنه قد حاول رغم صغر سنه أن يتم أعمال أبيه الحربية (٢) . بيد أنه لم ينجح في فتح جوهرات ومالوا المتحدثين ، على حين تمكن الاقنان في بنغالة بقيادة شير شاه Shir Shāh من صد همايون نحو الغرب بعد مقاومة شديدة . وتمكن شير شاه من

The Cambridge History of India (Cambridge, 1928), Vol. III. P. 250 (١)

Stanley Lane-Poole : The History of the Moghul Emperors of Hindustan, pp. XI, XII. (٢)

اخضاع كل بلاد الهندستان لحكمه عدا جوچرات ، وأرغم همايون على الاتجاه الى بلاد السند أولاً ، ثم الى فارس فانيا ، ولم يتمكن من العودة الى بلاد الهند لاسترداد امبراطوريته القديمة الا بعد خمس عشرة سنة . وفي ذلك الوقت مات شيرشاه بعد أن وضع أسس النظام الادارى الذى أممه أكبر خان فيما بعد . ومهد النزاع الذى قام بين خلفاء شيرشاه السبيل أمام الفاتح المغولى ، فتمكن من استعادة دلهى سنة ١٥٥٥م ، ومات هناك فى السنة التالية .

وكان لبابر وابنه همايون أثر يذكر فى نشر الاسلام فى بلاد الهند ؛ فقد اعتقد تيلوك شند Tilock Chand زعيم أسرة باشوتى Bachoti الاسلام طوعاً واختياراً بعد أن أسره بابر ، ثم أطلقه على أثر اعتقاده هذا الدين . وقد قيل فى سبب اسلامه إن همايون سمع بجمال امرأته الفاتن وأمر رجاله فقادوها اليه من أحد الأسواق . ولكن سرعان ما أنبه ضميره وردّها الى زوجها ؛ فلما عادت اليه أكبر هذا الخلق الكريم نفس هذا المسلم العظيم ، واعتقد الاسلام الذى يحث على مثل هذه الفضائل العالية (١)

وقد ترك همايون مهمة لإمام هذه الفتوح التى بدأها لابنه أبى الفتح جلال الدين محمد أكبر خان (١٥٥٦ - ١٦٠٥ م) ثالث أباطرة الأسرة التيمورية فى بلاد الهند . ولد أكبر فى أمركت Umarkot فى بلاد السند سنة ١٥٤٢ م فى المنفى ، فى عصر بعد من أعظم عصور التاريخ ، وكان هو أعظم حكام ذلك العصر . ولم تكن أوروبا وحدها فى طور النهوض العقلى ، بل كان هذا التطور قد بدأ فى بلاد الهند أيضاً (٢) . ولم يكن أكبر خلال حياته الطويلة التى كانت تفيض بالنشاط العقلى يحسن القراءة والكتابة ، رغم أنه انحدر من أسرة امتازت بالثقافة ، ورغم أنه كان يعيش بين طائفة من رجال العلم . ورغم أنه كان يعيش مع امرأتين اشتهرتا بالأدب : هما زوجته سليمة سلطان وعبته كلبدين . وربما كان سبب عدم تعلمه فى صغره راجعاً الى اضطراب مركز أبيه .

ولما بلغ أكبر سن الرشيد انصرف باختياره عن التعليم ؛ ولكنه كان قوى

(١) Arnold : The Preaching of Islam, p. 259.

(٢) انظر لفظ أكبر فى ترجمة دائرة المعارف الاسلامية .

الملاحظة متعششا المعرفة ؛ وقد درس فرعا من فروعها على الأقل هو الدين . ولما توفي أبوه في ٢٤ يناير سنة ١٥٥٦ م كان أكبر صبيًا لم يناهز الرابعة عشرة من عمره ، فألت الوصاية عليه الى بيرام خان بهارلو التركمانى ، فصحه فى محاربة القوات الهندية التى انهزمت شر هزيمة (٥ نوفمبر سنة ١٢٥٦م) فى نفس سهل بانبيات الذى أحرز فيه بابر انتصاره المؤزر من قبل . وبذلك وجد أكبر نفسه صاحب النفوذ المطلق فى أحسن صقع فى هندستان . وسرعان ما قبض على أزمة الحكم رغم حداثة سنه ، ودخلت فى حوزته دلهى وأجرا ، وسقطت فى يده جوالبور Gawalior (١٥٥٨ م) ، وجونبور Jaunpur (١٥٥٩ م) ، واكتسحت جيوشه مالوا Malwa وخنديش Chandesh (١٥٦١ - ١٥٦٢ م) ، وسلمت إليه راجپوتانا Rajputana وجوچرات Gujarat (١٥٧٢ م) ، واستطاع أن يقضى على الثورة التى قامت فى بنغالة (١٥٧٥ - ١٥٧٧ م) ، ثم ضم إلى أملاكه قشمبر (١٥٨٧ م) وقندهار بعد ذلك بست سنوات .

وكان أكبر عاقلا بعيد النظر . فقد رأى من الحكمة ألا يتدخل تدخلا جديا فى شئون بلاد الدكن السياسية ، واكتفى بتأمين نفسه من الغارات التى كانت تهدده من ناحية الجنوب . ومن ثم نراه يتخذ مدينة برهانپور حاضرة خنديش قلعة حصينة تقف فى وجه الحملات التى توجه إلى بلاده من ناحية الجنوب . ولم يحاول أكبر فتح بلاد الدكن وضما إلى إمبراطوريته الشاسعة الأرجاء . وصفوة القول أن إمبراطورية المغول فى عهد أكبر خان قد صارت موطنه الأركان ، تألف من الهند العليا وكابل وقشمبر وبهار وبنغالة وأريسه وجزء كبير من بلاد الدكن .

وكان أكبر خان أعظم أباطرة المغول فى الهند ، وكان عهده عهده رخاء وثقافة ورفق لهذه البلاد^(١) ، لذلك وجب أن نأتى بشئ عن تاريخ حياته الخاصة ، وعن الدور الذى قام به فى تقدم هذه البلاد ورفقها . ولا غرو فان آثاره فى هذه البلاد لا تقل عن آثار شريمان أوقسطنطين الأكبر فى بلاد الغرب ، فهو حلقة اتصال بين القديم والحديث من تاريخ مجد هذه البلاد ، إذ لا يزال ما قام به ذلك الرجل من الجهود فى تنظيم تلك البلاد

(١) راجع كتاب Stanley Lane-Poole : Mediaeval India Under Mohammedan Rule, pp. 238-288;

The Legacy of India (edited by O. T. Garratt) , pp. 223-55, 287-304.

وكتاب

وتوطيد دعائم الملك فيها بآسيا حتى اليوم^(١)، فقد سار الانجليز على نهجه حين خلفوا أباطرة المغول في الهند حتى إن لقبهم Kaiser-i-Hind قد اتحده ملك الانجليز لنفسه من أباطرة المغول.

وأما في روسيا وفي آسيا الغربية وأوسطى، وكذا في بلاد الصين فقد تفككت إمبراطورية المغول، وأخذت أشكالاً مختلفة من الحكم، وأصبحت كل عناية حكوماتها موجهة إلى غرض واحد هو جباية الضرائب لتقوين قصور حكامها، كما كان حال القبيلة الذهبية The Golden Horde في جنوب روسيا، أو في قره قورم، أو في بكين حاضرة إمبراطوريتهم. ومن ثم كانوا لا يتدخلون في شئون الأهلين فيما يتعلق بأفكارهم ومعتقداتهم ماداموا يدفعون الضرائب المفروضة عليهم. ومن ثم نشطت حركة التبشير المسيحية في موسكو وكيف، كما انتشر مذهب الشيعة في فارس، وظهرت حركة قومية صينية في بلاد الصين حيث أزال أهلها عن بلادهم نير المغول^(٢).

أما في بلاد الهند فقد كانت إمبراطورية المغول على غير هذا. والفضل في ذلك يرجع إلى أكبر خان الذي خلق من بلاد الهند بلاداً جديدة: فقد ساوى بين الأمراء وطبقة الحكام في المصالح المشتركة. وكان من أبرز صفات أكبر سعة العقل وحرية التفكير؛ ولا غرو فقد عني بتخريج الرجال ذوى الكفايات المختلفة في بلاد الهند، أيا كانت جنسيتهم أو ديانتهم. ومن ثم لم تكن إمبراطورية أكبر إسلامية النزعة أو مغولية، كما لم تكن آرية أو هندستانية، بل كانت هندية قبل كل شيء، فقد وضع نصب عينيه مصالح بلاده، فكان شديد التسامح في الدين، ومن ثم ساوى بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل والنحل والطوائف المختلفة في بلاد الهند.

ولقد سر أكبر طموال حكمه ما لاحظته في فرص كثيرة من حسن صفات أولئك الأمراء من الهندستان، وبخاصة نبل نفوسهم ووفائهم، وتفانيهم في الإخلاص له، برغم بغض رجال بلاطه من المسلمين لهم، واعتبارهم إياهم من المخلفين في العذاب يوم القيامة، لأنهم كانوا من أتباع «براهما» المعتقدين لمذهبه. وكان يرى أن هؤلاء الرجال ومن

Stanley Lane-Poole : The History of the Moghul Emperors of Hindustan, (١)
p. XV.

H. O. Wells : Outline of History, vol. II, p. 487 (٢)

نحالموهم يكوّنون الأغلبية الساحقة من رعاياه ، كما لاحظ كذلك أن الكثيرين من هؤلاء الهندستان ، وبخاصة من كان يوثق به ويركن إليه منهم ، كانوا شديدي القسك بدينهم ، برغم ما كان يفضيه عليهم اعتقادهم للإسلام — دين رجال البلاط — من حطام الدنيا ، وما يسبغه عليهم من الآلاء .

وباطلاعه على المذاهب المختلفة والعقائد المتباينة زال ما كان في نفس أكبر من الريب ، ولم يخامره شك في أن يترك الناس أحراراً يدينون بما يريدون ، ويعتقدون ما يشاؤون ، مهما كانت عقيدتهم وأيا كان دينهم ، كما دفعه إلى التسامح في الدين مع جميع الناس ما كان يلاحظه في كل يوم وفي كل لحظة من حرج عقول أهل الطوائف المختلفة ، وضيق عطنهم (تفكيرهم) وتعصبهم لمعتقداتهم أيا كان دينهم ^(١) .

قالت بفريندج عن أكبر : « وكان متصفاً بالصبر والمثابرة ورجاحة العقل التي تتمثل في قوله المأثور « السلام مع الجميع » ، لحكم لمصلحة الكثرة من رعاياه ، وهم الهندوس الذين حرّم من القوانين الظالمة المنيّة ، فكافأوه على هذا بما أدوا له من خدمات جليلة صادقة ... ونشر مذهباً منتخباً في التوحيد سماه : « توحيد إلهي » . ويظهر أن هذا المذهب كان قائماً على الاعتقاد بوجود الله ، ذلك المذهب الذي يشترك فيه جميع معتقّي الأديان التي بحث فيها . وكان أكبر يعنى أول الأمر بالفرق الإسلامية نفسها ؛ ثم مل بما اشتمل عليه جدلها . وتزوج امرأة راجپوتانية هي أم سليم . ودرس البرهمية على كهنه علماء ، وترجم بعض الكتب المقدسة من الهندستانية . وكان لحرية التفكير الصوفي سلطان كبير على بطاقته ، كما أنه قرب إليه الفرس ... وقد حاول أن يستخلص الحسن من الآراء المختلفة لغاية واحدة هي الوصول إلى الحق » .

يقول الدكتور إميل شميدت Emil Schmidt ^(٢) عن أكبر : « وكان ابناً لأحد الأباطرة (همايون) الذي هرب من الحرب . وقد ولد في الصحراء ، ونشأ في بيئة محبودة قرن على

H. G. Wells : Outline of History, vol. II. p. 488 (١)

The World's History (ed. by Dr. H. F. Helmolt, Lond. 1904), Vol. II. Chap. IV. (٢)
pp. 423—436

صعاب الحياة ومرها منذ طفولته . وقد حبه الطبيعة بنية قوية مكنته من احتمال الآلام والشدائد . ولا عجب فقد أصبح كلفا بالرياضة البدنية مولعا بها ، كما أغرم بالصيد ، وبخاصة بالمخاطرة في صيد فرس الوحش والقبيلة وذبح الثور الخفيف . وقد سار أكبر ما يقرب من مائتين وعشرين ميلا في يومين ليصرف « راجا جودپور Raja of Jodhpore » عن عزمه على إحراق أرملة ابنه المتوفى . أما في المعارك الحربية ، فقد كان أكبر يظهر أقصى ضروب البسالة والاستقامة في الدفاع ، وكان يقود جنوده بنفسه ، ويتقدمهم في أخطر المعارك وأحرج المواقف ، تاركا لتواده لعبه الخفيف من أعمال الحرب . وكان في كل انتصاراته مثال الإنسانية والرحمة ، كما كان يحول دون ارتكاب القسوة والعنف على أعدائه . وقد استطاع أن يوجد من تلك العناصر المتنافرة المتعادية شعبا قويا ذا سرور وعاء ، وذلك بفضل ما اشتهر به من مقت المحاربة التي تفرق بين الأهلين وتولد الانتقام والبغضاء بينهم ، بفضل ذلك التسامح مع مخالفيه في الدين ، وعدم تحيزه لجنس دون جنس ، وذلك من شأن عظماء أبطال التاريخ الذين تولوا العروش وأقاموا الدول . وكان شديد الدأب على القيام بالإصلاحات الداخلية في بلاده في وقت السلم . وقد أتاح له اعتداله في ملاده وقصده في نومه وتوزيعه وقته توزيعا دقيقا ، الفرصة لتكريس نفسه على العلوم والفنون بعد فراغه من النظر في شئون بلاده . وقد اتخذ أصدقائه وجلساءه من الأشخاص البارزين والعلماء النابغين الذين زانوا الحاضرة التي بناها لنفسه ^(١) . وكان أكبر يعقد في مساء كل خميس مجلسا للبحث في الأدب والفلسفة . وكان أخلص أصدقائه من هؤلاء رجلين هما فايظي وأبو الفضل ، وكانا من أشد الناس ذكاء . ولا غرو فقد ولدا من رجل اشتهر بحرية الفكر . وكان أكبر هذين الأخوين عالما مشهورا في الأدب الهندي ، فاستطاع أكبر بمعونته هذا الرجل وإشرافه ترجمة أهم المؤلفات السنسكريتية إلى الفارسية .

أما أبو الفضل ، وكان أيضاً من أخلص أصدقاء أكبر ، فقد كان قائدا وسياسيا وإداريا . وإليه وإلى نشاطه بوجه خاص تدين مملكة أكبر باستتباب الأمن والنظام . يقول ولز : « إن أكبر كان ملكا عظيما ؛ لكنه قد عاش كما يعيش جميع الناس

في حدود يئته في ذلك العصر، متأثراً بأفكار من يحيط به إلى حد بعيد، كما كان أيضاً بحكم بيته بعيداً عن تلك النهضة الفكرية التي قامت في أوروبا. ومن ثم لم يقف على ذلك النهوض القوي عند أمم الغرب، كما لم يقف على طرق التربية التي قامت بها الكنيسة ونشرتها في البلاد الغربية. وقد هدته نشأته الإسلامية الأولى وعقليته التي اكتسبها من بلاده، إلى أنه لا يمكن أن يوجد من بلاد الهند أمة عظيمة قوية، ما لم توحد بين أجزائها الأفكار المشتركة القائمة على أسس دينية. على أنه كان يجهل الطريق إلى إيجاد تلك المرحلة وتقويتها، بإنشاء المدارس العامة ونشر الكتب وإدخال النظام الجامعي القائم على حرية الفكر، ذلك النظام الذي لا تزال الأمم الراقية متأثرة به إلى اليوم،... وقد حقق أكبر لبلاد الهند نظاماً عاماً للتعليم؛ فقد فتح كثيراً من المدارس الإسلامية وأخرى هندستانية. ومن ثم يقول Wells^(١) «كان عمل أكبر في إصلاح شئون الهند أكثر من عمله، فقد حقق لتلك البلاد من شئون الإصلاح أكثر مما قام به البريطانيون الذين خلفوه فيها، فإن بعض الحكام البريطانيين قد قلده في أهنته وعظمته، وفي سرادقاته الفاخرة، وفي قصوره الملوكية. ولكن أحداً منهم لم يجاوز هذا المظهر السيامي لهذا الملك التركياني في العصور الوسطى، فيحاول تحقيق ما كان يرمى إليه من إيجاد نظام عام للتعليم، ذلك النظام الذي كان ضرورياً جداً لبلاد الهند قبل أن تلعب دورها الهام في تقدم الإنسانية ونهوضها».

وكان لسياسة اللين والتسامح التي سار عليها السلطان أكبر خان أثر عظيم في جذب قلوب الهندوس وانتشار الإسلام الذي كان الناس يسارعون إليه بوحى من ضماؤهم، وبسبب اعتقادهم أنه هو الدين الحق^(٢).

وفي عهد أكبر خان دخلت قشمبر تحت نفوذ دولة المغول؛ ومن ثم قوي نفوذ المسلمين في هذه البلاد، ثم وفد عليها عدد كبير من رجال الدين واستقروا بها. ويسكن قشمبر عدد كبير من المسلمين يربو على ٧٠٪ من مسلمي الهند جميعاً. ويعزى انتشار الإسلام بين أهالي هذه الولاية بهذه الكثرة إلى حركة الدعاية المتصلة

(١) H. G. Wells : Outline of History, vol. 11. pp. 489-90

(٢) Arnold : The Preaching of Islam, p. 259.

التي بدأها وقام على تنفيذها الدراويش الذين وجد بينهم بعض دعاة الاسماعيلية من قلعة ألوت التي أسسها الحسن التميمي على مقربة من بحر قزوين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وكان صدر الدين أول من اعتنق الإسلام من ملوك هذه البلاد، وكان إسلامه على يد أحد الدراويش - ويسمى بلبل شاه - وذلك في القرن الرابع عشر الميلادي.

ويرجع ازدياد انتشار الإسلام في هذه البلاد في أواخر هذا القرن إلى سيد علي المهنداني الذي هرب من مدينة همدان مسقط رأسه بعد أن أثار غضب تيمور، ولجأ إلى قشمبر. وقد حبه سبحة من أتباعه وأسوا لأنفسهم أما كن للتسك، فأصبحت هذه الأماكن مراکز لنشر الإسلام بين أهالي هذه البلاد.

وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وصل من بلاد العراق أحد دعاة المذهب الشيعي - ويسمى مير شمس الدين - إلى قشمبر، واستطاع بمعونة تلاميذه ومريديه أن يحول كثيرين من أهالي هذه البلاد إلى الإسلام. وكان لتجار قشمبر من المسلمين أثر كبير في نشر هذا الدين بين أهالي هضبة التبت^(١).

كان أورانجزيب (١٦٥٩ - ١٧٠٧ م) سادس أباطرة المغول في بلاد الهند. وفي عهد شاه جهان ولي بلاد الدكن بين سنتي ١٦٣٦ و ١٦٤٣ م، فعمل على تنظيمها، وقسمها أربعة أقسام هي: دولة آباد (بما فيها أحمد نجار)، وخنديش، وتلنجانة، وبيرار. على أن اهتمامه بأكملها باتمام اصلاحاته قد ضعف بسبب ذلك النزاع الذي قام قبل توليته عرش دلهي في سنة ١٦٥٩ - ولم تبدأ سلسلة فتوحاته في الجنوب الا في سنة ١٦٨١، أي قبل وفاته بست وعشرين سنة - ومع أن جيوشه اكتسحت كافة أرجاء الدكن واستولت على كثير من قلاعها، فقد وقف في وجه ذلك الإقليم الجبلي الذي يقطنه الماراتسي Marathas الأقوياء الأشداء، الذين لم تكن قناتهم والذين لم يكن من سبيل لإخضاعهم.

وفي عهد أورانجزيب الذي اشتهر بغيرته على الإسلام، زاد حماس راجات الهند لهذا الدين، وأخذوا يناوئون الديانة الهندوكية مناوأة شديدة. وقد دخل في الإسلام

كثير من أهالى الجهات الشرقية من مقاطعات البنجاب وجوچرات القرية من دلهى ،
وفى جهات كونبور Cawnpore وشمالى الهند^(١).

وفى عهد أورانجزيب تحول راجا كشتوار Rájé Kichtwār على يد سيد شاه
فريد الدين إلى الإسلام ، ثم تبعه أكثر رعاياه ، ولا تزال نرى فى قشمبر بعض راجات
ينتمون إلى أسلافهم الذين تحولوا إلى الإسلام فى ذلك الوقت^(٢).

وبعد موت أورانجزيب سنة ١٧٠٧ م أخذت امبراطورية المغول يبلاد الهند فى
الانحلال ، وجاء بعده أباطرة ضعاف ، فى الوقت الذى كانت فيه قوات السيخ Sikh
والمراتسى قوية ناهضة . وكانت غارات نادزشاه ، واحمد درانى (Durrani ١٧٤٨
و ١٧٥٧ م) علامة تنذر بقرب سقوط امبراطورية المغول . ولم يمض خمسون عاماً على
وفاة أورانجزيب حتى غدا المراتسى أصحاب النفوذ المطلق فى جنوب بلاد الهند ، اللهم
الا هذا الجزء الذى تسكنه أسرة النظام الجديدة التى شقت طريقها فى جوچرات ، وامتد
نفوذها الى دلهى ، ولم يعد أهل راجبوتانا يعترفون بسيادة المغول . كما امتدت سيادة
السيخ على البنجاب التى كانت فى يد الأفغان ، واستقلت أسرات على مقربة من اجرا ،
وفى بنغالة . ولو أن الاجزاء الصغيرة فى قاليقوت Calcutta ومبباى ومندراس لم تكن
تنهى عن المستقبل العظيم الذى خباؤه القدر لشركة الهند الشرقية العظيمة . هذا وقد
جعلت موقعتا بلاسى Plassy (١٧٥٧ م) وبكسار Buxar (١٧٦٤ م) من الامبراطورية
المغولية شعباً أجوف لا يخشى له بأس ، ولو أن سيادة المغول ظلت حتى سنة ١٨٥٧ م .
وكان الأباطرة الثلاثة الآخرون خاضعين للعرش البريطانى ، يعتمدون على معوته
المادية . ومات بهادر الثانى ، بعد أن سقط عرشه المتداعى لاشتراكه فى العصيان منفا
فى رانجون سنة ١٨٦٢ م .

وقد بذل المغول فى الهند فى أواخر عهدهم جهوداً متصلة فى سبيل نشر الإسلام ،
وساهم فى هذه الجهود حيدر على وتيبو سلطان Tipu Sultan اللذان قاما بنشر الإسلام
فى بلاد الدكن . ففى سنة ١٧٨٨ م أصدر تيبو سلطان المنشور الآتى على سكان ملبار :

بعد انقضاء أربعة وعشرين عاما على غزو بلادكم ، أرى أنكم لا تزالون على عصيانكم وتمردكم ، كما أنكم لازلتُم مصدر القلق والاضطراب والحروب التي ذهب ضحيتها واستشهد فيها عدد غير قليل من رجالنا . على أنني مستعد لأن أتأسى الماضي . ولقد حان الوقت الذي يجب أن تلتين فيه قناتكم ، ويسلس قيادكم ، وتعدلوا عن خطتكم ، وتلزموا السكينة والهدوء ، وتؤدوا ما عليكم من الضرائب على نحو ما يؤديه الرعايا المسلمون . بيد أنني سوف آخذكم بحريرتكم ، ولن أتوان في تأديبكم إذا لم تقلعوا عن عاداتكم المستهجنة ، وهي أن تعاشر المرأة منكم عشرة رجال ، وأن تتركوا أمهاتكم وأخواتكم في حماة الفجور كما تفعل الوحوش الضارية ، مما تقشعر منه الأبدان وتشمئز النفوس الآتية . لذلك أرى لزاما على أن أنهاكم عن هذه العادات الآثيمة ، وأنصح لكم بأن تأخذوا بأهداب الفضيلة التي هي من صفات المجتمع الإنساني . وإذا عصيتُم أمرى وخالفتم نصحي ، فأني أقسمت قسما حقا غير حاث فيه ولا آثم أن أحملكم على الصراط المستقيم ، وأن أنيلكم شرف الإسلام . وسوف أحل كبيركم وصغيركم على الاعتراف بحكموتي (١) .

وسرعان ما أعد تيبو سلطان عدته وأخذ لهذا الأمر الخطير أهبة ، وجرّد في سنة ١٧٨٩ م جيشا جرارا يتألف من عشرين ألف مقاتل ، للقضاء على الكفار من أهالي ملبار ، وتوعدهم بأحراق دورم ، فاعتقدوا الإسلام وأكلوا لحم البقر الذي كانوا يقدسونه حسب طقوسهم القديمة . على أنه لم يلبث أن داهمته الجيوش الانجليزية في أواخر سنة ١٧٩٠ م ، وهو لا يزال نعم بهذا النصر المبين ، ولقي حتفه في أثناء حصار سرنجاباتم Seringapatam . وسرعان ما أنكر البراهمة والنيار Nayers الذين الاسلامى ورفضوه ، وعادوا الى دينهم القديم ، حتى إن عدد المسلمين في الجهات التي يسود فيها النفوذ الإسلامى ، مثل دلى ، لا يكاد يعدو العشرة في المائة من السكان (٢) .

من ذلك نرى أن الديانة الهندوكية لم تضعف بسبب دخول الإسلام في الهند . على أن هؤلاء الهندوكيين ، وإن كانوا قد رفضوا الإسلام ، فإنهم مع ذلك لا يزالون

(١) Arnold : The Preaching of Islam, pp. 261—62.

Ibid. p. 262. (٢)

يحفظون بعض طقوسه ، كدفعهم الموتى وفق العادات الإسلامية بدل إحراقهم بالنار .
واتخاذ أسماء إسلامية مثل « غلام » .

يبد أن انتشار الاسلام في بلاد الهند لا يرجع إلى ازدياد نفوذ المسلمين السياسي ووسط سلطانه وحده ، فان هناك جهات ، كجنوب الهند وشرق بنغالة ، كانت فيها قوة الإسلام تسياسة في غاية الضعف . وانما يرجع انتشار الاسلام فيها إلى جهود دعاة المسلمين . ولاسيا جنوبي الهند والدكن وأند وجوجرات وبنغالة . وترجع المحاولات التي قام بها المسلمون لنشر الاسلام في الهند الى جماعة المسلمين الذين هربوا من بلاد العراق ولجئوا الى هذه البلاد ، كما ترجع أيضاً إلى تغلغل النفوذ الاسلامي عن طريق اتصال سكان ساحل الهند الجنوبي الغربي بتجار العرب والفرس ، الذين اشتغلوا بتجارة التوابل والعاج بين الشرق وأوربا . وكان من أثر تردد هؤلاء التجار على هذه البلاد أن نشأ من سكانها خليط يجمع بين الدم الهندي من ناحية والدم العربي أو الفارسي من ناحية أخرى .

كما نشأت علاقات ودية بين هؤلاء التجار من المسلمين وبين الحكام الهندوكيين ، الذين ملوا لهم يد المساعدة ، وتعهدوا بحمايتهم وحماية تجارتهم ، تشجيعاً لهذا النشاط التجاري ، وما أصابه أهل هذا الاقليم من دمج وفير وثروة ضخمة واتعاش اقتصادي ملحوظ ، حتى لقد عمل الوطنيون من الهنود الذين اعتقدوا الاسلام بدون اعتبار للطبقة التي ينتمون إليها ، معاملة تنطوي على الاحترام الذي كان يعامل به تجار المسلمين الوافدين على هذه البلاد (١) .

ولم يكن انتشار الاسلام في بلاد الهند راجعاً إلى هؤلاء التجار فحسب ، بل ساهمت طائفة من فقهاء العرب ومفكرهم في نشر هذا الدين (٢) . فقد بلغت نسبة المسلمين على ساحل ملبار في أوائل القرن السادس عشر نحو خمس السكان ، ولا يزالون يتميزون عن غير المسلمين باطالة لحاهم وغطاء رأسهم . ولا يعزب عن بالنا ما كان للأفراد من أثر

Arnold : Ibid, pp. 263—4. (١)

Ibid, pp. 265 et seq. (٢)

في نشر الاسلام في بلاد الهند، وما قام به شاه رخ البهادوري الشيرازي في سنة ١٤٤١ م من محاولة نشر هذا الدين في قاليقوت . هذا الى ما كان للبعوث الاسلامية التي اشتره رجالها بالعبادة والورع والتقوى وعمل الخير من أثر في هداية كثير من الهندوكيين الى الاسلام .

وبما ساعد أيضا على دخول كثير من الهندوكيين في الاسلام ، أنه كان إذا نبذ أحد هؤلاء الهندوكيين عشيرته وطردته أسرته من حظيرتها ، جذبه الإسلام إليه ، وسأوى بينه وبين سائر المسلمين ، وسمح له بالاندماج في الطبقة الاجتماعية التي كان ينتمي إليها وهو على دينه القديم . وإن هذا التحول كان يتبعه في العادة إيمان قوى بهذا الدين وعقائده . ولو أن أمبراطورة المغول استمرت في حكم بلاد الهند لتحول كثير من أهالي هذه البلاد ، وبخاصة أهالي راجبوتانا Rajputana وبنكلخند Bunkelkhand الذين لم يقتصرُوا على احترام شيوخ المسلمين ، بل عهدوا بتعليم أطفالهم إلى معلمين من هؤلاء المسلمين ، وذبحوا الحيوانات على النحو الذي يذبح به المسلمون ، واشتركوا في أعيادهم ، وتزويروا بأزيائهم ، وصلوا كما يصل المسلمون المتمسكون بشعائر دينهم .

وإن ما أظهره أمراء المسلمين في بلاد الهند من روح التسامح قد حفز هؤلاء الهندوكيين على الدخول في الإسلام ، بخلاف ما كانت عليه الحال في عهد الأسرات المغولية التي عملت على نشر هذا الدين بما لها من نفوذ وسلطان . ومع ذلك لم يكن لهذه السياسة الأثر المرجو ، بل إنها - على العكس - قد أدت إلى توحيد كلمة الهندوكيين وأدت إلى وفوفهم في وجه أمرائهم المسلمين .

كذلك كان الهندوكيون يشتركون مع المسلمين في شعائرهم الدينية ، فيذهبون ذرافات ووحيدانا لزيارة أضرحة الصالحين ، وينذرون النذر عليهم ينجبون أولاداً . فإذا ما استجيب دعاء أحدهم وقضيت حاجته وأولد ولدا ، بر بقسمه ، واعتنقت أسرته الإسلام^(١) .

وبما ساعد على دخول كثير من الهندوكيين في الإسلام ، أنه إذا تبسّى أحد أغنياء

المسلمين طفلاً هندوكياً، نشأ هذا الطفل نشأة إسلامية . كما أن النساء الهندوكيات كن يتحولن إلى الإسلام بزواجهن من المسلمين . وقد حرص المسلمون على اجتناب كثير من أطقال الهندوكيين إذا قدوا آباءهم وأمهاتهم وقت انتشار المجاعات، ويعملون على تحويلهم إلى الإسلام . ويرى سير توماس أرنولد^(١) أن نظام الطبقات في بلاد الهند، وما يسوده من خلافات، قد ساعد على ازدياد نفوذ الإسلام في هذه البلاد، كما أدى إلى تحول عدد كبير من الهندوكيين إلى هذا الدين .

هذا النحو؟*

بقلم

أمين الخولي

معالم البحث :

- ١ — من التواميس الاجتماعية : أن تعد الفكرة حيناً ما ، كافرة محرم ؛ ثم تصبح عقيدة تعتق وقد جرى هذا أماننا في حياة الفقه الإسلامى حديثاً .
- ٢ — عملنا لنوى ، والحياة تقتضينا فيه تجمداً ؛ وإنما بدأنا بذكر الفقه ، لأن أصول هذا النحو تبنى عليه عند القدماء ، لحديث تجده بمهد للتجديد اللغوى .
- ٣ — طرائق الإصلاح اللغوى متعددة : منها الحر الطليق — المتطرف — والمتوسط المعتدل الذى يقف على أثر التجدد التشريعى ... وقد خطا التجدد التشريعى أخيراً خطوات فسيحة ... ثم من طرائق الإصلاح اللغوى ما هو مسرف فى الاعتدال حتى يكاد يكون جوداً ؛ وهو الطريق الذى نسير فيه هنا الآن .
- ٤ — حياتنا اللغوية ومشكلاتها ، ومحاولات المحدثين فى التدبير لها .
- ٥ — تيسير النحو والرأى فيه : ما تأخذه منه ، وما ندعه .
- ٦ — صعوباتنا اللغوية اليوم ليست ما رأها أصحاب تيسير النحو ، بل هى غير ذلك ؛ فهى : المعيشة بلغة ، وتعلم لغة أخرى ، وهى اضطراب أعراب هذه الفصحى التى تتعلمها ثم هى اضطراب قواعدها .
- ٧ — التدبير لحل هذه العقد : والأصل العام لهذا الحل .
- ٨ — معالجة اضطراب الإعراب : فى الأسماء الخمسة : والمنثى : وجمع المذكر السالم ؛ والجمع بألف وتاء ؛ والأسماء المنقوصة ؛ والأفعال الخمسة : والمضارع المعتل الآخر .
- ٩ — معالجة اضطراب القواعد ؛ ومحاولة طردها بمجموعة أصول الأقدمين التحوية .
- ١٠ — مناقشة ما يمكن أن يورد على هذه الحلول من شبه مثل : صلتنا بالقرآن ؛ وحال تلاميذنا مع هذه الحلول ، أمام التراث القديم ؛ وروابط الشعوب التى تتكلم العربية .

نواميس اجتماعية

منذ أكثر من عشرين عاماً ، كنت أتولى تحرير مجلة القضاء الشرعي ، فنشرت فيها مقالا من رسالة لأحد أبناء المدرسة عن « اجتهاد عمر » ، خاصاً بالتطبيق ثلاثاً بلفظ واحد ؛ وأعجب هذا المقال من أعجب ، حتى استدعيت من الريف سريعا لأدرك المجلة وقد تعرضت خطر مخيف على حياتها ، فكتبت في افتتاحية «لنعد التالي - صفر سنة ١٣٤١ هـ - كلمة أهدى بها النفوس ، كان بما قلت فيها :

« ثم تنشر المجلة ذلك رأيا لها أو مذهبا ، ولم تعلق عليه باستحسان أو تحيذ ، ولم يحى . في سياق الكتابة نفسها ما يشعر بدعوة إلى جديد ، أو حمل عليه ، أو تحسين له ، ولكنه بحث نظري محض ، كتب للخاصة من المتفقهة . يروضون فيه النظر ، ويمرنون الفكر ، ولم أن يفنئوه وينقضوه ، ويدروا عليه بما شاموا ، والمجلة تتقبل ذلك بصدر رحب وقبول حسن ، ولا سيما إذا ذكرت أن البحث نظري محجوج إلى التقيص ؛ ويمحس فيه الأخذ والرد ... »

إلى كلام آخر في هذا المعنى وما يتصل به .

وشاء الله وقضت نواميس الكون الاجتماعية ، بعد ذلك بأعوام ليست كثيرة في حياة الأمة ، أن يصبح منع التطبيق ثلاثاً بلفظ واحد ، قانونا رسمياً ، معمولاً به في المحاكم . ثم قضت بأن يكون الأستاذ كاتب المقال السابق أحد أساطين المختصين بإصلاح تشريع الأحوال الشخصية ، في مسائل أهم وأبعد مدى من الطلاق الثلاث بلفظ واحد .

ولما لظاهرة مطردة مكررة في حيات الكائنات المعنوية كلها . وقد عرفتها الدنيا في شواهد جمّة ومواطن متعددة ، بما له صلة بالدين والاعتقاد ، أو لاصلة له به . إذ تعد الفكرة حيناً ما ، ككفرة محرم وتحارب ، ثم تصبح - مع الزمن - مذهباً بل عقيدة وإصلاحاً تخطو به الحياة خطوة إلى الامام ...

وعلى أساس من التنبيه لهذا الناموس الاجتماعى والثقة به ، تعرض لموضوعنا فى هذا النحو .

النحو والفقه

ولكن ... مادام الناموس الاجتماعى مطرداً فى حياة الكائنات المعنوية جميعاً ، فقيم البدء بالإشارة إلى هذا الفقه وما كان من أمره ؟ ونحن قوم انما نشغل بالشئون اللغوية ، وقد قصدنا إلى الحديث فى هذا النحو ، حين استفاض القول بفساد ما بينه وبين الحياة ، إذ أقام الصعوبات المخرجة فى أوجه الصغار ، حين يتعلبون الفصحى ، فيعكفون على تعلمها مدة لن تقل فى حياة واحد منهم عن اثني عشر عاماً ، حتى يحصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، وقد تزيد ... ثم لا يظفرون منها بطائل ، بل يتقدمون إلى الحياة كباراً لا يحسنون استعمال هذه الفصحى والانتفاع بها ، وهى أزمة إن شكاها الأفراد فإن هذه الأمة لتشكل من أنها تعيش بلغة ، وتبذل ما تبذل فى تعلم لغة تكاد تظل غريبة عنها ، فلا تجد فيها ما لا بد منه للأمة ، وهو الأداة الطيبة المنة المواتية للتفاهم والتعامل ، والتعلم ، والتفنن . تلك الأداة التى تحقق رغبات الجماعة فى ميادين النهضة على اختلافها ، وتكون عاملاً من أهم العوامل فى وحدة الأمة ، وتماسكها ، وإعانتها على مسيرة الحياة ، والاستجابة لكل تدرج وتطور فيها ، والحياة بطبيعتها تدرج ونماء ...

ومن أجل ذلك صار الواجب الاجتماعى الأول ، على المشتغلين بالشئون اللغوية أن يفكروا تفكيراً نفاذاً ، فى تدبير الوسائل الفعالة لتذليل هذه الصعوبات كلها ، وهو ما حاولت بجهدى المتواضع أن أعرض فيه شيئاً عن هذا النحو .

ولأنما بدأت بالإشارة إلى الفقه ، لأدل بذلك على خطوة من الخطط ، فى بحث مسألة النحو ، إذ أن للبحث فيه أكثر من خطوة : فقد يأخذ متناوله بالحرية المسرفة فيقول لكم إن اللغة — فى نظر الاجتماع — أشد التقاليد الاجتماعية لنا ، وأقلها صلاحاً وتحرراً ، وأطوعاً للتطور ، وأكثرها تأثراً بالعوامل المختلفة ، وانقياداً لسائر ظواهر الاجتماع وأنظمة المجتمع ... ومن هنا تعددت اللغات بتعدد الجماعات ، ثم تفرعت اللهجات

باختلاف البيئات ، في وطن الجماعة الواحدة الجنس والإقليم ، ومن هنا أصابت اللغات الحياة ألواناً من التطور حفظت بها حيويتها واستجابت لطلبات الجماعة منها ، فكذلك ينبغي أن تتناول لغتنا إصلاح حر طليق . إذا ما أردنا لها أن تكون في حياتنا ، كما يجب أن تكون اللغات في حياة الأمم .

ولا تحسبوا أن هذا الذي أصفه هو احتمال فرضي أو رأى نظري ، فقد كان قولاً يقال وينشر في الجيل الماضي ، مع أنه حديث عهد بتجدد ، فكان من رجاله من أشار بالتخلص من هذا النحو وإعراجه بالوقف مثلاً ، كما كان من رجاله - وإن لم أثبت اسمه من قال ما معناه : « إن كانت هذه اللغة التي تريدون أن تعيش بها ، ميراثاً آل إلينا ، قلنا فيه ما للمالك في ملكه من تصرف ، فدعونا نتصرف فيها بما يصلحها . وإن كانت عارية لا غير ، نخذوها ودعونا نبحث عن لغة غيرها ، نستطيع التصرف فيها بما ينفع حاجة الحياة » .

وسواء أكان هذا قولاً لشخص بعينه ، هو المرجوم أحد فتحى زغلول باشا ، - فيما نقل إلى ، أم كان صرخة كل فرد مكظوم حين يعاني هذه الصعوبات ، فإن واقع الحياة لا يغفل تقديره .

ولكننا رغم هذا كله ، لن نأخذ هنا بشيء من تلك الحرية التي تبدو مسرفة ، بل ندع الآن هذه الخطوة التي لا تمسك إلا بحقها في التصرف ، دون أن نقيم هذا التصرف على أساس تعينه ... ندعها هنا لناخذ بخطة مسرفة في عكس ما أسرفت فيه الأولى من حرية ، مسرفة في الرجوع إلى القديم ، والتعمق في البحث عنه . فهي خطة معتدلة محافظة ، تقيم نظرها في مسألة النحو ، على ما يتكشف لها من تقدير لأصوله البعيدة التي أقام النحاة عليها بناء قواعده ، وللنحو أصول كأصول الفقه . وأصول القانون ، صنعها أصحاب النحو على وجه يبين في تاريخه ، والفحص لناهج درسه ... وما دام للنحو أصول فإن الرجوع إليها أمر لا بد منه في فهم كيانه ، فهما يعين على التحدث فيه عن بصيرة ، ويدل على تقدير أصحاب هذه القواعد لها ، ومدى ما يميزونه من التصرف فيها بنقى أو اثبات .

والناظر في هذه الأصول ، يرى النحاة منذ أول الدهر ، قد ربطوا أصولهم بأصول

الفقه، بل حملوها عليها... فهذا ابن الأنباري - المتوفى سنة ٥٧٧ هـ - حين يعد علوم الأدب، يذكر أنه ألحق بها - علم أصول النحو : فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه : من قياس اللمعة ، وقياس الشبه ، وقياس الطرد ، إلى غير ذلك على عد أصول الفقه ، فإن بينها من المناسبة ما لا يخفى : لأن النحو معقول من منقول ، كما أن الفقه معقول من منقول ، ويعلم هذا حقيقة ، أرباب المعرفة بهما^(١) .

ثم هذا الجلال السيوطي بعده - في القرن العاشر الهجري - إذ يزعم أن صنيعه - في كتابه الاقتراح في أصول النحو ، صنيع مخترع ، وتأصيله وتبويه وضع^(٢) مبتدع ، لا يثبت أن يقول هو بنفسه عن هذا الاختراع ، أنه رتبته على نحو ترتيب أصول الفقه ، في الأبواب والفصول والتراجم^(٣) الخ - كما يقول في ثانيا كتاب الاقتراح . هذا معلوم من أصول الشريعة ، وأصول اللغة محمولة على أصول الشريعة^(٤) وليست المسألة بنت القرن العاشر أو السادس ، بل هي أسبق من ذلك وأقدم . فابن جني في القرن الرابع - توفي سنة ٣٩٣ هـ - قد زاول أصول النحو - كما يقول السيوطي المخترع بنفسه : « إن ابن جني وضع كتابه الخصائص في هذا المعنى ، وسماه « أصول النحو »^(٥) وقول ابن جني هذا - في صلة النحو وأصوله ، بالفقه وأصوله أكثر مما روينا وأوضح ، إذ ينقل عنه أنه قال في الخصائص : « أعلم أن أصحابنا انتزعوا العلل من كتب محمد بن الحسن ، جمعوها منها بالملاطفة والرفق^(٦) » .

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء . ط مصر ١٢٩٤ هـ . صفحة ١١٧ .

(٢) السيوطي : الاقتراح في أصول النحو طبعة الهند صفحة ٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٢ .

(٦) ربما كان هذا المعنى الذي ذكره ابن جني من أخذ النحاة عنهم من كتب محمد بن الحسن ، صاحب أبي حنيفة ، وجعلنا أشار به الزنجشیری في مقدمة « الفصل » لى هذا الإمام الفقيه بخاصة ، إذ يذكر أن السلام في معظم أبواب أصول الفقه وسائلها ، مبنى على علم الإعراب . وبين أهمية هذا العلم للعلوم الإسلامية المختلفة ، وتدخله في مباحثها ، حتى يشير إلى صنيع محمد بن الحسن الشيباني ، من بين الفقهاء ، ويقول : « حلا سفهوا رأى محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله ، فيما أودع كتاب « الإيمان » (شرح الفصل لابن عبيش . طبعة مصر ص ١٤) . فقل تصينه هذا الاسم ، وإشارته بالذكر دون غيره ، يشير إلى صلة عمل هذا الفقيه بعمل النحاة ، على نحو ما ذكره ابن جني ، من انتزاعهم علل النحاة من كتبهم بالملاطفة والرفق .

وفي كل حال ، فإن الصلة بين الأصلين ، وحمل أصول النحو على أصول الفقه ، بما استقر أمره في نظر الأقدمين على ما نقلنا . وإن زاد ابن جنى على هذا أصول المتكلمين وضمها إلى أصول الفقهاء ^(١) . ورأى أن علل النحاة أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقيين ^(٢) ؛ وجعل عليهم في منزلة بين التعليين ؛ الكلامي والفقهي ، فبى متأخرة عن علل المتكلمين ، متقدمة على المتفقيين ^(٣) .

وما نقف هنا لرى رأيا في فقيه هذه الأصول النحوية ، أو كلامية العلل النحوية فربما اطمأننا إلى غير ذلك كله ، حينما نعرض للبحث النظري فيه ، تحقيقاً للنهج النحوي وما حوله . . وإنما مهمتنا هنا — كما قدمنا — عملية ، نلزم النحاة فيها بقولهم . وأول هذا أن نسجل عليهم ما التزموه وقرروه ، من حمل أصول اللغة على أصول الشريعة حملا ، وأخذها منها أخذاً ، بل نقدر ، مع ذلك أنهم تحمروا تأليف كتبهم في النحو على غرار ما ألف الفقهاء في فقههم ^(٤) فنتظر أولاً مكان :

اللغة والشريعة في الحياة

من حيث اتصال كل واحدة منهما بهذه الحياة ، ثم من حيث تأثر كل واحدة منهما بها . فكل من الشريعة واللغة ، مظهر قديم من مظاهر حياة الجماعات البشرية ؛ ثم اللغة من أقدم هذه المظاهر — إن لم تكن أقدمها — في تقدير أصحاب الاجتماع . وهما متصلتان بالحياة العاملة اتصالاً وثيقاً ، بل عنيقاً . وربما كانت اللغة في هذا المعنى أشد وثاقه ، وأقوى ارتباطاً ، لأن بعض التشريع قد يغنى عنه القانون الخلق . ولا غنى لجماعة متقدمة — إلى الآن — عن اللغة . . . والشريعة تنظم ناحية من نواحي معاش الناس ، على حين تصل اللغة بكل النواحي .

وأما من حيث تأثر الشريعة واللغة بالحياة وواقعها ، فإننا نعرف أن الشريعة تعتبر

(١) ابن جنى ، الخصائص ، المقدمة ص ٣ .

(٢) ابن جنى ، الخصائص ص ٤٦ . الاقتراح ط الهند ص ٤٦ .

(٣) الخصائص ص ١٤٩ . الاقتراح ط الهند ص ٥٠ .

(٤) السيوطي — الأشباه والنظائر — المقدمة ط الهند .

العرف . وهو تركيز اجتماعي بطيء التكوين بطيء التغيير ، فهي إن لامعت الزمان والمكان ، وجعلت أحكامها تناسبهما ، إلا أنها في ذلك بطيئة الخبط بطيئة التغيير نوعاً ما . . . ولعله بهذا اتخذه الفقهاء . حين أقفلوا باب الاجتهاد ، وتصوروا أن يجعلوا إقفاله أدياً .

أما اللغة فهي على ما سمعتم من قول الاجتماعيين عنها ، أشد المظاهر الخيرية لينا وأقلها تصلباً وتحجراً ، وأطوعها للتطور . وقد ماؤنا أنفسهم يدركون هذا واضحاً حين يتحدثون عن تهذيب اللغة وعوامه ؛ وحين يقررون أن الاستعمال يحى ويميت ، ويقبح ويحسن ، وحين يصفون تداخل اللغات ، وتحول اللسان ، وما إلى ذلك ، من دلائل الشعور بتأثر اللغة بالحياة تأثراً قوياً .

وإذا ما كانت تلك هي صلة كل من الشريعة واللغة بالحياة ، وحظ اللغة منها أقوى ؛ ثم إذا ما كان هذا مدى تأثر كل من الشريعة واللغة بالحياة ، ونصيب اللغة منه أوفر وأظهر ، فإن من حقنا حين نحاول شيئاً من تطويع اللغة للحياة ، أن ننظر أولاً في :

- ٤ -

صنيع أصحاب الفقه اليوم

إذ الواقع قد أجبرهم على صنوف من التدرج والمسايرة ، بحكم قاس لا يرد ، فنظروا في قواعد التصحيح والترجيح عندهم ، وخطة اختيار المذاهب والقضاء بها . وهي القواعد التي تتبعها النحاة تبعاً . وقد قدم الفقهاء من ذلك ما غيروا به التشريع في الأحوال الشخصية ، وكانت لهم في هذا محاولات متفرقة ، آخرها — وقد يكون أوسعها — صنيع لجنة الأحوال الشخصية التي مضت عليها أعوام تباشر عملها ، وقد أخرجت منه ما أصدرته الحكومة قانوناً ، بعد ما أقره البرلمان . وهيات قدراً آخر للإصدار .

وقد آثرت ألا أقول في هذا شيئاً من عندي ، وإن كنت أستطيع هذا القول ، فوجهت سؤالاً كتابياً في ذلك إلى أحد أعضائها المحترمين ، ليجيب عنه كتابةً أيضاً — ولعله من حسن الاتفاق أن هذا العضو المحترم ، هو صاحب مقال «اجتهاد عمر» الذي صدرت هذا الحديث بالإشارة إلى ما كان من أمره ، وما انتهى إليه الحال ، من جعل الحرم بالأمس تشريعاً اليوم . وهذا العضو هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أحمد فرج السنهوري الذي تعرف اللجنة له في عملها أثراً محموداً ونشاطاً بارعاً .

قلت له في سؤالى: ...أعرف أنكم أعدتكم في اللجنة التحضيرية للتشريع الجديد — في الأحوال الشخصية — مذكرات في هذا التشريع ، فأرجو أن تفضلوا ببيان على واف عن المستور الذى اتبعتموه في اختيار الأقوال والآراء الفقهية ، ولكم الفضل والشكر .

فتفضل باجابة كتابية موقعة منه ، ألخص منها هذا المستور محتفظا بعباراته ، نفسها ، لتروا ما فعل أصحاب الأصول التى حملت عليها أصول النحو حملا .

دستور شرعى للتجديد النعوى

فقد قال ان اللجنة التحضيرية ، التى تقوم بإعداد المشروعات الفقهية — وهو أحد أعضائها الثلاثة — قررت مبادئ أقرتها فيما بعد اللجنة العامة ، وتلك الأصول هى :

١ — أن الشريعة جاءت لمصالح العباد ، وأن الدين يسر ، وأن المشقة تجلب التيسير ، وأنه كثيرا ما أخذ المتأخرون بالقول المرجوح واعتمدوه ، لتغير الزمان ، أو الأعراف ، أو لأنه أرفق بالناس ، وعلى هذا الأساس ، سارت اللجنة فى عملها على النظام الآتى :

٢ — أن تجمع الآراء ، من الكتب الفقهية كلها ، بل من غير كتب الفقه أيضاً ، ككتب السنة والتفسير ، ولا تعتمد على المنصوص عليه منها صراحة فحسب ، بل يعتمد على المنصوص ، وعلى ما يؤخذ منه ، ومن علله ؛ وعلى القواعد العامة المذهبية ، والقواعد التى أقرها جمهور الفقهاء .

٣ — ألا تنقيد بمذهب واحد ، فى مسألة بعينها ، بل ينتزع حكم المسألة الواحدة من مذهبين أو أكثر ، ولا تنقيد بما نص على أنه القول الأصح ، أو الأرجح ، فى مذهب من المذاهب ، بل يؤخذ بالمرجوح ، وبه يفتى ويقضى .

٤ — أن تتخير أكثر الأقوال ملائمة للمصلحة العامة . مراعاة لما يوافق حاجة الأمة ويساير رقيها الاجتماعى ، على ضوء التجارب القضائية ، وما وقفوا عليه من الشكاوى الحققة .

فاذا ما سمع حديثنا عن « هذا النحو » من رى الاتباع خيراً من الابتداع ، ومن يحصى قواعد هذا النحو من كل يد متاوله ، قبل تراء سينعى للنحو قدسية دينية ؟ وهل تراء سيجعل تغير النحو عسيراً كتغير الفقه ، ويلحق تغير بالفقه في هذا كله مهما تكن مبالغته وتطرفه ؟... وهبه سيفعل هذا كله على بعده . فانا نقول له : إنا لن نطلب في هذا النحو أكثر مما فعل أصحاب الفقه في الفقه . وهو أصل لهذا النحو في تفكير أصحابه ، كما سمعنا قولهم في ذلك ، وهام أولاء الفقهاء . وقد مهدوا لنا سبيلاً لا بدع بعد ذلك في أن نسلكها . وحيث كان الأمر على ما سمعت ، من المستور الشرعى ، في تناول الفقه وإعدادة للتشريع المسائر للحياة ، فإن من الحق ، انذى يقره المحافظ المتبع ، بل الجامد الراكذ ، أن تتبع تلك القواعد الإجمالية في تهذيب هذا النحو فنقرر :

١ - ملاحظة التيسير والرفق ، ولا نقول ان البلوى بالنحو أعم من الفقه وأشمل ، بل حسبنا أن يساوى النحو الفقه في ذلك ، وإن كان من الناس غير قليل ، يستطيعون الاستغناء عن الرجوع إلى هذه المحاكم الفقية ، وليس فيهم واحد فرد ، لا يمرض للبشكلات اللغوية الكلامية ، وبخاصة حينما نمطى الناس جميعاً حقهم الفطرى في التعلم . ومجازاة الأمة ، واستعمال لغتهم في الحياة قراءة وكتابة وكلاماً ...

ب - جمع كل ما يوجد من المذاهب النحوية ، حيثما وجد ، والتوسع في فهمه دون وقوف عند نصوصه .

ج - عدم التقيد بمذهب نحوى واحد في مسألة بعينها ، وعدم التقييد بالأفصح أو الأرجح ، أو الأصح الذى نصوا عليه .

د - تغيير ما يوافق حاجة الأمة ، ويساير رقيها الاجتماعى ، على ضوء التجارب العملية ، والخبرة التعليمية ، والشكاوى الحقة ، من المصاعب اللغوية .

وليس من الابتداع في شىء مطلقاً أن يأخذ بهذه الأصول في اللغة والنحو ، أشد المحافظين ، بل المعتدلين ؛ بعد الذى سمع أن أصولها محمولة حملاً على أصول الشريعة ، وأن هذا ما أقرته أصول الشريعة ، وأصدرت على أساسه قوانين اعتمدتها السلطة التشريعية المصرية ، ولم يرفع صوت ما ، بمعارضة أصول هذا التشريع ، مع الفرق

المائل بل البون الشاسع ، بين الفقه والنحو من حيث الصفة الدينية ، والحل والحرمة في الأول ، وعدم ذلك تماماً في النحو . ومع شدة صلة اللغة بالحياة ، ومسايرتها إياها مسaire قهرية ، لا يستطيع أحد الوقوف في وجهها ، وهو ما لا يتوافر للشيعة بهذه القوة .

— ٦ —

اعتدال جامد

إلى هنا ، من الحديث عن منهج البحث في هذا الموضوع ، رأيت أن صعوباتنا اللغوية ، قد تعرض لتذليلها الجليل السابق ، أو الأسبق — على بساطة حظه من التجدد — فتحدث عن خطوة حرة أو متطرفة رأينا هنا ، ألا نأخذ بشيء منها ، وتركناها إلى خطوة تتأخر عنها خطوة إلى الوراء ، بل ربما تأخرت خطوات . فنظرنا إلى أصول النحو كيف أصلها النحاة وأسسوها ، وإذا هم قد انتزعوها من أصول الفقه انتزاعاً ، وإذا أصحاب الفقه اليوم يعملون رسمياً لمسيرة الحياة ؛ فقلنا : إن ما صنعه أصحاب الفقه يتخذ مثله في النحو ، لتذلل صعوباته ، مع ما بين النحو والفقه من فروق ، توجب ذلك في النحو أكثر وأقوى وأسبق مما توجه في الفقه ، وحل لنا اتخاذ هذا الدستور الشرعي ، للتجديد النحوي ، على أن هذه لا تكون منا إلا خطوة محافظة ، بل مقلدة ، لا محافظة تخسب . لكن ما رأيكم في أنه ، حتى هذه الخطوة . لا نخطوها هنا بل نرجع إلى ما وراءها أيضاً ، فإذا كان أصحاب الفقه قد حوروا فلا نحور نحن ، وإذا كانوا قد لفقوا فلا نلفق نحن وإذا كانوا قد القسوا الحلول حيثما وجدت في غير كتب النحو ، فلا نتمس شيئاً من ذلك نحن ... بل نلزم أصول النحو بنصها ، ونقف عند منطوقها ، ونبتغي الحلول من عباراتها !! وهو اعتدال جامد ، أو هو أكثر من ذلك حقاً ، فلا يخشى عليه اعتراض فيما أظن .

وعلى هذا الأساس ، سنعرض عليكم الرأي والاقتراح ، بعد أن تسعّموا قبله عبارة النحويين في أصولهم ، وأنها تحله في غير لوم ولا تريب .

والآن وقد أحجنا عما تقدم إليه الجيل الأسبق قلنا ، ثم تأخرنا عما تقدم إليه أصحاب الفقه حولنا ، لا نظن أن حولنا عناصر للرجعية أكثر من ذلك تأخراً ، فلتنظر بين هذا الاعتدال الجامد في :

— ٧ —

حياتنا اللغوية

وإذا قلنا : حياتنا اللغوية ، فإننا نقدر تقديراً صحيحاً أن حياتنا هذه اليوم ، إنما هي ثمرة ونتيجة لذلك الماضي الضويل الذي تعرضت فيه اللغة العربية لعوامل ومؤثرات اجتماعية متنوعة ، ورحلات واتصالات بعيدة المدى ، وصراع مع لغات أخرى انتصرت فيه حيناً وهزمت حيناً ، وتأثرت ببيئات طبيعية متغيرة ، وبيئات معنوية متعددة ، فترك فيها كل ذلك وما إليه آثاراً في كيانها ، وفي علومها ، وفي طرق تعلمها ، ولا بد لمن أراد فهم المنهج النحوي فهماً صحيحاً ، من التعرض لدرس هذا الماضي السحيق كله ، وتتبع آثاره ، والتفهم التفصيلي لتلك المؤثرات ، فقلعه بعد ذلك الدرس يفهم من غوامض هذا المنهج وخفاياه ، حقائق كثيرة ، وبتبين من نواحي خطئه وطرق تحريره ، ما لا يستطيعه قط المتناول المستعجل ، وفي العزم إن شاء الله أن نفرغ لهذا الدرس بعد الآن لنحكم على هذا المنهج حكماً دقيقاً ، ونحدث في تغييره وتصحيحه ، بما يقوم على واقع الحياة ، وقول التاريخ ، وسنة الاجتماع .

أما هنا ففرضنا على قريب ، لا يضيره الأغضاء عن هذا المنهج ولا يفسده التزام أصوله التي أشرنا إليها ، راجين مع هذا الاحترام والالتزام ، أن نزيح صعوبات ذاتية ، يعرض لها متعلم العربية في كل دور من أدوار هذا التعلم ، وإن كنا سنخفي هنا بغير المتخصصين في علومها المتفرغين لها ، تاركين أولئك المتخصصين يعانون تلك الصعوبات إلى أن يكون القول في المنهج قولاً علمياً تاريخياً ، يتم به التغيير البطيء لهذا المنهج وإن آتت عليه الحياة العامة والخاصة ، فيغير إذ ذاك أصحاب العربية المختصون بها ، من أسس مقرراتها وأصول دراستها ، بقدر ما يستطيعون من ذلك التغيير .
أما الآن ، فالحديث عن متكلمي العربية ومتعلميها كافة .

وتؤثر قبل أن نعرض لما زيد من غرض عملي ، أن تصف في إجمال موجز ، المحاولات التي بذلت في سبيل إزالة تلك الصعوبات ، لنتهدى بالنافع منها ، وننتقي ما ينقصها ، فيما نبتغيه .

وتبدأ المحاولات لتذليل صعوبة تعلم العربية واستعمالها ، مع النهضة الشرقية الحديثة ، ولعلها في مصر تظهر مع « محمد علي باشا » ولعل أصحاب هذا العهد وما تلاه ، لم يضنوا مسألة اللغة موضع الدرس النظري والتدبير ، بل سلكوا فيها خطوات عملية ؛ ظلوا بها ما واجههم . ودفعوا اللغة إلى الاستجابة لمطالب النهضة العلمية والحريية والصناعية ، التي ظهرت في الوادي ؛ فأحيوا ألفاظاً وأساليب واصطلاحات ؛ وحاولوا من ذلك ما حاولوا . حتى أخرجوا ذلك التاج القيم في الميادين المختلفة . عربى الصورة إلى الحد الذى استطاعوه . مع مزاحمة التركية لها . وجود العربية نفسها إذ ذاك .

ثم صارت مسألة اللغة موضع البحث والتدبير في مثل محاولة على مبارك باشا . إنشاء مدرسة خاصة بهذا ، لتبني معلمين للغة ، غير الذين كانت تعرفهم من الأزهر ، ومنذ ذلك العهد عملت المعاهد التي أنشئت حول الأزهر ، ولا سيما دار العلوم ، على تذليل صعوبات العربية ؛ وربما كانت الصعوبات الخارجية أو الشكلية ، أكثر ما وجهت العناية إليه ، أو ما سمح بتوجيه العناية إليه ، وتناوله بالتغيير ، فأصلحت طريقة تعليمها مثلاً ، واستعين فيها بما ترشد إليه أساليب التربية الحديثة قدر المستطاع ، ووضع الكتاب الأقرب مأخذاً ، والأصلح شكلاً في عرض قواعد اللغة ، فأزاحت تلك الأعمال شيئاً من الصعوبات ، ولكن ظل صراخ الشاكين يرتفع في كل مناسبة ، كما ظلت قواعد النحو نفسها في جوهرها وصورها ، على ما كانت عليه في الكتب الأولى ، وكما أسست على أصولها الأولى ، فيما اتخذته النحاة منها ، نقلاً عن أصول الفقه ، أو تأثراً بغير ذلك من مؤثرات وجهتهم في صنيعهم .. بقيت تلك جميعاً لم يفكر أحد في أن يمسها ، أو ينال منها شيئاً ما ، قليلاً أو كثيراً .

ثم عمل الزمن عمله . وتأثرت الحياة اللغوية بما حولها من مؤثرات التجدد . فجعلنا نسمع الكلام عن قواعد النحو نفسها وعمل النحاة فيها . ومنهجهم في ذلك . وجعل الدارسون ينظرون إليه بعين ناقدة . لا تغضى أمامه إجلالاً ولا هيبة . وجعل

يرتفع الصوت بذلك . فيها سمعنا من عناوين مثل : إحياء النحو ؛ وتيسير النحو . وما أشبه ذلك . مما نحاول أن نصفه قبل الإشارة بشئ غيره ؛ انتفاعاً بما فيه كما قلنا . واتقاء لما نقصه ؛ فلم يحقق الرغبة الملحة ، في تذليل العربية ، وتطويعها للحياة والاستعمال .

- ٨ -

في تيسير النحو

فأما إحياء النحو ، فاحتاج إلى الوقوف عنده لأن صاحبه — أكرمه الله — قد صار فيما بعد سادس خمسة ، كلفوا رسمياً ، تيسير النحو ، فجاء في ذلك بكل ما استطاع أن يكون له أثر على يذلل من قسوة هذا النحو . فنظرنا في هذا التيسير ، يغنى عن القول فيما قبله .

وقد كان هذا التيسير عملاً مرجو النجاح ، إذ أتيت له المعونة الحكومية والقوة الرسمية ، فصدر قرار وزارى سجل الشكوى من هذه الصعوبة ، وقال : « بما أن الوزارة سبق لها أن عملت على تبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة . فيما أخرجت من الكتب ، وكان لهذا العمل نتيجة مرضية ، وبما أن هذه الخطوة التى خطتها الوزارة فى الماضى لم تكن كافية ؛ إذ أنه لوحظ أن صعوبة قواعد النحو والصرف والبلاغة لاتزال قائمة ؛ وأن المعلمين والمتعلمين ، يبذلون جهداً كبيراً . ووقتاً طويلاً فى تعليمها وتعلها ، ولا يصلون بعد هذا كله ، إلى نتائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهده » .

وحدد هذا القرار انوزارى مهمة اللجنة^(١) التى ألفتها ، بأنها : « البحث فى تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة — كما سماها التبسيط الجديد — وطلب الأسس التى تشير اللجنة بوضع قواعد النحو والصرف عليها ، وقد أعدت اللجنة تقريرها فى ذلك وطبعته الوزارة وأذاعته .

(١) تألفت هذه اللجنة من حضرات الأساتذة : الدكتور طه حسين بك ، وأحمد أمين بك ، وعلى الجارم بك ، ومحمد أبو بكر إبراهيم ، وإبراهيم مصطفى — صاحب إحياء النحو — وعبد المجيد الشافعى وقدمت رأيها فى تقرير طبعته الوزارة ، وعليه نتمند فى هذا النظر ، وللى صفحاته نشير .

وما نحمد هذه اللجنة ، أنها تمثلت حاجة الأمة اللغوية تمثلاً واضحاً إذ قالت :
« ولئن تكونت اللغة العربية القصوى ، لغة حية خصبة حقاً ، إلا إنها شاعت بين الناس
على اختلاف طبقاتهم وأصبحت أداة يصطنعونها لتأدية أغراضهم المختلفة ، في يسر وإسراع
وفي غير مشقة وجهد » - ص ٤٢ س ٨٧ .

وناقى ما نحمد لها أيضاً ، اهتمامها بالعامل الاجتماعي الذي يزيد من صعوبة تعلم العربية
واستعمالها على الوجه الذي رآته اللجنة إذ قالت : « ... لأن الشباب لا يتعلمون هذه
اللغة كما يتعلم الشباب في الأمم الأخرى لغتهم . هم لا يسمعونها في البيت ، وهم لا يسمعونها
في البيت التي تحيط بهم ، ثم هم لا يسمعونها في المدرسة إلا أثناء درس اللغة العربية ،
ص ٢ س ٢٠ - وحين قالت : « ... ويجب أن نلاحظ أن الشاب الإنجليزي
أو الفرنسي إنما يحسن لغته ، ويتقن النطق بها والتصرف فيها لأنه يسمعا صحيحة في
البيت وخارج البيت . ويسمعا صحيحة في المدرسة بنوع خاص ، فقد تتأثر لغة البيت
ولغة الشارع ، ببعض اللهجات العامية ؛ وقد يكون لهذا تأثير في لغة التليذ ، ولكن
المحقق أن اللغة الصحيحة وحدها ، هي المسيطرة على التعليم الحديث داخل المدرسة ؛
والشباب الفرنسي أو الإنجليزي لا يسمع اللغة الصحيحة في درس اللغة الفرنسية
أو الإنجليزية فحسب ، ولكنه يسمعا في درس التاريخ والجغرافيا ، وفي درس الطبيعة
والكيمياء ، وفي درس الرياضة أيضاً . » ص ٣ س ١٧ وما بعده -

ومن تقدير اللجنة للعامل الاجتماعي في صعوبة تعلم اللغة العربية واستعمالها ، ما أشارت
إليه كذلك من مزاحمة اللغات الأجنبية للغة الوطنية ، في عقول الصبية وأذواقهم وذكرياتهم ،
ومارأته من أن التعليم الابتدائي يجب أن يخلص للغة الوطنية ، فلا يسمع الصبي في المدرسة
الابتدائية غيرها - ص ٤ س ٣ وما بعده - . كما قررت أهمية الاعتبار الاجتماعي
في حياة اللغة الوطنية بقولها كذلك : « ولنسجل أننا على إكبارنا لخطر النحو والبلاغة ،
لا نتغتر بأثر هذا التيسير ، ولا نراه السبيل الوحيد إلى إحياء لغة وإشاعتها ، ونمكن التلاميذ
من أن يمنحوها ما ينبغي أن تمنح اللغة الوطنية ، من الحب لها والإقبال عليها ، وإنما هو
سبيل من هذه السبل ، يجب أن تأخذ بأسبابه ؛ ولكن يجب ألا نكتفي به ونقصر جهدها
عليه . » ص ٥ س ١١ وما بعده .

والحق أن لهذا العامل الإجتماعى دائماً خطره فى اللغة العربية وعلى اللغة العربية أيضاً طوال حياتها ، كما هو الشأن الاجتماعى للغات فى الحياة دائماً . ومن هنا ما أشرت إليه قريباً من ضرورة بحث أثر هذا العامل فى حياة علوم العربية ومناهجها ، ولكن هذا العامل الاجتماعى مهما يكن خطره فى الإقبال على تعلم الفصحى والنشاط لاستعمالها ، قد كان له منذ القدم أثر أشد خطراً فى أبناء العربية نفسها ؛ وقد خلف فيها صعوبات ذاتية هى التى نحاول تذليلها اليوم تذليلاً عملياً ، مع تقديرنا أن الاهتمام الإجتماعى بهذه اللغة فى الحياة ، مؤثر كبير جداً فى التغلب على هذه الصعوبات ، إذا خف ما بها من تعقد جوهرى ، وصعوبات أساسية سنصفها فيما بعد .

* * *

والآن وقد حمدنا من نظرات أصحاب هذا التيسير ما حمدنا ننظر فيما وراء ذلك منه فترى .

١ - أن أصحابه يقولون : « قد شرط علينا القرار الوزارى ، وشرطنا نحن على أنفسنا ، ألا ينتهى بنا حب التيسير إلى أن نمس من قريب أو بعيد أصلاً من أصول اللغة أو شكلاً من أشكالها ، ص ٥ س ١٥ - فنقول لهم : هبوا أن القرار الوزارى - لاعتبار سياسى أو نحوه - قد شرط عليكم ألا يمسه التيسير والتبسيط أصلاً من أصول اللغة ولا شكلاً من أشكال الإعراب والتصريف ، كما قال ؛ فهل ترونكم - وأنتم المكابدون المعانون لهذه الآلام - تزلون على ذلك وتلتزمونه ؟.. لقد أثمرت الناحية الإجتماعية وما إليها ، وأفسجتم لها من صفحات تقريركم ما يزيد عن ثلثه ، ثم قلتم : « وقد أطلنا فى هذه الأشياء ، مع أنها ليست من جوهر المهمة التى كلفنا النهوض بها ، لنشير بما نرى أنه الخير من جهة الخ ، ص ٥ س ٩ - ١٠ - فكتمتم بالقياس على هذا ، بل بالإخلاص للعمل الذى أنتم أهله الأولون ، خلقاء بأن تشيروا بما فيه الخير ، من عدم التخرج من المساس بشكل من أشكال الإعراب والتصريف ، ومن وجوب النظر فى الأصول نفسها لعل فيها ما ينتفع به دون مساس ولا تغيير ! بل كنتم - فيما أومن به - خلقاء بأن تشيروا أن المسألة من الأهمية والخطر الاجتماعى ، بحيث تحتاج إلى النظر المستأنف فى هذه الأصول نفسها ... لكنكم فعلتم عكس ذلك ، ونحن شرط عليكم القرار ألا سمسوا فقط ،

زديم أنتم قتلتم : وشرطانحن على أنفسنا ألا نمنس من قريب أو بعيد... ذلك ما لا أرتاح إليه من حذركم ولا ألتزمه إن شاء الله، وإن كنت مستغنياً فعلاً عن المساس، لأننا لا نعرف لهذا النحو تلك التقسية، وليس عنا يعرفها الناس له !! على أنا نسرى فيما يلى أن اللجنة لم تهيب هذه المساس بل أقدمت على غير شيء منه...، وإن كان أعضاؤها رغم كل شيء قد غلبهم حب الحياة والتجدد . فعدوا عملهم خطوة معتدلة موقفة في هذا التيسير؛ قد تباح بعدها خطوات أدنى إلى التوفيق وأقرب إلى الكمال — ص ٢ س ٣ —

==

وتنظر في اقتراحات اللجنة التي رأت أن فيها تيسير النحو، فترى ما يأتي :
(١) أنها ترى : وجوب الاستغناء عن الإعراب التقديرى والإعراب المحلى — ص ٧ — ولكن . ما التيسير في هذا ؟! أن الكلمات التي فيها هذا الإعراب من المقصور والمنقوص، والمضاف لياه المتكلم، والمبنيات ليست مصدر الصعوبة على القارىء أو المتكلم، لعدم تغير الحركات عليها باختلاف مواضعها، بل ليت اللغة كانت كلها من هذا الصنف، إذن لزالّت الصعوبة الأساسية .
ثم إن بيان هذا الإعراب التقديرى والمحلى، بقدر ما يعرف متعلم العربية، أجزاء الجلالة لا بد منه لفهم المعنى، كما أنه لا بد من معرفة موقع الإعراب للكلمة التي لم تظهر عليها الحركة ليتمكن ضبط تابعها بعدها، فن يقول : جاء الفقى، لا بد له أن يعرف موضع الفقى من الإعراب ليقال بعد ذلك : الأبيض أو الطويل الخ — ودع عنك فوق هذا ما لا بد منه في فهم معنى بناء الكلمة، من معرفة أنها وقعت في موضع تغيير الآخر بكنا ولم تغير . فكل الذى يمكن الإستغناء عنه هو الأخذ بالرواسيم والصيغ المتشجرة، في بيان هذا الإعراب التقديرى أو المحلى، وتلك مسألة شكلية يكفى فيها أيسر لفت للبعدين ١١.

٢ — رأت اللجنة عدم التمييز بين علامات إعراب أصلية وأخرى فرعية، فلا تقول إن الأسماء الخمسة معربة بالواو أو الألف أو الياء نيابة عن حركة كذا. بل هى مرفوعة بضمة ممدودة . منصوبة بفتحة ممدودة، مجرورة بكسرة ممدودة... وفى هذه الفقرة من قرارها : قسمت اللجنة الأسماء بحسب ما تظهر فيه الحركات كلها أو بعضها، وجعلت بين هذه الأقسام أيضاً ما تظهر فيه ألف ونون، أو ياء ونون، أو واو ونون، وعدت

من كل أولئك أقساماً سبعة؛ ثم تقول بعد هذا كله، إنها تقرر عدم التمييز بين علامة أصلية وأخرى فرعية .

وتنظر^(١) في هذا الصنيع ، قترى — فيما يخص الأسماء الخمسة ، والحركات الممدودة فيها ، ليس فيه شيء من التيسير مادامنا نفهم مع التفسيرين وأهل الترية ، أن اللغة إنما هي الأصوات ، لاصور الأصوات ، فهنا قد وجد صوتان : ضمة قصيرة ، وأخرى طويلة . سواء أصورتها بواو ، أم بممدود الضمة ، فهي صوت مغاير للأولى ، وقد وجد التعدد وتغيرت الأحوال والقواعد على المتعلم .

ثم إنها فيما عدته من أقسام حسب ظهور الحركات على الكلمات ، في الأحوال جميعها — أو في بعضها — قد عدت فيما قلنا سبعة أقسام بالأسماء الخمسة ، فكثرت عما في القديم ، إذ كانت تعد الياء حالة مشتركة في المثني وجمع المذكر ، ثم ما التيسير في هذا وقد ذكرت علامات متعددة ، هي حيناً حركات ، وحيناً حروف ، وحيناً حركات بدل حركات كما في الممنوع من الصرف — ولعل في النص على النيابة راحة ذهنية . على أن القدماء الأولين لم يجعلوا النص على النيابة أمراً هاماً يجب ذكره ... فليس في هذا العمل كله تيسير .

٣ — قالت اللجنة « جعل النحاة لحركات الإعراب ألقاباً ، ولحركات البناء ألقاباً » ص ٨ ، لكنك تجد أن ليس النحاة — استغراقاً ولا عهداً — قد جعلوا ذلك ، بل هو جعل سيويه ، والكوفيون يخالفونه^(٢) — وقد عادت اللجنة نفسها أخيراً فقالت « ومن التحويلين من لم يلتزم هذه التفرقة » . وكانت تحسن لو قدمت هذا .. وأخذت به . وفي كل حال ، انتهت اللجنة إلى أن ترى أن يكون لكل حركة لقب واحد في الإعراب والبناء ، وأن يكتبني بألقاب البناء ... والأمر أيسر من أن يوقف عنده كما ترى .

(١) في هذه الأسماء الخمسة ، مسألة منهجية أخرى هي أن هذا الرأي في إعرابها بممدود الحركات ، قد أورد بين اثنين عمر رأيا في تفسير هذا الإعراب لتلك الأسماء ، فإذا ما أريد ترجيعه على غيره نظرياً وجب إبطال ما عنده ، أو وجب على الأقل ترجيعه على ما عنده بغيره ، أو وجب على الأقل ، رد ما أورد عليه من اعتراضات ، ولم تتكلف اللجنة شيئاً من ذلك كله ، فست أصول البحث والتفكير ، وهي التي شرطت على نفسها ألا تمس من قريب أو بعيد ، شكلاً من أشكال الإعراب والصرف .

(٢) شرح المفصل ج ١ ص ٧٢ .

٤ — حاولت اللجنة ضبط الجملة بأصنافها تحت تقسيم واحد . ينتظم الفعلية والاسمية ، واجهة الصغيرة والكبيرة . وهو صنيع إن ساغ في المنطق ، لأنه يبحث في المعاني والمقاييم ، ولا شأن له بالألفاظ مطلقاً . . أو قبيل في البلاغة ، لأنها تبحث عن حسن المعاني ، وتعرض للألفاظ بهذا المقدار ، فنلعل هذا تصنيع — على ما يدولى — لا يسهل في تنحور ، لأنه يتحدث عن الصحة واستقامة المعنى الأول . وفي هذا يطيل الوقوف عند الألفاظ ، ويلاحظ فيها أدق الفروق ، فيتحدث مكرهاً عن الفاعل ونائبه والمعنى فيه . والمبتدأ والأحكام اللفظية لكل منهما ، لا مفر . على حين قد ينضمها كلها البلاغي أو المنطقي تحت اعتبارات جامعة ، فيسما مستنداً ومستنداً إليه . وفي كل ، صنعت اللجنة في هذا السبيل أشياء فيها محل للنظر فهي مثلاً :

٥ — قالت إن تسمية طرفي الجملة ، المحدث عنه والحديث اصطلاح جديد ، ولكنه قديم يعرفه من اتصل بأوائل كتب النحو ، وأحياناً يجمده في أواسطها ، في مواضع من الفصل .

٦ — آثرت تسميتهما -- كالمنطقة — المحمول والموضوع ، على ما فيه من اعتبار معنوي ، بعيد عن عقل المتعلم . وعن طبيعة الدرس اللغوي التي تلتزم الألفاظ ، والظواهر الحسية لتدل بها على المعاني ، وفي كل حال ، حاولت ضبط إعراب الطرفين ، فارتكبت صعوبات لا تطرد ، وليس فيها يسر فهي مثلاً :

٧ — تقول : « إن المحمول يكون ظرفاً فيفتح ، ويكون فعلاً الخ . . . ويكتفى في إعرابه بأنه محمول — ص ٩ — » وعادت في ص ١٠ فقالت : « يحل الفعل في زيد قام من الضمير ، وأنه المحمول ، ولا تقف عند خلوه من الضمير أو تحمله إياه . . . ولكننا نسأل كيف يعرب الفعل في قام محمد ؟ . وهل سترك القول في بنائه وإعرابه ليطرد إعرابه خبراً في قام دون بيان حال آخره ؟ وهل ترك المسألة مرسله هكذا ، يكون تيسيراً للصعوبة أو هو فرار ، منها ؟ »

قالت اللجنة في المطابقة بين الموضوع والمحمول . « إذا كان الموضوع مؤثراً كان في المحمول علامة التأكيد ، وهذا يصح في الجملة الصغرى أما في الجملة الكبرى فلا — إذ تقول : اللجنة أصاب رأيها ، وحسن حظها — فيكون المحمول في أصاب وحسن ، ناقضاً

للقاعدة . وإن قلنا معهم — كما في ص ٩ س ٥ — أن الخبر الجملة يكتفى في إعرابه بأنه محمول ، فهذا خبر جملة ، وجب فيه التفصيل في الإعراب ليعرف أن المطابقة فيه بين حسن وفاقله ، لا بين حسن واللجنة التي هي مبتدأ . ثم فيه بعد ذلك الربط بين جملة الخبر ومبتدأ لها لا بد من مراعاته ؛ ففي المسألة تعقيد ونقص ، لا يسر ، إلا أن يكون التيسير بالإغفال والانتقاص ...

٩ — قالت اللجنة : « إذا كان المحمول متأخراً لحقته علامة العدد التي توافق الموضوع وإذا كان متقدماً لم تلحقه — فيقال : الرجال قاموا وقام الرجال . ونصت على أنها أخذت في ذلك برأى المازني الذي يقول : الواو للذكور والنون للإناث ، والألف للبني ، والهاء للواحدة ، علامات لاضائر — ص ٩ س ١٦ — وبذلك زادت اللجنة شيئاً جديداً على الضمير ، هو علامة العدد التي اختارتها ، ولكنها أهملت في هذه العلامة دلالتها على الجنس ذكورة وأنوثة ، وعلى الحال حضوراً وغيبة وخطاباً ، ولم تستفد شيئاً إلا ترك إعرابها . ولوا اكتفت بإعرابها فاعلًا دون تفصيل لكان أيسر ، وهو ضروري لأنها مصطرة إلى بيان الخبر الجملة في نحو المثل السابق ، هذه اللجنة أصاب رأيا ، لملم الدارس أن المطابقة في الجملة الخبرية ، بين جزأها ، لا بين جزء منها ، وبين الموضوع أو المبتدأ التي هي خبره .

« وتقول اللجنة في هذا المقام — ص ٩ س ١٨ — ، أنها بتقسيم الجملة إلى محمول وموضوع ، وجعل إشارات العدد علامات ، يسرت الإعراب ، ونائب الفاعل ، وقللت الاصطلاحات . وجمعت أبواب الفاعل والمبتدأ ، وإسم كان ، وإسم إن — في باب الموضوع — وجمعت أبواب خبر المبتدأ ، وخبر كان وخبر إن ، في باب واحد هو المحمول — وخففت برد باب ظن إلى الفعل المتعدي .. وحسن هذا لو كفي ، ولكنك تسألها : سيبق بعد ذلك أحكام لكل واحد من هذه الأشياء فأين ستدرس ؟ هناك مثلا ما ينوب عن الفاعل ، عما لا يصلح فاعلا ، وهناك مطابقة الفعل للفاعل وجوبا وجوازا وصحة تعبير وخطأ ، وهناك حذف المبتدأ وجوبا ، وتقديمه وجوبا ، واستغناؤه عن الخبر ؛ وحذف الخبر وجوبا ، وتقديمه كذلك — وهناك حذف إسم كان وخبرها وترتيبها معها — وهناك فتح أن مثلا وكسرها . وتخفيفها — فيل سبب بحث هذه الأشياء .

في باب المحمول والموضوع دون أن تسمى ؟ وكيف يكون ذلك ؟ وإذا بحث في موضوعات مستقلة . فإذا صنعنا ؟ وإذا تركت فإذا صنعنا ؟ وهلا كان الأولى أن تكون ثنواً وأحكامها ، مع المتبناً والخبر بعد استيفاء أحكامها الخ ؟ ! والحق أن الصعوبة ذاتية . ليست شكلية . يدفعا ضم باب إلى باب . وإصلاح مسألة في أخرى .

ونكتفي بهذا في التعليق على أمهات الاقتراحات التي قدمتها اللجنة ، وننظر في محاولة أخرى . حاولتها بعد الذي اعتبرته ضبطاً للجملة ، وتلك هي :

١٠ - أنها جعلت بعد الجملة وتكلفتها ما سمته الأساليب - ص ١٠ - ورأت أن توجه تنبيه في درس هذه الأساليب ، إلى طرق الاستعمال ، لا بتحليل الصيغ - ص ١١ - وقد يفهم هذا فيما مثلت به من التعجب ، والتحذير والإغراء ، ولكنها جعلت من الأساليب الاستثناء - ص ١٣ - فكيف يدرس هذا الاستثناء بطريق الاستعمال ، وأدواته : أفعال ، وأسما ، وحروف : وأحكام كل منها كما نعرف كثيرة منتشرة لا يأتى عليها عرض . بل هو - إن كان - يتسع اتساعاً . خير منه درس الأحكام . وكذلك لا تغنى هذه الشكلية في علاج صعوبة ليست في صناعة النحويين . بل في بناء اللغة نفسها . وفي سعتها . وفي أشياء أخرى من طبيعتها . هي التي نعرض لأهمها حين نتحدث عن :

« صعوباتنا اللغوية اليوم »

ونكرر الإشارة هنا . إلى أهمية العامل الاجتماعي . في تخفيف هذه الصعوبات . أو في زيادتها أحياناً . وقد تنبهت اللجنة إلى هذا العامل . وأشارت إليه . على ما مر - ونكرر هنا موعداً بأن نجعل هذا العامل الاجتماعي موضع البحث . حينما نعرض للدراسة المنهج النحوي نظرياً وتاريخياً .

أما هنا . فهدفنا - كما قلنا - على قريب . ولجنة التيسير قد قدمت بين يدي اقتراحاتها

ما رأته أساس الصعوبة في النحو . ولكنني أخرت الحديث عن رأيها في ذلك إلى ما بعد النظر في قراراتها ، ليسهل تقدير نظرها في هذه الصعوبات ، بعد فهم مدى تفسيرها وأثره . وعند اللجنة : أن أهم ما يعسر النحو على المعلمين والمتعلمين . ثلاثة أشياء :
الأول : فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا ويعملوا . ويسرفوا في الافتراض والتعليل .

والثاني : إسراف في القواعد ، نشأ عنه إسراف في الاصطلاحات .

والثالث : إمعان في التعمق العلى ، باعد بين النحو وبين الأدب ، ص ٥ - ٦ .

ونظر في هذه الأسباب فنجد أن : فلسفة القدماء في النحو لها نظائر في الدراسات اللغوية عند الأمم المختلفة ، وليس العيب في التفلسف ، وإنما العيب أن يكون التفلسف ، في الكتب المدرسية التعليمية ، على أنا مع هذا قدرأينا ، أن ما برمت به اللجنة من آثار هذه الفلسفة ، لم يكن موضع عناية ... وكانت ملاحظة حازمة من أحد المفتشين تكفي في وقاية شره ، كما أشرنا في الإعراب التقديرى والمحلى ، وألقاب الحركات ، وما فيها من مظاهر هذه الفلسفة .

وأما الإسراف في القواعد ، وما نشأ عنه من إسراف في الاصطلاحات فقد رأينا من اقتراحات اللجنة نفسها ، أن الذنب فيه ليس ذنب النحويين ، لكنه شيء اقتضته أو اقتضت أكثره طبيعة اللغة وسعتها ، وأشياء في كيانها ، نوفيها في البحث النظرى بعد .. وآية ذلك ما رأيناه من عدم استطاعة اللجنة نفسها التخلص من شيء يذكر في هذه الاصطلاحات ؛ إلا بترك الموضوع ، وإغفال واقع اللغة ، ونقص ما يعرفه منها المتعلم .

وأما المباحدة بين النحو والأدب ، فشيء يتصل بطريقة الدرس وخطته الفنية ، ويكفي فيه — كما أسلفنا — توجيه حازم من الرقابة على المدرسين ؛ ثم إن الوصل بين النحو والأدب لا يؤثر في كثرة القواعد ؛ ولا في تشعب الاصطلاحات ، وإن هون في تجميعها ، وخفف بعض وقعها على المتعلمين ؛ لكن الأزمة بعد ذلك كله باقية .

. والذي يدولى أن اللجنة . بعد ما بدأت في تقريرها بالنظر إلى الناحية الاجتماعية والاهتمام بها عادت إلى صعوبة النحو ، في القواعد ، وفي المعلمين تاركة الحياة الواقعة وأثرها في ذلك كله .. ولو ظلت تنظر إلى المشكلة من حيث صلتها بالحياة . رأيت — فيما أرجح — غير هذه الأسباب ؛ ولبدا لها أن أسباب هذه الصعوبات في الحقيقة إنما هي ثلاثة أخرى .

الأول : أننا نعيش بلغة غير معربة ولا واسعة ، حين نتعلم لغة معربة ، وافرة الحظ من الإعراب ، واسعة الآفاق مع ذلك .. فكأننا بهذا نتعلم لغة أجنبية وصعبة ، إذ أننا نعيش وتعامل ، وتفهم ، بل يفكر مثقفونا ، بهذه العامية ... ثم هاهي ذى العامية تابع زحفها الجريء ، على مجال حياة تلك الفصحى ، فقد اعترف بها رسمياً في بلاط صاحبة الجلالة الصحافة ، كما قبلت على المسرح ... وهى بهذا ومثله من الانتصار المتصل ، تخرج العربية وتنفض حولها جواً نفسياً وعملياً مسمماً .

الثانى : أن هذه الفصحى الواسعة المعربة ، مع ثقل إعرابها علينا ، لا تسهل ضبطه بقاعدة ، بل يسوده الاستثناء ، فتعدد قواعده ، وتنضارب ، فالفتحة تنصب وتجمر ، والكسرة تجمر وتنصب ، والخذف يعرب ، والاثبات يعرب ، والسكون يبنى ويعرب ، والفتح ، والحركات كلها كذلك . والياء تنصب وتجمر ، وو ... الخ ما نعرفه من هذه المتقابلات ، التى تجعل التليذ يعرف الإعراب وحركاته ، ثم إذا هو يقرأ حواراً فيه اثنان ، ومؤنثات ، ومذكرن ، فلا يجد في الحوار إلا خلاف ما عرفه من حركات الإعراب ، وهكذا يرتبك ويرى أن المدى بعيد ، والأزمة شديدة .. وهذا السبب هو ما سميناه اضطراب الإعراب .

الثالث : أن هذه الفصحى ، فيما وراء إعرابها المضطرب ، وسعتها ، وانتشار قواعدها ، باختلاف الكلمات ، تعود فلا تستقر على حكم وقاعدة في الكلمة الواحدة ، أو التعبير الواحد ، فيجوز فيه النصب والجر ، أو يجوز فيه الرفع والنصب والجر جميعاً ... وهكذا يتماهى الاضطراب ، ويزداد التزعزع في الكلمات المختلفة . ثم في الكلمة أو التعبير الواحد بنفسه ، وهذا هو اضطراب القواعد .

تلك هى الصعوبات الثلاث ، أو بالأحرى هى أظهر هذه الصعوبات .. وبالنظر في كنه هذه العقبات وحقيقتها ، يمكن البحث عن :

تدبير لحل هذه الصعوبات

ويتضح جلياً ، أنها كلها فى جسم اللغة وكيانها ، فالإعراب طابعها ، واضطراب
الاعراب صدى تشعبها .. واضطراب القواعد وتعدد الآراء فى الكلمة والتعريف الواحد ،
من سماتها وتفرقها .. وكلها عقبات فى سبيل التعلم ، تكبد الطاقة الحيوية ، للتعلم الناشئ .
بل هى تحول بينه وبين التمثل الواضح لهذه اللغة ؛ فيظل كبارنا يعانون من ذلك بلاه
مخزياً ، ويدخلون جهداً ضائعاً وما أشك فى أن الموظف الكبير الذى كان يذيع فى الراديو
فيقول : بدا لوزارة كذا بالضبط قد تعلم اللغة العربية ، بل تعلمها بضعة عشر عاماً ،
واضطرب فى ذهنه خلالها ، جر الكسرة ، وجر الفتحة .. أو اضطربت فى ذهنه أشياء
متداخلة متعارضة يلقاها بنفس منصرفة بل كارهة وحائرة ، إن لم تكن وراء ذلك محقرة
مشمئة . وثائرة متمردة .

وإذا ما قدرنا أن هذه العقدة جوهرية ذاتية ، فقد بدأ أن حلها بمس الجواهر والكيان
لا بد ، ويحتاج إلى عمل جراحى أو ما يشبهه ، وإلا فتلك الحلول السطحية ، والمسكنات
الظاهرية ، لا تحدث أراً يذكر ، ولا تسعف الفصحى فى صراعها مع العامية ، سلاح
ولا ذخيرة .. ولا يعلم إلا الله ما يكون المصير إذا جمحت جامعة اجتماعية ، تقول بالحرية
المسرفة التى سمعنا صدى صوتها فى الجيل الماضى !!!

فاذا ما كان هذا العمل الجوهري الذى نرجوه ، سيجرى بمباضع معروفة من أصول
نحاتنا ، فقد أعان الفصحى على مرضها ، وأثبتت أن لها من الحيوية ما يخلصها من هذه
الأزمة الخطرة ، وذلك — ولا مرا — خير لها وأجدى عليها ... ونحن بعون الله نحاولون
هنا أن نستعمل تلك الأسلحة نفسها ، وأن نستعين على علاج العربية بحيويتها هى ،
لا ينقل دم ، ولا إعانة بغريب عن جسمها أو عن نظامها .

وعلى هذا الأساس ، سنجد أنه لا يدلنا بعمل بمس العقدة الأولى وهى الإعراب ،
فسندعها هنا كما هى . وتبقى العقدتان الأخريان ؛ وهما ما نأمل أن نصل فيها إلى شئ تخفف
به تلك المصائب ، على مستعملي هذه اللغة فى حياتهم ، من غير المختصين بدرسها ،

والمتمعنين فيها . فإِنما نريد أن يجد الشخص العادى إذا تعلم مايزيل أميته ، ثم المتخصص فى غير اللغة والأدب ، من طبيب ، ومهندس ، وعالم طبعى ورياضى ، ومن إليهم . نريد ليجد هؤلاء جميعاً ، وتجد الصحافة والتحرير على اختلاف صورهِ ، والتعامل على تنوع طرقهِ ، لغة أقل عقداً فى اضطراب الأعراب وفى اضطراب القواعد ، قدر ما تستطيع أن تسعفنا به الأصول النحوية التى سنعتمد عليها لاعلى غيرها .
وأعرض عليكم الآن الأساس العام لهذا التدبير ، ثم أعرض تطبيقه على العقدين الباقيتين ، واحدة فواحدة . فإليكم :

- ١١ -

الأصل العام لهذا الحل

وهو أن ندع النحاة وآراءهم وقواعدهم ، ونغضى إلى ماوراء ذلك من أصولهم التى ستخرجوا منها هذه القواعد ، فنحاول بحسب استعمالهم هم لها ، وكما دلوا على هذا الاستعمال - ، وعلى رغم ما لنا من اعتراض على هذه الأصول - أن نرجع من منقول اللغويين ، ومروهم فى اللغة ، أوجها تدفع هذه الصعوبات ، وتقلل هذا التعدد ، ونغنى المتعلم عن بذل جهد عفيف . . فالذى سنختاره من الأوجه ، عربى عربى منقول ، مقرر فى أصولهم الاحتجاج به ، لكننا سنلاحظ فى اختيار واعتبارين :

١ - تقليل الاستثناء . اضطراب الإعراب ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

٢ - اختيار ما هو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا . فإن لنا فى عاميتنا إعرابات بالحروف مثلاً ، قد نطمئن إلى إن لها أصلاً عربياً . بل هذا ما قد يرجحه البحث أو يثبتهُ . . وفى كل حال فإن أنسأها وألف المتعلم لها ، فى لغة البيت والشارع سيجعل الوجه الذى تختاره من النصحى قريباً من أنفسنا سهلاً ، لاجدة فيه ولا إعانات . وسنجد التمثيل لهذا فى موضعه حين نعرض له قريباً .

وتلك هى المرحلة الأولى التى نعتد فيها على أصول النحاة بنصوصها . وبما حرموا فيها حل استعماله بلا لوم فيه علينا . ولا إنكار منهم . كما تسمعون نص عباراتهم فى هذه الإياحة : إذ يقولون :

١ — كل ما ورد أن القرآن قرئ به جازاً الاحتجاج به في العربية . سواء أكان متواتراً ، أم آحاداً ، أم شاذاً ؛ وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية . إذ لم تخالف قياساً معروفاً ، بل ولو خالفته ، يحتاج بها في مثل ذلك الحرف بعينه ، وإن لم يجر القياس عليه ، كما يحتاج بالمجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه ، ولا يقاس عليه نحو استحوذ... الخ .

ثم يقول ناقل هذا إن ما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة ، لا أعلم فيه خلافاً بين النحاة ، وإن اختلف في الاحتجاج بها في الفقه ، ومن ثم احتج على جواز إدخال لام الأمر على المضارع المبذوء بقاء الخطاب بقراءة — فذلك فلتفرضوا — كما احتج على إدخالها على المبذوء بالنون بالقراءة المتواترة — ولنحمل خطاياكم — واحتج على صحة قول من قال : إن الله أصله لاه ، بما قرئ شاذاً وهو الذي في السماء لاه وفي الأرض لاه (١) .

٢ — اللغات على اختلافها كلها حجة ؛ ألا ترى أن لغة الحجاز في أعمال ما ، ولغة تميم في تركه ، كل منهما يقبله القياس ؛ فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبها لأنها ليست أجنح بذلك من الأخرى ؛ لكن غاية مالك في ذلك أن تتخير إحداهما فتقر بها على أختها ؛ وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد أنساً بها ؛ فأمر إدخالها بالأخرى . فلا ، ألا ترى إلى قوله — ص — « نزل القرآن بسبع لغات ، كلها شاف كاف ،... هذا حكم اللغتين إن كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين أو كلمتراسلتين ؛ فأما أن تقل إحداهما جداً ، أو تكثر الأخرى جداً ، فإنك تأخذ بأوسعهما رواية وأقوامهما قياساً ؛ ألا تراك لا تقول : المال لك ، ولا مروت بك ، قياساً على قول قضاة : المال له ولا مررت به . ولا تقول : « أكرمتكش ، قياساً على قول من قال : مررت بكش ؛ فالواجب في مثل ذلك استعمال ما هو أقوى وأشيع ، ومع ذلك لو استعمله إنسان لم يكن مخطئاً لكلام العرب ، فإن الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ ، ولكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين ، فإن احتاج لذلك في شعر أو سجع ، فإنه مقبول منه غير منكر عليه . اهـ .

وفي شرح التيسيل لأبي حيان «كل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه»^(١) . وهكذا كل قرامات القرآن حجة ، وكل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه ، أى استعمل مثل استعمالها له ، والأخذ بالأقل استعمالا وشيوعا ، والأضعف قياسا ، سائغ عند الاحتياج اليه في سجع وكذلك منذ القرن الرابع الهجرى ، وقبل الجنون بالسجع ، يقول ابن جني^(٢) : «فأما إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع ، فانه مقبول منه ، غير منعى عليه وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء ، وإن كان غير ما جاء به خيرا منه ... فهل ترون يا قوم أن جدوى هذا السجع ، خير من تخفيف بلايا هذا الاضطراب عن الصغار ، وخزايا الافتضاح عن الكبار ، على ما صرخت به وزارة المعارف قائلة : إن المعلمين والمتعلمين يبذلون جهداً كبيراً ووقتا طويلا في تعليمها وتعلبها ، ولا يصلون بعد هذا كله إلى نتائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهد .. ومع ذلك إن قعد بنا انجود إلى هذا الحد ، عمدنا إلى الحل ، فوعدناكم ووعدناهم أن نسجع عندما نستعمل مذهبنا مخففا ، ولغة ميسرة : والله الأمر .

لكن اطمئنا إلى أنا لن نلم بشيء يؤثر على الفصاحة ، مما ارتفعت عنه لغة قريش ، من عنعنة وكشكشة وكسكة وتضعع وعجرفية وتثثة .. الخ . هذه أصول النحاة أنفسهم ومأخذ قواعدهم المنصوصة . ننظر بها في تدليل ما بعد صعوبة الإعراب في الفصحى ؛ بادئين بالنظر في :

— ١٣ —

اضطراب الإعراب

إذ كثرت فيما نعلم الاستثنائات في الأفعال والأسماء جميعا ، فانتسعت بذلك الهوية بين لغة الحياة ولغة التعليم ووجدت الصعوبة .

وتنظر في هذه الاضطرابات وأقوالهم فيها فنرى :

١ — الأسماء البضعة — الخمسة أو الستة — والمشهور منها يعرب بالأحرف أو

(١) الاقتراح ، ط الهند ص ٧٧ — ٧٨ ، وهو ملخص من الخصائص : ج ١ ص ٤١٠ — ٤١٢ وقد ردت البارة إلى أصلها في الخصائص قدر الامكان ، فامتزج النحان .

(٢) الخصائص ١ : ٤١٢ .

بالحركات المطولة المشبعة.. الخ.. وهو في كل حال يختلف عن معتاد الإعراب بالحركات القصيرة. والنحاة يعربونها بالحركة القصيرة المعتادة فيقولون «أَيْتَكُ»... كما أنهم قد يجعلونها من المقصور الملازم للآلف في الأحوال كلها.. ومن بنى الحارث من ينطقها بالوجه الأول وهم الذين يقصرونها كذلك^(١).

وتنظر بعد هذا في لغة الحياة اليومية. فنجد أنها في هذه الثلاثة المشهورة من تلك الأسماء — أب، أخ، حم — تنطق الأولين منهما بالواو دائماً، وتجعل الحم مقصوراً بالآلف دائماً. فلا نجد هذا الصنيع كله غريباً عن العربية؛ إذ ينقل لنا من قراءات القرآن: «تبت يدا أبا لهب»^(٢) — ويقول الزخشرى: «كما قيل على بن أبو طالب، ومعاوية ابن أبوسفيان، كلا يغير منه شيء فيشكل على السامع..» — وكل قراءة حجة كما سمعنا. وابن قتيبة كما يلخص قوله ابن مطرف في كتابه القرطين ١/ ١٨٥ — يقول في هذه القراءة: «فكانه حين كنى به. قيل أبو طالب ثم ترك كنيته وجعل الاسمان واحداً..» والكنية كما تعرف قد تصدر بأخ كما تصدر بأب^(٣). فللسألة أصل ثابت يجعلني أجرو على فرض أن ما نطقه اليوم في لغة الحياة له أصل عربي وربما يرجع هذا أن الشافعي — وقد أعاد تصنيف الرسالة بمصر وهذه النسخة هي التي بقيت بأبدي الناس^(٤) — أملاها بمصر على تليذه الربيع بن سليمان المرادي، الذي ترك نسخة بخطه كما أيقن ناشرها^(٥). — وفي هذه النسخة المصرية التأليف والاملاء يورد الشافعي «أبو» بالواو في موضع الجر فيقول: عن سالم أبو النصر، [ويشير الناشر الفاضل في الهامش إلى ما سبق من قراءة] تبت يدا أبو لهب. ومن قول ابن قتيبة — الخ]

ومن هنا نستطيع أن نرجح أن إلزام أب وأخ الواو في عاميتنا له أصل عربي وقد قرئ به في القرآن. وكتب به في مصر علم... وأما الحم فقد قصرت بالآلف دائماً وهي اللغة المعروفة في حياتنا.. فهل تتوسعون فتجيزون في تلك الأسماء ما جاز في الكنية،

(١) الفصل ج ١ ص ٥٣، التصريح ٧٢/١، الأشتوني ٧٨/١ وغيرها.

(٢) الكشف ٥٦٩/٢، الرازي ٥٢٦/٨، اليباضى ٩٩/٥، وأبو السواد وغيرهم.

(٣) الصبان ١٢٦/١.

(٤) مقدمة الناشر ص ١١ نقلاً عن الرازي في مناقب الشافعي.

(٥) مقدمة الناشر ص ١٧.

فتبقونها بالواو دائماً في أب وأخ ؟ ... أو لاترون هذا التيسير ترفضون هذا التوسع ؟ ... لكم ماتشاون حين يجد بكم الجد في هذا التيسير العمل ... وهو غير بعيد لأنه لون من القياس الذي أسس النحاة عليه نحوهم ... وهم في هذا الباب نفسه مثلاً قد جاءهم نقلاً ثنية أب على أبان فقاموا على هذا المسموع ثنية أخ على أخان ، وقالوا ينبغي أن يكون حمان كذلك (١) .

أما أنا فحسبي هنا في هذه الأسماء أن تلزم الألف كالمتنى فتنتقل الأقسام .

ب — المتنى وما على صورته . يعرب بحرفيه الألف والياء . وقد برم به حتى المحدثون الذين حاولوا أن يصلوا في هذا الأعراب إلى أصول تطرد فقالوا : « إن باب الثنية في العربية غريب » (٢) .. وما بنا أن نصصح هذا القول هنا ، أو نطلب في تصحيحه كلمة أصحاب مقارنة اللغات ؛ وإنما أشرنا إليه لفتاً للصعوبة النظرية ، مع الاستثناء العملي في الإعراب بالحروف .. ونحن نعرف — مع هذا — أنه قد قرئ في القرآن : « إنَّ هذان لساحران ، على أنه متى بصورة المقصور ذى الألف دائماً ؛ وتأويله على غير هذا ليس بقوى ، وقد ضعفوه هم أنفسهم » (٣) .

وهذا القصر للبنى في الشعر ؛ وفي عبارات الحديث أيضاً ؛ ثم هذه القراءة التي نقرأ بها ، غير ما نعلمه لأبنائنا ؛ وكلها غير ما نستعمله في الحياة من إلزامه الياء دائماً ، وأحسب أننا لو رجحنا القصر في الأسماء الخمسة ، ثم رجحناه في هذا المتنى نرجح ونستريح ؛ وأصولهم وقواعدهم تعطى هذا ؛ كما عرفنا . في سهولة وقرب .

ج — جمع المذكر السالم وما على صورته ، وهو يعرب بحرفيه ، الواو والياء لكننا مع هذا نقرأ في متون النحو المشهورة غير هذا من إعرابه ، فابن مالك يقول : « وبابه ، ومثل حين قد يرد ذا الباب ، وهو عند قوم يطرد » . فيقول الأشموني في شرحه : « إن بجي الجمع مثل حين عند قوم من النحاة ، — منهم الفراء — يطرد في جميع المذكر السالم ، فيكون معرباً بالحركات الظاهرة على التون ، مع لزوم الياء ولزوم التون فلا تسقط للإضافة » . ويبدو أن الزخشرى من قبل ذلك يقول بهذا الطرد

(١) التصريح ١ : ٧١ .

(٢) إحياء النحو ١١٣ .

(٣) الصبان ٨٣/١ .

إذ أطلق العبارة في المفصل^(١) فقال : « وقد يجعل إعراب الجمع بالواو والنون في النون ؛ وأكثر ما يحى ذلك في الشعر ، ويلزم الياء إذ ذاك » . فلعل هذه العبارة المطلقة تشير إلى ما عناه ابن مالك بقوله : « وهو عند قوم يطرد » . وإن كان ابن يعيش يقيد هذا الإطلاق ويجعله فيما يجمع بالواو والنون عوضا عن نقص لحقه ، وهو باب سنين ، في قول ابن مالك . ويقول : « والشيخ قد أطلق هنا ، والحق ما ذكرته » . ولكن عبارة ابن مالك وكثيرين من شراحه — وغير شراحه من النحويين^(٢) — واضحة في أن من العرب من يجعل الإعراب في جمع المذكر السالم ، وفي كل ما حل عليه ، على النون ، ويسوقون لذلك الشواهد ، رغم تحكم ابن يعيش في إطلاق الزمخشري ، المؤذن بهذا الاطراد الذي ذكره ابن مالك . على أن هؤلاء الشراح ينقلون في إجمال : أن الصحيح في إجراء الجمع مجرى حين ، أن يقصر ذلك على السماع ولا يطرد ... ونحن هنا ما يعنينا هذا التصحيح بعد ما اصطحبنا أصل النحويين في استعمال الأقل والأبعد عن القياس ، وتسويغهم ذلك في السجع ، ولكننا نظن أن قول الشراح في القصر على السماع ، كقول ابن يعيش ، في تقييده إطلاق الزمخشري هذا الإعراب ، كلاهما نوع من الآلف والميل إلى الشائع المستقر . لا يقوم على وجه ولا على حجة . وبعد هذا الذي قدمناه ، ننظر فإذا نحن في لغة الحياة . نلزم هذا الجمع الياء في أحواله كلها ، ونستغنى كدأب لفتنا كلها ، عن علامة الإعراب ، فهل هذه لهجة عربية أصلها إجراء جمع المذكر السالم مجرى حين ؟ . ليس هذا عندى يبعد أبدا ، وإذا ذكرنا ما ورد في التصريح عند الحديث عن إعراب جمع الذكور وما حل عليه إعراب حين ، من قوله في تعليل ذلك وتوجيهه « لأن باب الياء أوسع من باب الواو^(٣) » ، إذا ذكرنا هذا ونظرنا إليه . قدرنا أن هذه السعة في باب الياء . قد تكون العامل الذي أغرانا في مصر ، يأزأم هذا الجمع الياء دائما .

≈ ≈ ≈

وبعد فإذا ما قدرتم يا سادة ، أنهم جوزوا تركيب اللغات ، وتركيب المذاهب ،

(١) شرح المفصل لابن يعيش ١١/٥ .

(٢) التصريح ؛ والتوضيح ٨٤/١ ، الهمة ٤٧/١ .

(٣) التصريح ٨٤/١ .

كما أوضح ذلك ابن جني في الخصائص، حين عقد فصلاً في الجزء الأول لتركيب اللغات وعقد فصلاً في الجزء الثاني المخطوط لتركيب المذاهب، وذكرتم مع هذا أن الأصوليين — وهم أئمة تنحاة في أصولهم — قد جرى جمهورهم وجمهور الفقهاء على أخذ حكم المسئلة الواحدة من أكثر من مذهب. وإذا قدرتم ذلك كله، فهل تجيزون أن نجرى جمع المذكر ثنائية في تعليمتين نحو: على هذه ثيابه التي بابها أوسع من باب الواو، فنجعله بالياء في كل حين. ونزعمه مع ذلك فتح ثلثون تركيباً للغات أو المذاهب؟ إن رأيتم ذلك فيها. وإلا فيكون في أسر أن يكون بالياء دائماً كما نعرفه. وأن يعرب بأحركات على النون. و — اجمع بألف وتاء. ينصب بالكسرة. حين يجر ما لا ينصرف بالفتحة. وهي مقابلة متعبة. مهبط يجهد اللفظون في الكلام عنها. ويلتمسوا لها علة^(١) ويتعلق القدماء والمحدثون بأشياء في توجيه هذه المخالفة في الخاليتين. والقول في مثل هذه الأشياء باعتبارات نظرية عقلية يعد من الإخلال القبيح بالمنهج اللغوي. وهو مع ذلك قول متهافت تهافتاً واضحاً، ألا ترونهم في هذا الجمع بألف وتاء يحاولون حمله على جمع المذكر السالم في الجر والنصب معاً بالياء. ويكفون ليخرجوا من هذا أصلاً في العربية مقررأ؛ على حين أن جمع المذكر نفسه قد سمعنا قريباً أنه قد يطرد لإجراؤه مثل حين في الإعراب على النون مع ثيابه. كما أن من العرب من يلزمه الواو ويعربه على النون^(٢) كزيتون — فالأصل المقيس عليه نفسه. لم يسلم له في العربية أمر مقرر. حتى يجهد المخلون بالمنهج اللغوي أنفسهم في مثل هذه الأقوال. ويضيعوا فيها وقتهم.

على أن هذا الجمع بألف وتاء. لم يسلم فيه للعربية أصل مقرر في نصبه بالكسرة. فانك لتقرأ في أكثر كتب النحو تداولاً قولهم: وقد أجاز الكوفيون نصب هذا الجمع بالفتحة مطلقاً. أي سواء أكان جمعاً لما حذفت لامه أم لا^(٣).

وأصولهم التي أكثرنا من الإشارة إليها تجيز الاستعمال، وإن كان لابد من سجع لتنصب هذا الجمع بالفتحة. سجعنا، فذلك أهون من النصب بالكسرة والجر بالفتحة.

(١) الاقتراح ٤٨ « ويسمى علة معادلة ».

(٢) المسح ٤٧/١.

(٣) المسح ٢٢/١، الأشتوني مع الصبان ٩٦/١، شرح المفصل ٨/٥.

هـ - ما لا ينصرف . وهو كما نعرف بحر بالفتحة . ويجهد في تعليله على غير طائل أولئك الذين يخضعون اللغة للفروض النظرية ، على حين هي ظاهرة اجتماعية ، يشرق بها الواقع وغرب ، ويتيا من بها اللسان ويتياسر من غير ضبط ذهني ولا قواعد نظرية . وما بنا هنا أن نصصح المنهج ولكننا نقول لهم : إن هذا الباب قد اضطرب أمره في يد النحاة أنفسهم ، وقرروا وهن القاعدة فيه ، وقال قائلهم منذ بعيد : « إن حكم الإعراب لا يتخلف ... أما حكم الصرف فإنه يتخلف عن العلة . ومنع الصرف سبب ضعيف ، إذ هو مشابهة غير ظاهرة بين الاسم والفعل »^(١) ثم هم يميزون صرف المتنوع في الاختيار ، رعاية للتناسب واتساق اللفظ . وقد قرئ في القرآن الكريم « وجئتكم من سبأ نبأ يقين - إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا - ولا ندرن ودا ولا سواها . ولا يعوثاً ويعوقاً ونسرا . »

ثم ما لبثوا أن نقلوا أن العرية - في وجه - لا تعرف منأ من الصرف ، وحكى الأخفش ، لغة لبعض العرب ، تصرف ما لا ينصرف مطلقاً في الاختيار . وقال : وكأن هذه لغة الشعراء لأنهم قد اضطروا إليه في الشعر . جرت ألسنتهم على ذلك في الكلام^(٢) ، ... وأين أتم يا قوم من لغة الشعراء ، ترحمون بها صغاركم وكباركم أيضاً ؟ إن في هذا النص من تعليل الأخفش ، ما كان خليفاً بأن يهدى النحاة قديماً وحديثاً . إلى المنهج اللغوي الصحيح ، حين يقدرون تصرف الألسن في اللغات ، وجرانها بها . على نحو ما وصفوا من عمل ألسنة الشعراء . لا على نحو ما يتكلفونه من قواعد نظرية !!

و - الاسم المنقوص : كالقاضي . واختلاف إعرابه بظهور النصب على يائه . وعدم ظهوره في الجر والرفع ، فتخلف الياء في المصروف : والنحاة مع هذا يقولون : إن من العرب من يسكن ياء هذا المنقوص في النصب أيضاً . وإن الأصح جواز هذا في السعة ، بدليل قراءة جعفر الصادق « من أوسط ما تطمعون أهاليكم ، بكون^(٣) الياء . وقال السجستاني بعد ما أجازته في الاختيار : « إنه لغة فصيحة^(٤) » . وعدوه في الشعر من

(١) شرح الرضي على الكافية .

(٢) المهم ٣٧/١ والأصموني ٣ : ١٨٠ .

(٣) الأصموني والمصان ١٠٣/١ .

(٤) المهم ٣٥/١ .

أحسن الضرورات^(١) - وإذا كانت لغة فصيحة وقراءة قرآنية ، فقد صح أن نستعمل المنقوص دون « ال » بغير ياء في الأحوال كلها ، ومع « أل » لا نظهر كذلك على يائه حركة في الأحوال كلها ؛ فيكون اختزالاً مريحاً ، وإعراباً غير مضطرب ، ويستريح المتعلم من المنقوص وتحريكه ، استراحته من المقصور .

هذا بما في الأسماء من اضطراب الإعراب .

وفي الأفعال من ذلك مثلاً :

١ - الأفعال الخمسة ، أو الأمثلة الخمسة التي يحجم الصغار أمام عدها ، وثبتت فيها النون في الرفع ، حين تحذف مع النصب والجزم ، وقد ورد حذف هذه النون أيضاً ، عند الرفع في النثر ، وقرئ بها القرآن ، فقرأوا :

« قالوا ساحران يفتنّاهما ، أى يتظاهرا . بدون نون ؛ وفي الصحيح : « والذي نفس محمد بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، والأصل ، لا تدخلون ولا تؤمنون^(٢) . وقول عمر رضي الله عنه : « يا رسول الله ، كيف يسمعون ، وأنى يحببوا ، دون نون . . وإذا لم تحتجوا بالحديث مع المحتجين فبحسبكم القرآن وقراءته ؛ وقد سمعنا قاعدتهم في الاحتجاج بالقراءة ، دون خلاف بينهم في ذلك ؛ وقد ورد هذا الوجه في الشعر مثل قول القائل : « أيلت أسرى ، وتبقى تدلّكي ، بدل « تيتين وتدلّكين » .. وبهذا قد انتهت أصولهم إلى حذف هذه النون رفعاً ، كحذفها نصباً وجزماً .

واسمحوالى هنا أن أحدتكم عن شيء مما عاق ارتفاع القوم بمثل هذه الأوجه في تفسير اللغة للحياة ، ذلك أن السيوطي الذي ساق هذا في كتابه « معجم الهوامع على جمع الجوامع » يقول بعده : « ولا يقاس على شيء من ذلك في الاختيار » فيرده الصبان في حاشيته من قوله مطولة في حذف هذه النون ، من الفعل المرفوع ، ويمضي على أن هذا لا يقاس عليه في الاختيار كما قال السيوطي قبله ، مع أن الصبان نفسه ، بعد هذا بصفحتين ، عند ذكر حذف ياء المنقوص في النصب على ما ينشأه ، وإيراد الأشموني قول المبرد إن تسكين هذه الياء في النصب من أحسن ضرورات الشعر ، يعلق صاحبنا في

(١) الدرر للتنقيط ١٠٣/١ - الأشموني ٢٩/١ .

(٢) المعجم ٥١/١ ، الصبان ١٠٠/١ .

حاشيته قائلا: والأصح جوازه في السعة ندليل قراءة جعفر الصادق : من أوسط ما تطعمون أهاليكم . فلماذا كانت هذه القراءة دليل الجواز في السعة على الأصح ، ولم تكن قراءة : « ساحران يظاهرا » دليل جواز حذف التون في السعة على الأصح ١١٩ وإذا كان السيوطي قد نقل عدم القياس في الاختيار وهو يجمع ؛ لأنه لم يتكلف التحرى فلماذا غفل الصبان وهو يحشى ويعلق وينقد عما خطته يده قبل ذلك بقليل ١١٩ وإن لم يكن لواحد منهما عذر ، لأن القاعدة كما نقلها السيوطي نفسه في الاقتراح . هي الاحتجاج مطلقاً . وقد عقب عليها السيوطي بقوله عن نفسه : ، وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة ، لا أعلم فيه خلافاً بين النحاة ١١١ . . . أم هو الألف والتقليد بصرف الشخص عن تأمل ما قرره ، ويرده عن احتمال حقه العقلي ؟ هو هكذا غالباً .

وأما قواعدهم فتخرج في جلاء حذف نون الأمثلة الخمسة رفعا ونصبا وجزما . وهو تخفيف مرجح . فيه اختصار أيضا .
ب — المضارع المعتل الآخر . ويحذف آخره في الجزم . وقد قال بعضهم : إنه يجوز في سمة الكلام ، وإن لغة بعض العرب إبقاء هذه الحروف مع الجازم^(١) . وقد قرئ في القرآن : لا تخاف دركا ولا تمحشى — أنه من يتق ويصبر . وهذا القدر من القراءة القرآنية ، ومن أنه لغة كاف لإبقاء الفعل المعتل دون حذف شيء منه رفعا ونصبا وجزما ، إراحة من الإضطراب الاعرابي ؛ وتكون المعتلات الأواخر . أسماء وأفعالا . باقية بحالها ؛ لا يثبت بها متكلم ولا كاتب .

تلك نواح من علاج صعوبة اضطراب الاعراب ، أصنعها بين يدي الباحثين الصادق الرغبة في جعل اللغة مادة للتفاهم الحيوى . لا يندل في التفاهم عنه وجهنا هو أحوج إلى أن يوفرهما لما يريد أن يقوله وينقله من المعاني والأفكار . ولا تنسوا ما كررته من أني إنما أتحدث بهذا إلى الذين ليس عملهم في الحياة الاشتغال باللغة وأوجه إعرابها ، من سائر الطبقات العاملة والعاملة في الشعب .
ثم تنتقل بعد ذلك إلى النظر في الصعوبة الثالثة ؛ وهي : —

« اضطراب القواعد »

إذ أن أساس القواعد الضابطة، هو الاطراد والعموم، الذي يهون به على الذهن تمثيل الأصل الشامل، تمثلاً يرجع إليه في التطبيق والاستعمال. فإذا ما كانت القاعدة ذات شعب وصور، ثم ذات خلاف وآراء، فقد فقدت أخص صفاتها في الضبط الجامع. وانتشر الأمر... واللغات بعامه قد تكثرت قواعدها وضوابطها، لعدم سبوتة تركيزها. نظراً لما خلفته فيها المرونة، ومسايرة الحياة، ومطابقة اللسان. من تغيير. على ما يتبين من ينظر في المنهج اللغوي نظراً محققاً..

لكن لغتنا الفصحى فوق ما لها من هذه الكثرة في القواعد. تزيد على ذلك بما فيها من اضطراب القاعدة في الكلمة الواحدة أو التعبير الواحد؛ لتعدد الصور والمذاهب والخلافات. التي تصل إلى حد التباين العجيب؛ وحسبنا مثلاً لذلك أن «لم»، وهي شديدة في عمل الجزم الخاص بالأفعال، على ما نعرف لا يتسق فيها ذلك ولا يثبت، بل يتفرق فيها القول تفرقاً يتناول كل احتمال يمكن. فهي أحياناً لا تجزم، حملاً لها على ما «أولاً»؛ فيرفع الفعل بعدها؛ ثم هي حيناً تنصب في لغة، ويقرأ في القرآن: «ألم نشرح» فيما نقلوا^(١). وتخرجهم لهذا النصب قد ضعفوها هم كما في المعنى^(٢)؛ فيكون الفعل بعد لم: مجزوماً، أو مرفوعاً، أو منصوباً.. ولم يبق إلا أن يخرج الفعل عن ميزته فيجزم بعد لم !!

وهذه الأحوال كلها، تعلم في كتب النحو، التي يرى عليها معلبو لغة الأمة. فلا أقل من أن تزعزع تلك الاضطرابات صورة القاعدة وثباتها في نفوس أولئك المعلمين !! وقدروا أن الأمر لا يقف عند وجود مثل هذه الآراء في كتب النحو، فيكون نقلاً تاريخياً فقط؛ بل نحن نجد هذا في الاستعمال نفسه إذ نقرأ للشافعي — رضى الله عنه — في الرسالة نحو سبعة عشر استعمالاً لم يجزم فيها بلم، منها بضعة عشر لم يحذف في آخرها حرف العلة من المضارع المعتل.. فقال (لم يرى)، ومنها بضعة مواضع لم

(١) المسع ٥٦/٢ والأشعري ٤/٤.

(٢) مفتي الجيب ١/٢٠٠.

يحذف حرف العلة من المضارع الأجوف فقال : (لم يحيل) مثلا . [وقد تتبعه الناشر الفاضل وأوردها في فهرست الفوائد اللغوية ص ٦٥٩] . ولو قد نقلت إلينا النصوص القديمة المتحررة بكتابة عصرها ، لرأينا من أمثال هذه الظاهرة شواهد قوية . على فرق ما بين اللغة المستعملة ، وبين هذه القواعد التي اشتهر تعلمها ، ولا تضح تصورنا لواقع الحياة اللغوية ، تصوراً يحننا غير قليل من الأخطاء في منهج درسها .

ومابنا أن نعلل هذا الاضطراب في القواعد فذلك مسألة تبحث في غير هذا الموضوع وإنما نريد لهذا الاضطراب تديراً عملياً يهون المهمة التعليمية ، ويعين على استجابة اللغة لحاجات الحياة . لأننا نجد آثار هذا الاضطراب للقواعد في كتب النحو المدرسية على أبسط صورة لها ، وبعد التيسير والاحياء ، وما إلى ذلك ، وخذوا لذلك مثلاً .. باب الاستثناء الذي كان التيسير أن يعد في ؛ الصيغ ؛ ولم تعرف كيف يكون الأمر في أحواله المختلفة وأبوابه الكثيرة المتبعة ؛ فإذا كتاب النحو المدرسي ، الذي ألفه جماعة منهم صاحب الأحياء نفسه في الجزء الأول منه ، لتلامذة السنة الأولى الثانوية ، يذكر بضعة قواعد ، لبعض أحكام الاستثناء وأحواله ، يلقيها أولئك الصبية الذين تعرفون أنهم يبدون مرحلة هذا التعليم الثانوي ، في العاشرة وماحولها ، وليس الأمر واقعاً عند كثرة القواعد . بكثرة أدوات الاستثناء ؛ وأنها تكون حيناً أسماء ، وحيناً أفعالا ، وحيناً حروفا ؛ بل هو كذلك تتبع للأحوال المختلفة في الأداة الواحدة . أو الأدوات المتشابهة ^(١) .

وأرجو أن نعالج مثل هذا الاضطراب الذي امتد إلى أبسط كتب النحو بعد مازلزل كيان اللغة ، وفرق أمرها كله .. أرجو أن نعالجه كما فعلنا في الصعوبة الأولى . فنلتزم أصول النحاة التي أصلوها هم أنفسهم ونقوم بأمرين :
الأول : محاولة الاحتفاظ باطراد القواعد ما أمكن . فإذا ما أدى هذا الاطراد إلى التسوية بين وجه لغوي قوى ، ووجه لغوي أقوى ؛ أو الجرى على ما هو الأقل قوة

(١) راجع ص ٦٦ : ٦٨ من الكتاب المذكور .

تقد سمعنا ما يميزه أصولهم من عدم اللوم في ذلك ، بمحط هو السجع . وراحتنا من هذه الآلام ، أمتع نفوسنا آلاف المرات من سجع السجع .
الثاني : اختيار ماهو أيسر إعرابا ، أو أقرب فهما ، أو أكثر رواجاً في حياتنا المعقوية الحاضرة . حينما نريد طرد القاعدة ، وإقلال التفرع والأحوال والصور فيها . وأسرول هذا التدبير مثلا من علاج مسألة في الاستثناء الذي سبق ذكر صعوباته فأقول : إن في هذا الكتاب المدرسي الصغير ، أنه يستقي بخلا وعدا وحاشا : فيجوز في المستقي بها النصب . ويجوز فيه الجر . هذا إذا لم يسبق بخلا وعدا كلمة ما . فيجب نصب ما بعدها ومن ذلك نرى أن النصب مشترك في الأحوال كلها ، مع ما وبدونها . فلو قلنا : أن الاستثناء بخلا وعدا وحاشا ، له حكم واحد دائما ، هو نصب المستقي . وقد تدخل ما على خلا وعدا . . . فإننا بهذا الطرد للقاعدة ، تضبط الأمر ونيسره . ولا نرتكب أكثر من أننا جعلنا بعض الأحوال المختلف في قوتها ، أو المرجحة قوة الجر فيها ، أو النصب مثلا . جعلناها مرجوحة ، أو سويتنا فيها بين الحالتين . وقد رأينا جواز هذا . وأنه عربي صحيح لاشئ فيه .

بمثل هذه الخطة نستطيع أن نمنع الكثير من اضطراب القواعد واختلافها المتعب وبذلك نمكن للفصحى من السنة الناس وقلوبهم . وإنما أعنى من الناس ، — كما كررت — هؤلاء الذين لا يشتغلون في الحياة باللغة وأبحاثها وآدابها . بل تعينهم اللغة بقدر ما تكون أداة عملية تسعف على عملهم ، أو علمهم ، أو فنههم ، أو منافعهم . فتمكنهم من أن يترجموا عما في أنفسهم منه ، وينقلوه إلى المتعلمين عنهم ، أو إلى معاملهم أو معاشريهم . فإذا ما مكنا للفصحى في السنة هؤلاء وقلوبهم ، فقد أمددناها في صراعها العامة بقوة تهي لها شيئا من الثبات والمقاومة ؛ إن لم يكن التغلب والانتصار .
أما أولئك الذين عملهم في الحياة ، هو الاشتغال باللغة وعلومها وآدابها . فتدبيد أن تخصصهم في ذلك ، ويفصلون عن التعليم المشترك إلى أقسامهم الخاصة . لهم أن يرددوا من هذه الاستثناءات التي تربك الاعراب ، ما يشامون ؛ وأن يتبعوا من أوجه الاختلاف ما يعرفون به النصيح والأصح ؛ والأقل والأكثر ؛ مادامت الدنيا حولهم تمكنهم من ذلك وتجهيزه لهم .

هو الاعتدال الجامد

ثم أعود فأكرر هنا ما أشرت إليه من قبل ، إذ بينت أننا لم نأخذ بالخطئة الحرة للجيل قبلنا ، ولا أخذنا بالسُتور الشرعى الذى تقدم إليه الفقهاء حولنا ، بل رجعنا إلى ما وراء ذلك فلزمنا أصول النحاة ، ولم نعتد على شيء أبعد مما أباحوه فى غير نعى ولا لوم .

وكل ما عرضناه هنا ، من حل ، قد التزمنا فيه أصول النحاة التى دونوها ؛ ولو قد جاوزنا ذلك إلى ما وراءه من عمل الفقهاء ، اطمئنا إلى حمل أصول النحو على أصول الفقه منذ القدم ، وتقدير الفرق الفصح بين ما للفقه من قدسية ليس للنحو شيء منها الخ ، لو أخذنا بقواعد أصحاب الفقه فى صنيعهم ، فتوسعنا فى فهم المذاهب النحوية ، دون وقوف عند نصوصها ، وأخذنا الأحكام من التعليقات ، أو من القواعد العامة للمذهب النحوى ، أو من القواعد العامة للنحاة جميعاً ، كما فعل أصحاب الفقه ؛ أو لم نتقيد بمذهب واحد ، ولفقنا الحلول من مذاهب متعددة . كما فعلوا ؛ أو شعرنا بالحرية فى اختيار ما يساير الحياة ، ويلاتم تطور الجماعة كما فعلوا ؛ إذن لأدنى بنا ذلك كله ، على أبواب من التصرف فى هذا النحو ، لم نفتح هنا شيئاً منها يدكر . وإنكم بهذا لتقدرون ما فى الذى عرضناه آنفاً من اعتدال ، قد يرهب أن يعده الزمن منا جوداً لا يرضى عشاق التجديد .

شبه واهية

وبعد فهذه فكرة ، حدثت فيما - كما عرضتها هنا - كثيرين من أولى العناية بهذا النحو ، منذ بضع سنين ، وانتهزت لذلك الفرص ، لتكون دعوة سرية مبهمة ، ولأستنع ما عساه يكون هناك من اعتراضات عليها ، ربما أكون قد فتنت عنها أو لم أقتب إليها . وقد لقيت الدعوة - فى الجملة - غير المحاربة والمخالفة المنكرة ، إن لم أقل إن بعض أصحاب الصفة الخاصة فى الأمر ، قد اطمأنوا إلى جملتها . لكن بقى أثر الألف والتقليد

والتقليد، يدفع نقرأ الى الجمجمة بأشياء هي خواطر حائرة ، فيها كثير من اللين والوهن فلا أسبها اعتراضات ، وأكثر ما تنعت به ، أنها شبه واهية .. منها : -

١ - الفراءة وهذنا التبرير :

ولم أجد من صور هذه الشبهة في صورة تناقض ، وإنما هو شيء يسبق إلى الوم لظروف اجتماعية وعملية ، أو منفعية خاصة . . وقد سمعتم ما تلونا من قراءات القرآن في جل ما قلناه . . وسمعتم أن كل قراءة حجة ؛ فلم يبق إلا أن يكون فيها نستعمله من اللغة ما هو غير الذي نقرؤه في قطر من الأقطار . ولا بأس بهذا لأن هذا الاختلاف واقع بين ما تعلم اليوم من القواعد ، وبين قراءات القرآن ، التي تفرع أسما عنها في الإذاعة - على الأقل - كل حين ؛ فلو غيرنا ما تعلمه بما هو مخالف لقراءة وموافق لأخرى . فما حدث جديد ، ولا بدع ، ولا انتقض شيء ، ولا كانت مشكلة .

على أننا نفرض أبعد ما يتصور ؛ وهو : أننا أصلحنا لغة الحياة يوماً ما . بغير ما قرئ به القرآن . فهل نكون قد فعلنا ما لم نفعله أو يفعله أصحاب هذا القرآن من قبل ؟ لا : فقد وقع وتم ، ما هو أخطر من ذلك وأشد . إذ مضى الهجاء والإملاء العربي يوافق كتابة المصحف حيناً ؛ ثم تغيرت قواعد الكتابة العربية ، وتقرر ما يخالف رسم المصحف ، فقال الزمخشري منذ مئات السنين : وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات ، التي بنى عليها الخط والهجاء ؛ ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان ؛ لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ ؛ وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف (١) . بل لم يقف الأمر -- كما تعرفون -- عند هذا الحد ، فقد أفتوا بكتابة المصحف على قياسات الهجاء الجديد ، تيسيراً للتعليم . كل هذا ، والكتابة ، والخط والهجاء ، غير الإعراب والنصب . لأن اختلاف الكتابة يمنع قراءة القرآن والاتصال بالمصحف ، أما هذا الإعراب والنحو ، فالقرآن معرض فيه للغات المختلفة ، وعنه أخذنا . . فستان بين اختلاف الكتابة عن المصحف ، واختلاف النحو عن بعض قراءات هذا المصحف . وكل هذا ، على فرض أننا هذبنا لغتنا بغير ما في المصحف ، وهو ما لم تقترح منه شيئاً ، ولم يقع منه شيء الى الآن ؛ بل الذي عرضناه قراءات من القرآن نفسه .

ث - مال التوضيح :

حين يدرسون نصاً أدبياً قديماً . وكل الصعوبة في ذلك ، ان نقرا هم النص الادبي بتلك الأوجه المفسرة ، أو الموحدة من الإعراب ، ولا شيء مطلقاً في هذا ، فهي لن تخل بمعنى ما ، وهي - في جملتها - لا تمخل بوزن ، وإن أخلت بشيء منه ، فليبق كما هو ضرورة الشعر .. وما نسختنا هذه الضرورات ، وقراءة النص بوجه غير وجهه . هو ما نعلمه في الروايات المتعددة للنصوص فلا بدع فيه . ولا حدث . وليست فيه صعوبة تذكر حتى يوقف عندها فما طلبنا كتابته بحروف لغة أخرى

ج - المتكلمون بالعربية واغتموهم :

والمتكلمون بالعربية اليوم في الأقطار المختلفة ، قد فرقت بينهم منذ مطلع شمس الإسلام ، عاميات مختلفة ؛ استبدت كل واحدة منها . بمجاعة منهم ، ثم ها هم أولاً يسمعون الفصحى كل حين ، في الإذاعة مثلاً ملحونة لحناً رهيماً . فهل تراهم لا يفهمونها لأنها ملحونة ؟ لا شك أن لا .. فبأنهم لم يأخذوا بما أخذنا به في مصر من هذه الأوجه ؛ فيكون قولنا كقرامات القرآن المختلفة . أو هو عل أسوأ الفروض ، كالذي يسمونه كل حين من اللحن . وأما إن أخذوا بما أخذنا به من هذا التهذيب وهو ما تدعو حالتهم الى مثله ؛ بل هو ما تحتاجه أشد الاحتياج .. فيكون من هذا الاتحاد والاتفاق لا الاقتران والاختلاف ؛ ثم سيكون ومن سهولة هذه الفصحى عامل جديد ، لتوثيق الصلة بينهم ؛ إذ تضاف بسهولة الفصحى عامياتهم المفرقة لوحدتهم . وهذا وجه من النظر الاجتماعي ، يكفي وحده لأخذ أصحاب العروبة في كل إقليم بهذا التهذيب ؛ رجاء أن يجتمعوا على فصحي يسيرة ، تهاجم العاميات فتقتلها . أو تضعف شأنها . وحذا ...

تلك هي الجمعيات التي همس بها من سمعهم . وإن يكن غيرها فأحجب إلى أن أسمع وأصيح .
وختاماً :

قد عرضت بهذا أصول الحل العملي لمشكلتين معقدتين من مشكلات حياة الفصحى . هما : اضطراب الإعراب . واضطراب القواعد ؛ وبسطت من الامثلة ما يسهل الانتفاع

بهذا الأصل ... وعلى غرارہ تخرج تخفيفات كثيرة إذا ما صدقت النية في الاستجابة
لحاجة الحياة . والوفاء بمطالبها .

ولاني بعد إذ فعلت ذلك . أسأل كل من له شيء من الأمر : أنتم هذا النمو ؟
فان حالت دون الإجابة حوائل . من أوهامنا الاجتماعية التي لا تدعنا نأخذ سمئنا إلى
الإصلاح . سألت المستقبل المرجو الناهض : أنتم هذا النمو ؟ تاركا للفد بعدى
أن يسمع الإجابة من شفق الزمان .
وأتم فالسلام عليكم ؟

آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية

بقلم

على ابراهيم حسن

تستلزم دراسة تاريخ دولة المماليك من الوجهة السياسية ومن ناحية النظم الرجوع إلى المصادر التاريخية القديمة والمراجع الأوروبية الحديثة من كتب وبحوث ومقالات، كما تقتضى استيعاب طائفة من المخطوطات التى ترجع إلى عصر المماليك ومنها : كتاب « مُفسرُج الكروب فى تاريخ بنى أيوب » لابن واصل^(١) الذى توفى سنة ٦٩٧هـ. وكان معاصراً لآخر الدولة الأيوبية وأوائل دولة المماليك .

وكتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » لبيبرس البوادر^(٢) الذى توفى سنة ٧٢٥هـ وهو فى أحد عشر مجلداً فُتقد بعضها للأسف . وأهم أجزائه الجزء التاسع، وفيه تناول مؤلفه الكلام على عهد السلطان الظاهر بيبرس وينتهى بأوائل سلطنة الناصر محمد الثالثة أى من سنة ٦٥٨هـ إلى سنة ٧٠٩هـ .

وكتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للبقرى الذى توفى سنة ٨٤٥هـ^(٣) . ومن هذه المخطوطات كتاب « المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الانشاء » للخالدى^(٤) الذى توفى سنة ٩٣٧هـ ويشتمل على معلومات قيمة فى نظم الحكم فى الدول الإسلامية بوجه عام وفى مصر المملوكية بوجه خاص . وقد أورد ابن حجر العسقلانى الذى توفى سنة ٨٥٣هـ فى كتابه المخطوط « رفع

(١) جزآن . مخطوطان بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ تاريخ .

(٢) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٧٤٠٢٨ .

(٣) نصر الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزءان الأول والثانى من هذا المخطوط حتى سنة ٧٤١هـ سنة وفاة السلطان الناصر محمد .

(٤) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٧٤٠٤٥ .

الإصر (أى الذنب) عن قضاة مصر،^(١) تراجم دقيقة لبعض القضاة كشفت عن كثير من نواحي تنظيم القضاء في سلطنة الممالك.

أما عن النظم اأخرى في ذلك لعصر فإن الباحث يعتمد على مصادر خطية هامة من بينها : كتاب السؤل والأمنية في تعلم الفروسية ، لمؤلفه بكتوت الرماح^(٢) الذى توفى سنة ٧١١ هـ . وكتاب غنى طلاب في معرفة الرمي والنشاب ، تأليف طيئغا الأشرافى البقميشى اليونانى^(٣) الذى توفى سنة ٧٧٠ هـ . وكتاب الفروسية برسم الجهاد ، تأليف لاجين الحامى الطرابلسى^(٤) المتوفى سنة ٧٨٠ هـ .

وعن العلاقات اأخارجية يحدد الباحث أن يستفيد من كتاب Egypt and Aragon^(٥) الذى يشتمل على طائفة من الوثائق العربية نشرها الدكتور عزيز سوربال عطية وأمكن بها إلقاء ضوء على جانب من العلاقات بين مصر وأرغونة في عصر الناصر محمد .

على أن البحث في تاريخ ذلك العصر لا يقف عند حد الاقتصار على المصادر التاريخية التى أشرت الى بعضها بل يتعداه الى غيرها من المؤلفات التى وضعت فى الفنون والى تعد مصادر مادية للحقائق التاريخية . من ذلك جامع الكتابات التاريخية المعروف باسم Corpus Inscriptionum Arabicarum لمؤلفه فان برشم^(٦) Van Berchem . وفيه وصف المؤلف العائر الإسلامية وما عليها من الكتابات وتضافر تلاميذه

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥ .

(٢) مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٣٦٣١ .

(٣) مخطوط بكبرى دج رقم ١٧٨ — ٢٤٠ .

(٤) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٥٨٨ .

(٥) Atiya : Egypt and Aragon (Leipzig, 1938) :

Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1390 R.D.

(٦) Van Berchem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum (le

Caire, 1954) — (Mem. I. F. A. Caire.)

وأعوانه على تحقيق رغبته في جمع كل النصوص العربية المكتوبة على المعاصر والتحف في مختلف أنحاء العالم الاسلامى .

أضف الى ذلك ما كتب عن المسكوكات الإسلامية في عصر المماليك ، وما نشره أساتذة الآثار عن الفنون الإسلامية في مصر ، ومن أشهرها تلك التي وضعها الأساتذة كرزويل^(١) وزكى محمد حسن^(٢) . وكذا ما نشر عن الرنوك أى الأشعة المملوكية^(٣) . وعن طريق هذه المصادر المادية أمكن الكشف عن كثير من الحقائق التاريخية التي بينت لنا العلاقات الوثيقة بين الدراسات التاريخية والعلوم المساعدة كالكتابات والنقوش التاريخية والمسكوكات والتحف الفنية وما إلى ذلك .

وهناك مصادر أخرى مختلفة بين عربية وأفريقية تمدنا بمعلومات قيمة عن هذا العصر .

يبدأ تاريخ المماليك السياسى في مصر منذ سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) باعلاء السلطان أيلك أول سلاطين المماليك في مصر العرش . استمر أيلك في السلطة حتى سنة ٦٥٥ هـ وقضى فترة حكمه في القضاء على المناوئين لحكم المماليك في مصر . ولم يستمر ابنه على في السلطة طويلا فقد اغتصبها منه أتابكه سيف الدين قسطنز الذى امتاز حكمه بهرمته للتار

Creswell, K. R. C. :

(١) انظر :

Early Muslim Architecture, Oxford 1923.

A Brief chronology of Muhammadan Monuments of Egypt (B. I. F. R. O. T. XVI)

The Foundation of Cairo (Bulletin of The Faculty of Arts, University of Egypt, Vol. 1 part 2, Dec. 1933).

(٢) زكى محمد حسن :

الفن الاسلامى في مصر (من مطبوعات دار الآثار العربية) .

التصوير في الاسلام (من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

في مصر الاسلامية (هدية المتحف سنة ١٩٣٧) .

كنوز القاطنين (مطبوعات دار الآثار العربية سنة ١٩٣٧) .

(٣) انظر كتاب Saracenic Heraldry لمؤلفه Mayer أستاذ علم الآثار الاسلامية في الجامعة

العربية ببلطمين ، كتبه مؤلفه في علم الرنوك ومناها ورسومها . وراجع ما كتبه الدكتور زكى حسن من الرنوك في تعليقاته على كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا

في عين جالوت وبَيْبَسَان في الشام . ولكنه قتل وهو في طريقه الى مصر وتولى قاتله الامير ركن الدين بيبرس العرش سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) . وفي عهده قُتِلَت الخلافة "عباسية الى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ توطيداً لسلطان المالك في مصر ، كما تمكن بيبرس سنة ٦٦٢ هـ من استحداث نظام ولاية العهد لأول مرة في تاريخ المالك وورث العرش على هذا الاساس لابنيه السعيد بركة خان ثم العادل بدر الدين سلامش اللذين لم يستخف بهما أمراء مصر الأقوياء حتى تمكن الامير سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٩ هـ (١٢٧٩ م) من أن يقتصب العرش من سلامش بن بيبرس ويصل إلى عرش السلطنة ويؤسس بيت قلاوون الوزائي . وظلت السلطنة في بيته يتوارثها أبناؤه وأحفاده حتى نهاية دولة المالك البحرية (سنة ٧٨٤ هـ) ، وخلفه ابنه الأشرف خليل الذي لعب معه أمراء مصر الدور الذي سبق أن لعبه أبوه قلاوون مع سلامش والذي لعبه بيبرس مع قُطُظُر ، وانهى الأمر بقتله سنة ٦٩٣ هـ ، وانتقل الملك من بعده إلى أخيه الناصر محمد (٦٩٣ - ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ - ١٣٤٠ م) .

اعتلى الناصر محمد بن قلاوون عرش مصر ثلاث مرات : استمرت الاولى عاماً واحداً أى من سنة ٦٩٣ هـ إلى سنة ٦٩٤ هـ ثم اغتصب الملك منه العادل زين الدين كتبغا فالتصور حسام الدين لاجين . واستمرت فترة الاغتصاب هذه أربع سنوات أى من سنة ٦٩٤ هـ إلى سنة ٦٩٨ هـ ، ظل الناصر خلال سنتين منها أشبه بسجين في القلعة حتى أرسله لاجين في سنة ٦٩٦ هـ إلى الكرك . ولكن كل ما تخَلَّلَ عهد كل من كتبغا ولاجين من حوادث واضطرابات وقتن وما اتاب البلاد من مظاهر الضعف والانحلال في أثناء حكمهما كان من العوامل التي هيأت للناصر سبيل العودة الى العرش ، ومن ثم تبتدىء مرحلة سلطته الثانية وتمتد من سنة ٦٩٨ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ .

وأظهر ما نلاحظه عن سلطنة الناصر الثانية تضيق الخناق عليه واستخفاف الأمراء بأمره وعدم اكتراثهم لشأنه حتى اضطر الى الرحيل الى الكرك مرة ثانية وأقام في جور بعيد عن المؤامرات والسياس التي كان يحكمها حوله خصومه من أمراء مصر الطامحين إلى النفوذ والسلطان ، غير أن رحيله عن حاضرة ملكه سنة ٧٠٨ هـ مكّن بيبرس الجاشنكير من اغتصاب العرش لنفسه .

ولكن هذا لم يصرف الناس عن الناصر أو يضيف من اعتقادهم في أنه يستطيع وحده أن ينفذ مصر من القوضى التي سادها أثناء حكم بيبرس . فلابد أن تقطع المراسلات بين أمراء مصر من ناحية وبين الناصر محمد من ناحية أخرى يرجونه فيها العودة إلى بلاده ، فتيأت أسباب عودته إلى مصر وعاد إليها ليبدأ سلطته الثالثة في سنة ٧٠٩ هـ وظل فيها حتى توفي سنة ٧٤١ هـ (١) .

استمرت سلطنة الناصر محمد الثالثة اثنتين وثلاثين سنة متصلة ، انفرد فيها وحده بحكم مصر وتمكن من القضاء على الذين اغتصبوا عرشه . وعلى الذين أقاموا الفتن وأثاروا البسائر حوله . وفي سلطته الثالثة ازداد تعلق الشعب بالناصر لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال . وبذلك تعتبر هذه الفترة في الواقع عهد سلطنة الناصر الحقيقية لأنه كان قبل ذلك آلة في أيدي الأمراء الأقوياء يجلسونه على العرش أو يصرفونه كما شامت أهواؤهم .

يعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور دولة المماليك البحرية ، لأن فيه توطدت دعائم هذه الدولة ، وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار بفضل التجارب التي قامت بها حكومة الناصر ، كما ازدهرت الفنون حتى عدّ المؤرخون عصره أزهى عصور الفن في دولة المماليك خاصة وفي تاريخ مصر الإسلامية عامة . وامتد هذا العصر فترة طويلة بلغت ثمانية وأربعين عاماً ، وهذا يجعل الباحث فيه يلم بكثير من أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عصر دولة المماليك البحرية .

(١) المراجع الثانوية التي تعرضت لتاريخ المماليك السياسي أرىة وهي .

1. Weil. Geschichte der Abbasiden Chalifats in Egypt. (Stuttgart, 1860—1862) Vol. I pp 191—412
2. S. Lane — 'Poole : Egypt in the Middle Ages, pp. 242—323.
3. Ency. Isl. art. Mamluk.
4. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, T. 4 (L' Egypte Arabe) pp. 456—498.

ويعد الأول أو في هذه المراجع الأربعة بالرغم من تقدم عهده . وقد اعتمد مؤلفه على المخطوطات المحفوظة ببعض المكاتب الأوربية إذ أنه وقت تحرير الكتاب لم تكن المصادر العربية الأصلية قد نصرت بعد . على أنه يجب ألا نبالغ في الاعتماد على تلك المراجع الثانوية في بحث مثل هذا الموضوع . ولما توجهنا إلى الأصول العربية المنشورة والمخطوطة التي سبق الإشارة إلى بعضها .

وبوفاة الناصر في سنة ٧٤١ هـ انطلقت السنة الشعراء لتأنيته والاشادة بذكوره ، وتقدير شخصيته وتعداد مناقبه ، ولا غرو فقد كان الناصر العامل الأول في وضع أسس السياسة العامة للدولة المملوكية ، والمنفذ الأكبر لقواعدها ، والمثل الأعلى السياسي المحك إذ كان شديد البأس شديد الرأي يتولى أمور الدولة بنفسه ، مطلعاً على أحوال مملكته محبوباً من رعيته ، مهيباً في أمراء دولته .

أطراه أبو المحاسن بعبارات مملوءة بالإعجاب والتقدير لمواهبه وأخلاقه ووصف ما يتحلى به من حزم وشجاعة ودهاء وكياسة فقال إنه « أطول الملوك في الحكم زماناً ^(١) وأعظم مهابة وأحسنهم سياسة وأكثرهم دهاء وأجودهم تدبيراً وأقوام بطشاً وشجاعة . مرت به التجارب وقاسى الخطوب وباشر الحروب وتقلب مع الدهر ألواناً . ونشأ في الملك والرياسة ، وله في ذلك الفخر والسعادة ، خليقاً بالملك والسلطنة . فهو سلطان وابن سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه والملك في خزيته وأحفاده وعقبه وبما ليك وبما ليك وبما ليك إلى أن تقرض الدولة التركية فهو أجل ملوك الترك وأعظمهم بلا مدافع » ^(٢) .
ووصفه ابن إياس فقال :

الناصر السلطان قد خضعت له	كل الملوك مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب الحكارم راحة	ويعد راحات الفراغ متاعبا
ترجى مكارمه ويخشى بطشه	مثل الزمان مسالما ومخاربا
فإذا سطا ملا القلوب مهابة	وإذا سخا ملا العيون مواهبا ^(٣)

واستقر على عرش مصر بعد الناصر أولاده وأحفاده يتعاقبون واحد بعد الآخر مدة ثلاث وأربعين سنة (٧٤١ — ٧٨٤ هـ = ١٣٤٠ — ١٣٨٢ م) . وبلغ عدد هؤلاء السلاطين الذين حكموا مصر من بيت الناصر : ثمانية أولاد وأربعة أحفاد ، بلغ متوسط حكم السلطان الواحد منهم ثلاث سنوات ونصف سنة . ويتميز عهدهم بصغر سن السلطان ، وقصر مدة حكمه لسهولة خلعه على يد امرأة مصر ولظهور نفوذ

(١) يقصد بالطبع أن مدة حكمه هي أطول مدة جلس فيها سلطان من سلاطين دولة المماليك على عرش مصر .

(٢) النجوم الزاهرة (مخطوط) ج ٤ القسم الثاني ص ٢٧٤ .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٣ .

الأتاكية ظهورا واضحا واشتداد تنافس بين الأمراء على النفوذ وجعلهم السلطان العوبة في أيديهم يعزلونه أو يقونه حسب مشيئتهم . ولذلك ضعفت الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان الناصر واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والفتن في جميع أرجائها .

وفي الواقع لم تكن هناك غير نهاية واحدة لهذه المجموعة من الدُعي التي تبرأت عرش مصر منذ وفاة الناصر ، وقضت على السلطة بصفة إسمية . وكان من الطبيعي أن يقتصب 'العرش أمير قوى كما فعل بيبرس وقلالون من قبل . وكان هذا الأمير تلك المرة هو بقوق الذي تقلب أولاً على منافسيه من أمراء العصر واحداً بعد واحد ، ثم خلع آخر سلاطين بني قلالون سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٣ م) وأسس دولة المماليك البرجية ، وبذلك زال الملك عن بيت قلالون بعد أن حكم مصر مائة وثلاث سنين ، قبض فيها قلالون وأبناءه الأشرف خليل والناصر محمد على زمام الأمور بأنفسهم ، بينما حكم الباقون من ذرية قلالون حكماً صورياً ، ولم يكن كل منهم أكثر من العوبة في أيدي الأمراء .

والآن نذكر بعض النتائج التي أمكن الوصول إليها من دراسة عصر المماليك :

لتوضيح طرق اعتلاء السلاطين عرش السلطنة المملوكية ينبغي تحليل مبدأ الوراثة في العصر المملوكي ، وأثر الأمراء في سير الحوادث الجارية إذ ذاك ، ومركز الخليفة العباسي في سلطنة المماليك :

١ - كان مبدأ الوراثة غير معترف به طوال حكم الدولة المملوكية : لأن المماليك اعتقدوا أن السُلْك يجب أن يؤول إلى أقوى الأمراء وأكثرهم شجاعة في الحروب ، واعتبروا السلطان واحداً منهم يختارونه من بينهم لأنه لا يمتاز عنهم إلا بما وهبه الله من قوة وبسالة ودعاء وسعة حيلة . وكان استقرار السلطان على العرش يتوقف على كثرة أتباعه وضخامة ثروته ومبلغ رضاه الأمراء عنه . واتخذوا من صِخَر من بعض السلاطين فرصة سائحة لتحقيق مطامعهم في الوصول إلى العرش غير

مكثر من لمبدأ الوراثة^(١).

وهذا يعلل لنا سبب وقوع حوادث الاغتصاب في سلطنة الناصر محمد الأول والثانية. فإن حوادث عصر الناصر كانت تدور حول اغتصاب عرشه ومع ذلك يمكننا أن نطلق على ذلك العصر عصر الوراثة فقد تخلت فترات اغتصاب لا تكاد تظهر حتى تختفي ثم يعود صاحب العرش ليجلس على عرش أبيه. وليس غريباً أن يحدث ذلك الاغتصاب في بيت قلاوون. لأن قلاوون نفسه مؤسس هذا البيت اغتصب العرش من العادل بدر الدين سُلامش بن الظاهر بيبرس سنة ٦٧٨ هـ ويعتبر من المهبدن لخلع أخيه السعيد بركة خان.

٢ - أن أمراء مصر في العصر المملوكي كان لهم أكبر الأثر في توطيد عروش السلاطين أو تقويضها، بما كان لهم من شدة البأس وقوة الشكيمة والعناد والقدرة على إثارة الدسائس لمن لا يردعهم ويوقرهم ويرعى حرماتهم من سلاطين مصر. فإن مقتل قطز وعزل بركة خان وسلامش ابني الظاهر بيبرس تم على يد أمراء مصر^(٢). ولم يكن تأييد الشعب للسلطان كفيلاً بتثبيت عرشه فإن عزل الناصر كان يتم على يد أمراء المولة الأقوياء مع وضوح حقه في العرش، فدفعه ذلك في سلطته الثالثة إلى استرضائهم وأخذ من يشك في أمره منهم بالشدّة صيانة لعرشه من الزوال وحفظاً لكيان ملكه من التصدع والانحيار.

ويمكن القول بوجه عام أن الناصر كان محبوباً من الشعب وأنه كان في الوقت نفسه مؤيداً من جانب فريق من الأمراء. وهذان العاملان كانا من عوامل انتصاره على مغتصبى ملكه وتقويض عروشهم. فإن الأمراء الذين اغتصبوا عروش أسلافه من سلاطين المماليك أمثال بيبرس وقلاوون لم يملكوا السلاطين المعزولين من العودة إلى

(١) راجع في هذا الصدد: البني: عقد الجمان (مخطوط) ج ٣ القسم الأول ص ٤٩ - القرينى:

المخطوط ج ٢ ص ٧٢.

Lane—Poole: The Art of the Saracens, pp. 17—18.

(٢) يلزم هنا أن نشير إلى الوصية التي أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه بركة خان من دمشق عند ما أحس بدنو أجله ومنها نعلم أن بيبرس لم يكن يأمن على نفسه وعلى ابنه من غدري أمراء مصر وأنه كان يعلم مدى قدرتهم على الدس وإثارة الفتن: «لأنك سيء وهؤلاء الأمراء يرونك بين العبيد، فن بطنك منه ما يشوش عليك ملكك وتحقق ذلك منه، فأضرب عنقه في وقته ولا تمتعه ولا تستقر أحداً في ذلك، وأضل ما أمرتك به ولا ضاعت مصلحتك» (ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٤٠).

عروشهم . ولذلك يكون ذلك الحب المتبادل بين الناصر وبين شعبه عاملاً مهماً في استقرار سلطته الثالثة ، مع ملاحظة أنه لو لا تأييد عدد من الأمراء له إذ ذاك لما تمكن بمساعدة الشعب وحده من العودة إلى عرشه ^(١) لأنه لم يكن للرأى العام المصرى أثر كبير في سير الأحداث في ذلك العصر .

ومن الأمور التي تسترعى النظر وتثبت حب الشعب المصرى للناصر محمد بوجه خاص وأسرة قلاوون بوجه عام ، أن أمراء مصر لما عادوا الناصر — على نحو ما درجوا عليه مع من سبقه من السلاطين — وحاصروه هم وإخوانهم في القلعة بقصد التصديق عليه واضطراره إلى اعتزال العرش ، قام عامة الشعب بمظاهرة هائلة وتكاثرت عددهم واجتمعوا أمام القلعة وعلا صياحهم وأعلنوا أنهم لا يريدون أن يلى الملك أحد من غير بيت قلاوون . وكان من هتافات العامة العظيمة الدلالة ، هتافهم : « يا ناصر يا منصور » ^(٢) . فخرج الأمر واضطربت أحوال الأمراء وزاد هلعهم إذ لم يكونوا يتوقعون أن يصل حماس الشعب في تأييد الناصر إلى هذا الحد ، خصوصاً وأنهم لم يتعودوا أن يراؤا للرأى العام أثر إذا استقر رأى الشعب على أمر من الأمور . كذلك كان الأمراء كلما حاولوا التفاهم مع المتظاهرين من العامة علت هتافاتهم المدوية : « يا ناصر يا منصور الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » .

٣ — أن الخلافة العباسية التي نقلها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ (١٢٦٠ هـ) بعد أن قضى عليها التار من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ليكمل منها سنداً للسلطنة المملوكية ، جعلت مصر مقر الخلافة ، ومركز الرئاسة العامة على المسلمين ، وأظهرت سلاطين المماليك أمام العالم الاسلامى كأنهم حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وأكبت سلطنتهم شرعية ما كانت لتكسبها من أى مصدر آخر . ولكن على الرغم من ذلك فإن الخليفة العباسى في القاهرة لم يكن إلا مظهرأ خدعاً جحد المماليك لإيجاده ذراً للرماذ في العيون حتى يقضوا على شهرة الطاعين في مثلك مصر ويبدوا السحب التي كانت تحوم حول مبلغ شرعية حكمهم للبلاد .

(١) راجع البيهقي : عقد الجمان (مخطوط) ج ٢٣ الجزء الأول ص ١٥٢ ، والنجوم الزاهرة لأبى الحسن ج ٨ ص ١٦٦ — ١٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٣ .

على أن الخليفة العباسى فى القاهرة قد أصبح ألعوبة فى أيدى السلطان يحررها كيفما شاء (١). وبذا فتقَد على توالى السنين قيمته فى نظر الشعب باعتباره حامى الدين والمستول الأول عن شرعية السلطنة المملوكية. حقيقة إن إحياء الخلافة العباسية بمصر أصبح أمراً واقعاً وأنه كان يصحب اعتلاء كل خليفة منصبه عدة مظاهر غاية فى الأبهة والعظمة: من خص عن نسبه وتقليد السلطان له أمر الخلافة بالديار المصرية وتولية الخليفة للسلطان أمور البلاد فى حفل يجمع الأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة ثم حل ذلك التقليد على رأس الوزير فى موكب على يطوف أرجاء مدينة القاهرة بما يدل على تليفه وإبتاهجه بمحصله على مثل ذلك التقليد الذى يجعل سلطانه فى نظر الشعب شرعياً. ولكن كل ذلك لم يعد المظاهر التى لا تنطوى على أى نفوذ فعلى فى تصريف أمور الدولة أو التعرض لشئونها.

وكان جل عمل الخليفة العباسى فى القاهرة هو إعطاء السلطان تفويضاً بالحكم. إلا أن هبة ذلك التفويض الشرعى بدأت تزول من نفوس الممالك بعد أن رأوا إقدام كبار الأمراء على اغتصاب العرش كلها واتهم الفرصة، وذلك رغم حصول السلطان المخلوع على تفويض الخليفة. وعلى الرغم من أن الخليفة والقضاة الأربعة كانوا هم الذين يباركون السلطان عند اعتلائه العرش، فإن ذلك لم يكن يتم إلا بعد أن يعلن أمراء مصر موافقتهم على اختياره وإرتياحهم الى توليته وبعد أن يأخذ عليهم السلطان الجديد العهد والمواثيق بأن يخلصوا له ويلتفوا حول عرشه.

وعلى ذلك فإن موافقة الأمراء وتأييدهم كانت العامل الأساسى الذى يسهل للسلطان الوصول إلى العرش والاحتفاظ به مدة تطول أو تقصر تبعاً لذلك التأييد. أما مبايعة الخليفة للسلطان وحضور القضاة الأربعة عند تلاوة البيعة والشهادة على صدورهما من الخليفة، فقد كان أمراً سوريا لا يقدم ولا يؤخر فى توطيد عرش السلطان أو زعزعته. ولكنه كان تقليداً أتبع منذ عهد يبرس وعادة اصطلاح عليها فى تلك الفترة من تاريخ مصر الإسلامية.

Arnold : The Caliphate, p. 98—99.

Muir : The Caliphate, p. 593—594.

(١) راجع فى هذا الصدد أقوال :

وعلى الرغم من أن السلطان منح الخليفة العباسي في القاهرة : حق ذكر اسمه في خطبة الجمعة ، ونقشه على السكة إلى جانب اسم السلطان^(١) ، وإعطاء السلطان تفويضاً يجعل حكمه في نظر الشعب شريعياً^(٢) : فإن ذكر اسم الخليفة مع السلطان في الخطبة على المنابر كان مقيداً ، وأن ظهور اسم الخليفة على السكة بجانب اسم السلطان كان أمراً صورياً محضاً ، وأن منح الخليفة عهد التفويض للسلطان لم يمنع وقوع حوادث الاغتصاب المتكررة في عصر دولة المماليك البحرية^(٣)

أما عن أساليب عزل سلاطين المماليك فيجب أن نبين أن ذلك كان يتم إما عن طريق النفي ، أو القتل ، أو تدمير الأتابك :

٤ - كان مصير بعض سلاطين المماليك الخلع ثم النفي . وكان نفيسهم في العادة إلى قوص أعظم مدن الوجه القبلي إذ ذاك ، أو إلى الكرك بالشام ، وأحياناً يقيم بعضهم بقلعة الجبل على أن يمنع من الاتصال بالناس .

على أن نفي أولاد السلاطين إلى الكرك بالشام ، كان أهم ما يميز به عصر السلطنة المملوكية بالديار المصرية . وإليها رحل السلطان السعيد بركة خان بن بيبرس في أواخر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ ، والسلطان العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس سنة ٦٧٩ هـ ، والسلطان الناصر محمد في سنى ٦٩٤ هـ و ٧٠٨ هـ .

إلا أن السلطان كتباً بعد فراره أثناء عودته من دمشق قاصداً الديار المصرية ورجوعه إلى الشام ، بعد أن تحقق أن الأمير لاجين يريد الغد به كي يصل إلى السلطنة طلب من لاجين بعد أن وصل إلى عرش مصر مكاناً يقيم فيه بقية حياته ، فقبل السلطان الجديد أن يتوجه السلطان المختلوع إلى مدينة صرخد بالشام ، فذهب إليها معزراً

(١) لم يتخذ قط في دولة المماليك في مصر مسألة ذكر اسم الخليفة في الخطبة ونقشه على السكة إلا أنه ثبت أن اسم الخليفة المكتفى بالله نقش سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) في دهي بأمر حاكمها ابن طناق . انظر :

Nelson Wright : The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi, pp. 168-179.

(٢) نفذ ذلك الشرط ولكنه فقد قيمته . بتوالى حوادث الاغتصاب من السلاطين الموقضين من الخليفة شرعياً .

(٣) مثل اغتصاب الأمير قلاوون عرش سلامش بن بيبرس واغتصاب كل من كتبنا ولاجين عرش الناصر محمد .

مكرماً ، ومعه أولاده وبما ليك وغلبانه وأقام بها ، وظل فيها حتى توفي ١٠ ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) (١) .

وهذه ظاهرة خطيرة أن يصبح السلطان السابق واليا على بلدة من أعمال دمشق . وهو أول مثل ينزل فيه سلطان في دولة المماليك إلى أمير . وتسابعت حوادث نزول السلاطين عن عروشهم ، إلا أنهم كانوا إما يعزلون أو يقتلون أو يعتزلون في مكان أو يقبض عليهم كأولاد الناصر .

٥ - وانتهت حياة بعض السلاطين بالقتل أمثال المظفر قطز (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ) الذى قتله بيرس ، والأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) الذى قتله بدر الدين بيدرا ، وحسام الدين لاجين (٦٩٦ - ٦٩٨ هـ) الذى قتله كل من طغى وكرجى . وكان الاعتقاد السائد أن قاتل السلطان يجب أن يخلفه على العرش : فإن بيرس حين سأله الأمير فارس الدين أقطاي نائب السلطنة مع بقية الأمراء عن قتل قطز قال : « أنا قتله » ، ورد أقطاي في بساطة تستدعى الدهشة : « يا خوند ! اجلس في مرتبة السلطان مكانه » (٢) .

ولما قتل السلطان خليل في الحمامات بمدينة البحيرة اتفق الأمراء قبل أن يرحلوا مكان الجريمة على تولية قاتله بيدرا العرش ، على نحو ما فعله الأمراء حين تشاوروا في الصاحبة بعد قتل قطز . وبعد أن تم لكل من الأميرين طغى وكرجى قتل السلطان لاجين بينما كان جالسا في قصره يلعب الشطرنج ، عقدا بعد مقتله يومين اجتماعاً حضره الأمراء وقام كرجى وقال : « يا أمراء ! أنا الذى قتلت السلطان ، والمالك الناصر صغير ما يصلح ، ولا يكون السلطان إلا هذا - وأشار لطغى - وأنا نائبه » (٣) .

وهنا لا تتم المشابهة بين الظاهر بيرس وبين بيدرا وكل من طغى وكرجى . فبينما نجد أن بيرس قد قتل قطز وتمكن من الوصول إلى عرش السلطنة وتطول مدة سلطته حتى يتمكن من أن يعهد بالملك لأولاده من بعده ومن تثبيت دعائم عرشه وينسى

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩٧ .

(٣) المرزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٦٦ .

التاريخ فقلته لما كان عليه من حميد الصفات وما أتاه لخير مصر من جليل الأعمال ، نجد أن كلاماً من يبدرا وطنجى وكرجى لا يستطيعون الوصول إلى شيء من ذلك كله ، وسرعان ما انهارت آمالهم وتفرق عنهم أتباعهم وقتلوا شرقتة .

ومن ذلك نرى أن يبرس تولى العرش بموافقة تامة ولم تقم فى وجهه أى معارضة قوية من جانب الأمراء ، اللهم جانب الأمير علم الدين سنجر نائب دمشق . ونرى أيضاً أنه لم يكن من الضروري أن يصل قاتل السلطان إلى العرش ، فإن يبدرا قاتل السلطان خليل بعد أن بايعه بعض الأمراء بالسلطنة تبعه الآخرون وذبحوه وقدموا العرش للناصر محمد أخى السلطان خليل . كذلك لم يتمكن كل من الأميرين طنجى وكرجى قاتلي السلطان لاجين من الوصول إلى العرش . ولعل عدم وصول قتلة الأشرف خليل والمنصور لاجين إلى السلطنة ، ترجع إلى أن السلاطين من بيت قلاوون كانوا محبوبين من الشعب . واستقر رأى فى الحالتين على إسناد العرش إلى الناصر محمد .

٦- وقام الأتابكة بأدوار هامة فى سلطنة المماليك : فقد عُزل السلطان على بن أبىك على يد أتابكة الأمير سيف الدين قطز ، وعُزل السلطان سلامش بن يبرس على يد أتابكة الأمير سيف الدين قلاوون . وفى كلتا الحالتين اعتلى كل من قطز وقلاوون عرش مصر . كذلك اغتصب الأمير زين الدين كتبغا عرش الناصر محمد . ولم يكن هؤلاء الأتابكة أى حق شرعى فى الملك ، اللهم ما كانوا ينتحلونه من الأعذار من اضطراب أحوال البلاد الداخلية بسبب صغر سن هؤلاء السلاطين .

وبما يجب الإشارة إليه هنا أنه لا يصح أن يفهم من ذلك أن الأتابكة هو الوصى على العرش بل كان كبير القواد فى الدولة وأنه كان يوجد حتى إذا كان السلطان غير قاصر .

كذلك يجب أن يلاحظ أنه فى عهد سلطنة أولاد الناصر وأحفاده لم يفكر أحد الأتابكة فى العرش ، فقد قنعوا إذ ذاك بخلق السلطان والحجر عليه أو تدبير أمر قتله ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يرغبون فيه فى التخلص من السلطان ، ثم يعتمدون إلى تولية أحد إخوته مكانه . وكان من الغريب حقاً عدم وصول أحد الأتابكة إلى عرش السلطنة فى تلك الفترة التى اعتلى فيها العرش سلاطين لم يبلغوا سن الرشد . على أنه يظهر أن

فكرة وصول الأتابكة إلى العرش في عصر سلطنة أولاد الناصر وأحفاده قد جالت في أذهان بعضهم ولكنها لم تستمر طويلاً، وسرعان ما اختفت لخوف هؤلاء الأتابكة من عدم تأييد الأمراء لهم في تنفيذ فكرتهم، لِمَا كان بينهم من عوامل الحقد والتنافس على السلطة والتفوذ. فلم يكونوا يرضون أن يسودهم أحدهم، خوفاً من أن يستبد بهم، بل كانوا يفضلون كثيراً أن يكون سلطانهم من لاشخصية له ولا إرادة حتى يتمكنوا من أن يصلوا في عهده إلى تحقيق كل أمنهم، وهذه الصفات التي تطلبوها في السلطان قد توافرت في أولاد الناصر.

ولكن بتعيين برقوق سنة ٧٨٣ هـ أتابكا للسلطان الملك الصالح زين الدين حاجي (٧٨٣-٧٨٤ هـ = ١٣٨١-١٣٢٨ م) حفيد الناصر محمد يعود عهد طموح الأتابكة إلى عرش السلطنة. وذلك على نحو ما كان متبعاً منذ قيام دولة المماليك حتى وفاة السلطان الناصر محمد. فقد عمل برقوق منذ أن أصبح أتابكا على اعتلاء العرش ولم يمنعه من تنفيذ ذلك إلا خوفه من عدم تأييد الأمراء. ولما اطمأن إلى زوال ما كان يخشاه خلع الملك الصالح حاجي من السلطنة وجلس مكانه على العرش.

أما عن مركز سلاطين المماليك فتقول:

٧ - إن مصر وصلت في عصر المماليك عامة وعهد الناصر خاصة إلى مركز ممتاز بين دول العالم الهامة الشرقية والغربية حتى أصبح بلاطها مقصد سفراء الدول الأوروبية الذين وفدوا إلى مصر حاملين إلى سلطانها الهدايا والرسائل من ملوكهم يطلبون إليه فيها حسن معاملة المسيحيين ويعبرون عن تقديرهم لسلطان مصر واعترافهم باتساع نفوذه ويؤكدون حبيهم وإخلاصهم له.

ويتبين من دراسة سفارات الدول المختلفة إلى بلاط الناصر أنه نشأت بينه وبين مغول فارس والهند والقنجاك علاقات عداوية أو ودية (١)، وأنه أخضع أرمينية

(١) المقرئى: كتاب السوك ج ١ ص ٩٢٧-٩٤٩. أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٥-١٦٨.

Browne: Literary Hist. of Persia, Vol. 1, p. 367; Vol. 2, p. 446; Vol. 3, pp. 18-20.

وراجع في هذا الصدد الفصل الذى كتبه الدكتور عزيز سوريال عطية بعنوان Europe and the Tatars في كتابه The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 232-259 =

سلطانته^(١)، وبسط نفوذه على بلاد اليمن^(٢) والحجاز^(٣)، ووسّع ملكه في أفريقيا^(٤)، وظهرت في بلاط الناصر بعوث من القبيلة الذهبية، وإيلخانات المغول في فارس، ومن بني رسول في اليمن، ومن نجاشي الحبشة، ومن قبيل الحفصيين في تونس، وإمبراطور بينزلة، وقصر بلغاريا، ومن البابا، وملك أرغونه، وفيليب الرابع ملك فرنسا، ومحمد بن طغلق سلطان دهلي^(٥). وهذا أقصى ما يمكن أن تطمح إليه أمة من مكانة سامية بين الدول.

٨ — أن سلطان الممالك كان يتقلب بحملة القلب : فكان ييرس يتقلب بلقب « قسيم أمير المؤمنين »^(٦) و « زعيم أمراء الممالك »^(٧)، وكان الناصر يتقلب « بالسلطان الملك الناصر، السيد العالم العادل، المظفر المنصور . ناصر الدنيا والدين ، سلطان

Allan : The Cambridge Shorter History of India, pp. 726—236.

Howorth : History of the Mongols, part III, pp. 426—427.

(١) أبو القداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٥٣—٥٤ . ابن خلدون : البرج ٥ ص ٢٠ : — ٤٣٠ . المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٤٢—١٤٤ .

Camb. Med. History, Vol 4, p. 180.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢١—٤٢٦ . Enc. Isl. art. Al-Nasir.

(٣) المصري : التمرين بالمصطلح الشريف ص ١٨٤ .

Van Berchem : Corpus, Egypte, I. pp. 127, 497.

Arnold : The Caliphate, p. 100.

(٤) أبو القداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥٣ . المقرئ : كتاب السلوك ج ٢ ص ١٦١ . Enc. Isl. art. Al Nasir.

Weil : Geschichte der Abbasiden Chalifats. I. pp. 337 et Seq.

(٥) المقرئ : كتاب السلوك ج ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ . أبو الحسن : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ ص ٢٦٠—٢٥٢ .

(٦) تلقب ييرس بهذا القلق حين وفد عليه بمصر الإمام المستنصر بالله أحمد في رجب سنة ٦٠٩ هـ . فبايع السلطان ولقبه « قسيم أمير المؤمنين » . وجاء ذكر هذا القلق أيضا عندما بويع ييرس سنة ٦٦١ هـ من الخليفة الميموني الحاكم بأمر الله . راجع كتاب السلوك ج ١ ص ٤٤٧ .

(٧) وهذا الوصف « زعيم أمراء الممالك » premier des emirs يشبه ما كان حادثا في أوروبا في أوائل العصور الوسطى بعض الممالك حيث كانت الملكية انتخابية، فاعتبر الملك أول أقرانه من بين أمراء الدولة primus inter pares

الإسلام والمسلمين، يحيى العدل في العالمين، متصف المظلومين من الظالمين، وارث
انك، سلطان العرب وتلجم والترك، اسكندر الزمان، صاحب القبتين، خادم
الحرمين الشريفين. سيد الملوك والسلاطين^(١).

ولاشك أن هنا بين مدى ما بلغه السلاطين من القوة والعظمة. خصوصاً إذا
عينا أن تلك الألقاب لم تكتمل لهم عفواً، وإنما اتخذوها إثر حوادث وظروف معينة.
وقد دونت تلك الألقاب وأمثالها في ترسائل التي تبودلت بين السلاطين وبين ملوك
أوروبا^(٢). وفي الكتابات التاريخية. وعلى السكة، والعماير، والتحف الفنية، وفهارس دار
الآثار المصرية وغيرها.

أما عن الحكومة المصرية في لصفه المالك فلاحظ :

٩ — أن اختيار موظفي البلاط السلطاني الذين كان يعهد اليهم بأمر إدارة البيوت
و الإدارات السلطانية العديدة تطلب كياسة ومرونة من جانب السلطان، لأنه كان ملزماً
بأن يعمل على إرضاء أتباعه الكثيرين. لذلك اتبع سياسة الإكثار من عدد الموظفين
في القصر فأدى ذلك إلى تخفيف حدة الاحتاد في نفوس كبار المالك على السلطة
والنفوذ، وإلى إكساب بلاط السلاطين رونقاً وبهاءً وعظمة أكثر مما كانت عليه الحال
قبل وصول المالك الى عرش السلطة.

وكانت اختصاصات بعض الموظفين مشتركة: كما كان يحدث بين القاضي، ووالي.

(١) وردت هذه الألقاب كاملة في كتاب الناصر بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٣٢٧ م (٧٢٨ م)
رداً على رسالة يقوب ملك أرغونه. انظر Atiya : Egypt and Aragon, pp. 57—69.

وراجع أيضاً : القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٥٩ .
و Zettersteem تاريخ سلاطين المالك ص ٢٥ ، ٥٣ .

Van Berchem : Corpus, Egypte I, pp. 152—155, 167—160.

Mayer : Saracenic Heraldry. pp. 163—164.

ويوجد في دار الآثار المصرية كرسى من النحاس على شكل منفرود ذي ستة أضلاع، مطعم بالذهب
والفضة وعظم. وسطحه وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والحطية وفيه صور بطيخ .
وجد في مارستان السلطان الناصر محمد وعليه ألقاب هذا السلطان واسم صانعه محمد بن سنقر البغدادى
وتاريخ عمله ٧٢٨ هـ .

(٢) راجع Atiya : Egypt and Aragon

القاهرة، والمحاسب. كذلك كانت سلطة الوظائف تتوقف إلى حد كبير على شخصية شاغليها فقد كان يقوى نفوذ بعض الموظفين وتظهر مواهبهم فيطغون على اختصاص غيرهم، كما أن السلطان كان يعمل على إلغاء بعض الوظائف إذا لم يرضَ عن أصحابها ويعمد إلى إنشاء وظائف أخرى إذا أثبت أصحاب الوظائف الملغاة عجزاً عن القيام بأعبائها من جهة واستقلالاً في الرأي من جهة أخرى، كما حدث حين ألغى الناصر محمد سنة ٧٢٧ هـ مناصب الوزارة ونيابة السلطنة واستعاض عنها بوظيفة ناظر الخاص.

ومثل هذا الاضطراب في الوظائف واختصاصها أمر غير مستغرب في بيته لم تكن النظم الإدارية فيها قد وضعت على أسس وقوانين مستقرة تمام الاسقرار. وبفضل ما جاء في المصادر العربية، وما ورد في الكتابات التاريخية^(١) أمكن التعرف بالألقاب الكثيرة التي تشهد بتعدد الوظائف الإدارية في مصر في عصر المماليك وجنسية الأشخاص الذين كان يُختار منهم موظفو الدواوين كدبوان الإنشاء والخاص والأجاس والنظر، كما أمكن التعرف قواعد الترقى والتأديب بين الموظفين.

١٠ — أن سلاطين المماليك الأقوياء أمثال بيبرس وقللاون والناصر محمد لم يحدوا — على ما عرف عن بعض السلاطين الضعفاء — في الإشراف على شئون الدولة إلى كبار الأمراء بل كانوا يباشرون هذه الشئون بأنفسهم لأن كلا منهم كان يعتبر: رئيس الدولة الأعلى، والمهيمن على شئون الأمراء الخاصة والعامة، وصاحب الحق في تدرجهم في مراتب الرقي^(٢)، وتوزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود وتحديد أنصبتهم فيها^(٣)،

Van Berchem : Corpus, Egypte, I, pp. 227—228. (١)

Hauteceur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 57.

(٢) راجع: القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ١٥ . القريري : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

الخالدي : المقصد الرفيع للنشا ص ١٢٣ .

Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3.

Demombynes : la Syrie, p. XXXVII.

حيث تجد تفصيلات عن تدرج الأمراء بأمر السلطان من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين إلى أمير مئتين .

(٣) انظر موقف السلطان لاجين والسلطان الناصر من الأمراء والأجناد حين راكا البلاد في سنقي

٦٩٦ هـ ٧١٥ هـ . راجع :

القريري . الخطط ج ١ ص ٨٨ — ٩١ . وكتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٦ .

وتعين كبار موظفي الدولة وعزلهم وتأديبهم، والنظر في المظالم^(١)، وقيادة الجيوش التي ضالما غاضوا بها غلار الحروب بأنفسهم. على أنهم رغم هذا لم يكونوا مطلقي التصرف، فإنيهم كانوا إذا أرادوا ثبت في مشروع من مشروعات الدولة الحيوية أو إعلان حرب أو إبرام صلح عتقوا « مجلس السلطنة » من كبار الموظفين للاستئناس بأرائهم قبل أن يقدموا على تنفيذ مشروعاتهم وخطتهم^(٢).

١١ - أن اضطراب أحوال مصر وكثرة الفتن والثورات في عهد كثير من سلاطين المماليك، كان يرجع إلى عدم استقرار الأحوال الاقتصادية في البلاد. إلا أن السلطان الناصر قد أدرك هذا في سلطته الثالثة، فعمل على تلافى ذلك بأن نظم كل ما يتصل بالخاله المالية والاقتصادية تنظيما كفل للبلاد حياة مستقرة.

ويتضح لنا مدى هذا الاستقرار من حرصه على إرضاء الأمراء والجند بتحديد أنصبتهم في أرض مصر في الروك^(٣) الذي أمر بإجرائه سنة ٧١٥ هـ وعرف في تاريخ دولة المماليك باسم « الروك الناصري » نسبة إليه، ومن ندره المجاعات في عصر الناصر^(٤)، ومن تلك الأموال الوفيرة التي كانت تدفع منها أرزاق موظفي الدولة وتوزع منها العطايا والمنح على الأدباء وينفق منها على وجوه الإصلاح التي كانت من أهم مظاهر عصر الناصر من كرى الانهار، وشتق الترع، وبناء المساجد، والمدارس، والمنشآت الخيرية حتى تميز ذلك العصر بتلك المباني الخالدة من قصور منيعة وقلاع شائعة ومساجد ضخمة تشهد لعصره بالقوة والثروة والجاه، حتى يمكن القول إن الناصر كان أعظم سلاطين المماليك شغفاً بالبناء والتشييد. وإن تلك الثروة الطائلة التي تجمعت في خزانة المماليك ساعدتهم على توجيه عنايتهم إلى الجيش. وكان لنشأة المماليك الحرية أثر بالغ في

== ابن الجيعان : النحلة السنية بأسماء البلاد المصرية ومد أوفى مصدر في موضوع الروك الناصري .

Enc. Isl. art. Egypt.

Michel : L'organisation Financière de L'Egypte p. 142.

Poliak : Feudalism in the Near East, pp. 23—28.

(١) انظر ميثاق السلطان عند النظر في المظالم بدارالعدل في القريزي . الخطوط ج ٢ ص ٢٠٦

— ٢٠٩ .

(٢) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٣) الروك : مسح أرض الزراعة في بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال .

(٤) اقرأ كتاب « لغاية الأمة بكشف النية » للقريزي الذي نشره الدكتور زيادة .

تأسيس جيش ثابت منظم . فقد اهتم السلاطين بتدريب الجيوش المملوكية وتزويدها بالمعدات الحربية على اختلافها والعناية بصناعة السفن الحربية حتى أصبح للأسطول المصرى فى عهد بيبرس شأن عظيم .

هذه هى أهم النتائج التى يمكن الوصول إليها من دراسة عصر المماليك . التى أصبحت مصر فيه امبراطورية شاسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف . وغدت القاهرة مركز الزراعة والصناعة والتجارة . وقبة الأنظار ، وكعبة القصد .

مصادر فارسية في

التاريخ الإسلامي

بقلم

أبراهيم أمين الشوابي

امتاز القرن الثامن الهجري في إيران بمجموعة من الموسوعات التاريخية المعاصرة ميزته مع القرن الذي يليه مباشرة بأنه عصر كتابة التاريخ في إيران .

أما التأليفات التاريخية التي سبقت هذين القرنين فكانت قليلة متباعدة الأزمنة ، وكان أغلبها من نوع « التاريخ الخاص » ، أي الذي يتعلق بدولة من الدويلات ، أو ببلدة من البلدان ، كما نجد في الكتب التالية :

« تاريخ اليمن » ، في الدولة الفزنوية الذي كتبه أبو نصر العتي أصلاً باللغة العربية في القرن الخامس الهجري ، ثم نقله أبو الشرف ناصح الجربادقاني إلى اللغة الفارسية في أوائل القرن السابع الهجري .

و « راحة الصدور » للراوندي في تاريخ الدولة السلجوقية ، انتهى منه في النصف الأخير من القرن السادس .

و « تاريخ طبرستان » لمحمد بن الحسن بن اسفنديار الذي ألفه في أوائل القرن السابع

و تاريخ جهان كشا ، لحضامك الجوينى ، وقد اكمل تأليفه فى سنة ٦٥٨ هـ .

هذا بالإضافة إلى كثرة أخرى من التواريخ والخاصة ، أو المحلية ، التى نشأت فى عصور متتالية ، وتى لدينا منها عدد كبير على نمط تاريخ صبرستان ، ككتب عن اصفهان وشيراز ويزد وقره هرات وسين وشترو وأغلب المدن الإيرانية الهامة . وقد نشر دورن Dorn جملة من هذه التواريخ ولكن كثرتها لازالت خطية تحتاج إلى النشر^(١).

فإذا بدأ "قرن الثامن" بدأت معه كتابة التاريخ العام فى إيران باللغة الفارسية ، فظهرت جملة من الموسوعات "تاريخية الموثوق بها" . أصبحت العماد فى دراسة تاريخ إيران على الخصوص ، كما أصبحت مرجعاً من أهم المراجع لدراسة التاريخ الإسلامى على وجه العموم .

وقد امتد تأليف هذه الموسوعات التاريخية أكثر من قرنين من الزمان ، أى من بداية القرن الثامن إلى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر ، ولم تقف مع هذا كتابة التواريخ المحلية أو الخاصة ، بل ظلت تكثر وتنتشر لأن القرن الثامن فى إيران كان عصر دويلات صغيرة أخذت تتنافس فى تسجيل تواريخها ، فأخرجت لنا مجموعة من الرسائل التاريخية الخاصة التى استطاعت أن تحتفظ بمكانتها إلى جانب هذه الموسوعات الكبيرة .

وعلى هذين النوعين من كتب التاريخ يجب أن يعتمد الباحث فى دراسته للتاريخ الإسلامى والإيراني ، فكتب التاريخ العام تفيده من ناحية ربطها للحوادث وتسيقها للوقائع التاريخية ، كما أن كتب التاريخ الخاص تزوده بمعلومات وتفصيلات ربما لاهتم بها كتب التاريخ العام لسعة نطاقها وكثرة الموضوعات التى تناولها .

وسيشمل حديثنا فيما يلى الكلام على مجموعة من أهم الكتب التاريخية التى كتبت بالفارسية مرتبة بحسب تاريخ تأليفها كالآتى :

اسم الكتاب	اسم المؤلف	سنة التأليف
١ - تاريخ جهان كشای .	علاء الدين عطا ملك الجوينی	٦٥٨-٦٥٠
٢ - جامع التواريخ .	رشيد الدين فضل الله .	٧١٠
٣ - روضة أولى الالباب في تواريخ الاكابر والانساب	نغر الدين أبو سلمان البناكتی	٧١٧
٤ - تاريخ وصاف .	أبو عبد الله بن فضل الله الشيرازی	٧٢٨
٥ - تاريخ كرده .	حمد الله المستوفی القزوينی	٧٣٠
٦ - ظفر نامه .	د . د . د . د .	٧٣٥
٧ - مجمع الانساب .	محمد بن علی شبانكاره .	٧٣٣-٧٤٣
٨ - شهنشاه نامه .	أحمد تبریزی .	٧٣٨
٩ - غازان نامه .	نور الدين بن شمس الدين محمد	٧٦٣
١٠ - مواهب إلهی .	معین الدين اليزدی .	٧٦٧
١١ - ظفر نامه .	نظام الدين شامي .	٨٠٦
١٢ - ظفر نامه .	شرف الدين علی اليزدی .	٨٢٨
١٣ - زبدة التواريخ .	حافظ ابرو .	٨٣٠
١٤ - المجمل .	فصیحی خوافی .	٨٤٥
١٥ - مجمع السعدين ومطلع البحرين	كمال الدين عبدالرزاق السمرقندی	٨٧٥
١٦ - روضة الجنات في تاريخ هرات	معین الدين محمد الاسفراری	٨٧٥
١٧ - روضة الصفا .	محمد بن خاوندشاه - مير خواند	٩٠٣
١٨ - مآثر الملوك .	غيث الدين بن عام الدين خواندمير	
١٩ - خلاصة الأخبار في بيان أحوال الأخيار	د . د . د . د .	٩٠٥
٢٠ - حبيب السير في أخبار أفراد البصر	د . د . د . د .	٩٣٩

١ — تاريخ جهان كشای

تأليف عطا ملك الجوينی في سنة ٦٥٨ هـ

أول هذه التواريخ وأجدها بالاعتبار ، وإن كان تأليفه سابقاً على الفترة التي حددناها في بداية هذا البحث هو تاريخ جهان كشای — أو فائق العالم — لمؤلفه عطا ملك الجوينی .

وهذا الكتاب يتناول تاريخ المغول إلى سنة ٦٥٥ هـ ، ولكن بعض نسخه يشتمل على ملحق فيه وصف لغارة المغول على بغداد وتخريبها وتحطيم الخلافة ، وهي الحوادث التي وقعت في سنة ٦٥٦ هـ ، وربما كانت هذه الزيادات من وضع مؤلف آخر غير الجوينی والكتاب في ثلاثة مجلدات تشتمل على الموضوعات الآتية :

الجزء الأول : عن أصل المغول وفتح جنكيز خان .

الجزء الثاني : عن حكام خوارزم المعروفين بالـ « خوارزمشاه » ،

الجزء الثالث : عن تاريخ الاسماعيلیة إلى تحطيم حصنهم في قلعة « الموت » ، على يد هولاكو خان في سنة ٦٥٥ هـ .

وعلى هذا يمكن أن نعتبر الكتاب من باب الكتب المؤلفة عن شخص بعينه ، وأن نعدّه تاريخاً خاصاً لجنكيز خان ، أضاف إليه مؤلفه فصلين عن تاريخ الخوارزمشاه والاسماعيلیة ، لا شيء إلا ليفصل بينهما حروب جنكيز خان مع هاتين الجماعتين حتى استطاع في النهاية أن يقضى عليهما .

ويعتبر تاريخ الوصاف — الذي سيأتي الحديث عنه فيما بعد — تكملة لتاريخ جهان كشای ، ولما كنا سنؤخر الكلام عنه إلى أن نعرض له حسب ترتيبه .

ومصنف « جهان كشای » هو صاحب الديوان علاء الدين عطا ملك الجوينی ، كان من أسرة قديمة عاصرت دولة السلاجقة ودولة الخوارزمشاه ، وبلغت منزلة عالية أيام المغول فاشتغل كثير من رجالها بأعمال الديوان ، وكانوا يحملون لقب « صاحب ديوان » ، وهو لقب يحول لصاحبه إدارة الشؤون المالية في المملكة أو ما يقابل لقب « مستوفى المالک » أو وزير المالية في هذه الأيام .

وقد لقب هو وأخوه شمس الدين محمد الجويني بلقب «صاحب الديوان» لأنه مكث مدة طويلة حاكماً للعراق بينما كان أخوه شمس الدين يتولى الوزارة أيام أباقاخان ابن هولاكو، ويرجع نسب «الجويني» فيما يقولون إلى الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين العباسيين، وقد كان هذا النسب مدعاة إلى كثير من القدح الذي وجهه إلى الجوينيين خصمهم العنيد «ابن الطقطقي» صاحب كتاب الفخرى حيناً أثبت في عبارات لاذعة أن «الفضل» كان لقيطاً لا يعرف له أب وتعجب من «عطا ملك» كيف يفخر باتسابه إليه^(١)

أما والده بهاء الدين محمد بن محمد صاحب الديوان، فقد اشتغل مع كثير من حكام المغول الذين كانوا يعثون بهم من منغوليا إلى البلاد الغربية التي فتحوها في الفترة التي توسلت فتوحات جنكيزخان ودخول حفيده هولاكو إلى إيران، واستطاع في النهاية أن يصل إلى حكومة العراق من قبل أرغون ولكنه ما كاد يدخل مستقر حكومته في أصفهان حتى أدركته المنية في سنة ٦٥١ هـ... ولهاه الدين جملة من الأشعار العربية والفارسية المذكورة في كتاب جهان كشاي وكذلك في كتاب تاريخ الوصاف وفي كتاب «شرف إيوان البيان في شرف بيت صاحب الديوان» للقاضي نظام الدين الأصفهاني وقد ولد علاء الدين عطا ملك الجويني في سنة ٦٢٣ هـ وقد أخبرنا في مقدمة كتابه أنه التحق بخدمة الديوان في سن مبكرة لم يبلغ فيها العشرين من عمره، فكان من خاصة الكتاب أيام أرغون وكثيراً ما اضطر إلى مصاحبته في أسفاره الكثيرة إلى عاصمة المغول في قراقورم.

والظاهر أنه فكر في كتابة تاريخه «جهان كشاي» في إحدى الفترات التي أقامها مع سيده في قراقورم ما بين صفر سنة ٦٥٠ ورجب سنة ٦٥١ فقد ذكر صراحة أن جماعة من إخوانه أشاروا عليه في تلك المدة بكتابة تاريخ جامع لأحوال جنكيزخان يسجل فيه مآثره ومفاخره، فتردد فترة في قبول هذا الملتبس ولكنه امتثل في النهاية لأمرهم وبدأ يقيد ما سمعه أو شاهده بنفسه فاستغرق ذلك منه السنين الثماني التالية^(٢)،

(١) ابن الطقطقي في كتابه الفخرى ص ٢٣٩ - ٢٤١ طبع دربورغ.

(٢) تاريخ جهان كشاي ص ٢ - ٣ من الجزء الأول طبع ليدن سنة ١٩١١ ضمن سلسلة اوقاف

جب التذكارية.

وقد استمر «عطا ملك» في خدمة الأمير أرغون إلى سنة ٦٥٤ هـ، ثم انتظم بعد ذلك في خدمة هولاكو خان فأصبح من خواص ملازميه وصحبه في جميع حروبه مع «الإسماعيلية»، وهو الذي كتب شروط التسليم التي أملاها هولاكو خان عند غلبته عليهم في قلعة «ميمون دژ»، وقد وكله مولاه في الاطلاع على مكتبة الإسماعيلية في حصن «الموت»، فقام على مهمته خير قيام وأمر بإحراق الفاسد من كتبهم وإبقاء الصالح منها وكان من حسن الحظ أن أبقى على كتاب هام من كتبهم عن تاريخ الحسن الصباح اسمه «سرگذشت سيدنا»، اختصره في الجزء الثالث من كتابه «جهانكشای»، كما أورد عنه بعد ذلك رشيد الدين فضل الله بئدة مفصلة في كتابه جامع التواريخ.

وقد بقي «عطا ملك» حاكماً على العراق طوال حكم هولاكو خان وابنه أباقاخان إلى أن ابتلى في أواخر أيامه بوشاية مجد الملك اليزدي، الذي اتهمه هو وأخاه بالانفاق مع ملك مصر الظاهر بيبرس البندقدار (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) على تسليم العراق له. وقد غضب أباقاخان عند سماعه هذه التهم وأمر بالقبض على أتباع شمس الدين صاحب الديوان، ولكنه احتوى بزوجته «أولجای خاتون»، ورأى من الخير أن يرد كيد أعدائه بأن يتنازل للملك المغولي عن جميع ممتلكاته حتى يستطيع بذلك أن ينقذ نفسه وأهله وأتباعه... فقبل أباقاخان هذا الحل وأصدر أمره في سنة ٦٧٩ هـ بعزله وتولية مجد الملك على حكومة المغول فكان ذلك انتصاراً كبيراً له وإيداناً بتقلص أمر الجوينيين وذهاب دولتهم.

وقد شرح علاء الدين هذه المصائب التي حلت بهم في رسالتين نفيستين، إحداهما مسماة بـ «تسليّة الإخوان»، والأخرى لا يعرف اسمها على وجه التحقيق ولكنها متممة للأولى وفي معناها^(١).

وقد استمرت المنافسة بين مجد الملك والجوينيين إلى أن تولى عرش المغول «احمد تكدودار»، فأمر بقتل مجد الملك في بداية سنة ٦٨١ هـ. وبعد ذلك بقليل مات علاء الدين فلما تولى أرغون خان الملك أمر بقتل شمس الدين صاحب الديوان وقتل سائر أسرته

(١) تسليّة الإخوان موجودة في ذيل النسخة الرقيمة Suppl pers. 1556 والرسالة الثانية موجودة في ذيل النسخة الرقيمة Suppl pers. 206.

في حديث طويل ليس هنا مجاله ولا موضعه^(١)

إلى هذه الحياة التي ربطت عطا ملك الجويني بمكام المغول يرجع الفضل الأكبر في أهمية كتابه « تاريخ جهان كشاي » فهو تاريخ جامع لأحوال جنكين خان استقاه من مصادر شاهدها بنفسه ولسها بنفسه لمحات أخباره موثوقاً بها ، وأصبح كتابه من أجل ذلك المصدر الأول في موضوعه ، والمرجع الذي رجع إليه المؤرخون اللاحقون لجعلوه وردم وعماد نقلهم .

وقد طبع الكتاب بأجزائه الثلاثة ضمن سلسلة أوقاف جبه التذكارية^(٢)

٢ - جامع التواريخ

تأليف رشيد الدين فضل الله في سنة ٧١٠ هـ

كان المؤلف الطبيب الخاص لأبا قاخان واستمر مقرباً لدى ملوك المغول إلى أن تولى الوزارة في أيام « غازان خان » الذي جلس على العرش في ذى الحجة سنة أربع وتسعين وستائة . فلما أمر « غازان » بقتل وزيره « صدر الدين الزنجاني » المعروف بـ « صدر جهان » أشركه في الوزارة مع « سعد الدين الساجي » ثم استصحبه معه سنة ٦٩٩ إلى الشام حيث كان يقاتل الملك الناصر ملك مصر .

وبقي رشيد الدين وزيراً أيام « الجاجاتو محمد خدابنده » ونال حظوة كبيرة لديه ، واستطاع أن يبنى في عاصمة المغول الجديدة المعروفة بالسلطانية ، ناحية جميلة أسماها « الرشيدية » نسبة إليه ، بنى فيها مسجداً جميلاً ومدرسة وداراً للشفاء وكثيراً من المنازل والأبنية العامة ، وبعد ذلك بقليل بنى ناحية أخرى جميلة بالقرب من « الغزنية » التي نشأت حول مقبرة غازان إلى شرق تبريز .

وفي هذه الأثناء دبرت المكائد ضد شريكه في الوزارة « سعد الدين الساجي »

(١) ارجع إلى تاريخ الوصاف طبع الهند ص ١٤١-١٤٤ .

(٢) طبع الجزء الثالث منه على حدة أستاذي الجليل المرحوم السير دنيسون راس Sir Denison Ross مدير معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن في صورة بالفتوغرافيا عن أصله المخطوط .

وانتهى الأمر بقتله ، وحل محله « على شاه » الذى أصبح بعد ذلك أكبر منافس لرشيد الدين ، خلال الأيام الباقية من حكم الجلايتو وحكم خليفته السلطان أبى سعيد .

وقد اتهمه على شاه بأنه بالاشتراك مع ابنه « ابراهيم بن رشيد الدين » قد دس السم لـ « الجلايتو » فأمر السلطان أبو سعيد بإعدامها فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧١٨ وأباح القارة والنهب العام فى الحى الذى بناه رشيد الدين فى تبريز المسمى « برى رشيدى » ، كما أمر بمصادرة أمواله وأراضيه واستباح أقاربه عبيداً لأول من يلاقهم ^(١) .

هذه هى النهاية المفجعة لكاتب ومؤرخ وطبيب ووزير من الطراز الأول ، يرجع إليه الفضل فى تأليف تاريخ عام باللغة الفارسية اشتمل على الأجزاء التالية :

الجزء الأول : يشتمل على بابين : —

الباب الأول : يشتمل على مقدمة وأربعة فصول فى تاريخ القبائل التركية والمغولية وأصولها وأنسابها .

الباب الثانى : تاريخ جنكيز خان وأجداده وأحفاده إلى أيام غازان خان .

الجزء الثانى : يشتمل أيضاً على مقدمة وبابين : —

المقدمة : عن آدم والرسل والأنبياء .

الباب الأول : أربعة فصول عن تاريخ ملوك فارس قبل الإسلام .

الباب الثانى : تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين

وخلفاء بنى أمية وبنى العباس إلى تحطيم الخلافة على

يد المغول فى سنة ٦٥٦ هـ .

وكذلك يشتمل هذا الجزء على تاريخ الدويلات الفارسية اللاحقة للإسلام كدولة

« الغزنويين » ، و « السلاجقة » ، و « ملوك خوارزم » ، و « حكام فارس » ، ثم تاريخ

« الاسماعيلية » ، ثم تاريخ « الأتراك » ، و « الصين » ، و « اليهود » ، و « الفرنج » ، و « روما » ،

و « الهند » . ثم ينتهى بمقالة طويلة عن الديانة البوذية ومؤسسها « ساكيامونى » .

(١) انظر ص ٨٨٥ وما يليها من كتاب

History of the Mongols, Part III, by H. H. Howorth

وكذلك ص ١١٥ ، مجلد ٣ ، ج ١ من « حبيب السير » لخواند أمير .

وقد نشر Quatremère الجزء المتعلق بهولاكو خان مع ترجمة إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٨٣٦^(١).

وفي مقالة للاستاذ براون في مجلة^(٢) الجمعية الملكية الآسيوية بلندن لشهر يناير سنة ١٩٠٨ اقترح الأستاذ «براون» ترتيباً آخر لكتاب «جامع التواريخ» يمكن من نشره في مجموعتين من سبعة مجلدات :

١ — المجموعة الأولى تتعلق بالأتراك والمغول

المجلد الأول : أصل الأتراك إلى وفاة جنكيزخان

المجلد الثاني : من تولى أوقتاى إلى وفاة تيمور الجاتيو حفيد قبلاى خان^(٣)

المجلد الثالث : من تولية هولاكو خان إلى وفاة غازان خان . ويمكن أن يضم إلى هذا القدر التاريخ المكمل لدولة الإيلخانية إلى نهاية أيام أبى سعيد الذى أمر بجمعه فيما بعد «الشاه رخ» .

٢ — المجموعة الثانية تتعلق بالتاريخ العام

المجلد الرابع : المقدمة مع تاريخ ملوك إيران قبل الإسلام إلى نهاية دآل ساسان، ثم الكلام على النبي صلعم .

المجلد الخامس : تاريخ الخلافة من أيام أبى بكر إلى أيام المستعصم .

المجلد السادس : تاريخ الدول الفارسية بعد الإسلام ويشمل الحديث على «الغزنويين» و«السلجقة» و«ملوك خوارزم» و«أتابكة فارس» و«جماعة الاسماعيلية» .

المجلد السابع : تاريخ الصين واليهود والفرنج والهنود وبقية أجزاء الكتاب .

وقد انتهى رشيد الدين من تأليف تاريخه هذا في سنة ٧١٠ هجرية ، ولم يستطع تقديمه برمه إلى «غازان خان» الذى توفى قبل ذلك في سنة ٧٠٣ . فلما عرضه على «الجاتيو» أمره بأن يكمله ويهديه إلى «غازان خان» كما كان يزمع .

(١) جعل عنوان هذا الجزء هكذا :

Histoire des Mongols de la Perse, écrite en Persan par Rachid-eldin

(٢) ج ١٧—٣٧ ، J. R. A. S. January 1908

(٣) هذا هو الجزء الذى نشره M. Blochet في مجموعه : Gibb Nomoria Series, Vol. XVIII

وقول « دولتشاه » في « تذكرة الشعراء » (١) : أن المؤلف كن لا يجد متسعاً من الوقت لكتابة تاريخه غير الساعات المبكرة من الصباح ما بين صلاة الفجر ومطلع الشمس وذلك بسبب مشاغله الكثيرة بأمور الوزارة والدولة .
وتظاهر أيضاً أن « اجاتيو » كان قد أمر المؤلف بكتابة جزء ثالث جغرافي وإضافته إلى الجزئين السابقين من الكتاب . ولكن هذا الجزء لم يصل إلينا على الإطلاق وربما ضاع أثناء « نفاضة » التي أودت بحياة صاحبه أو ربما لم يتمكن صاحبه من إخراج فكرته إلى حيز التنفيذ .

٣ - روضة أولى الألباب في تواريخ الأكابر والأنساب

تأليف نحر الدين أبو سليمان البناكتي في سنة ٧١٧ هـ

يعرف هذا الكتاب أيضاً باسم « تاريخ بناكتي » ، ولا شك أن مؤلفه استمد فكرته في تأليف هذا الكتاب من « جامع التواريخ » لرشد الدين فضل الله ، فقد خصص جزءاً كبيراً من كتابه كما فعل « رشيد الدين » للكلام على تاريخ الشعوب غير الإسلامية مثل الصين والهند واليهود والقيصرة وغيرهم .

ويشير « دولتشاه » في « تذكرة الشعراء » (٢) إلى هذه الحقيقة فيقول : « ودر أنساب سلاطين خطا وأقصای هند وحالات یهود وقياصرة وغيرهم إطنابی می کند . واز مؤرخان هیچ کس شرح این حالات چون او نداده »

وهذا التاريخ يحتوى على تسعة أقسام :

القسم الأول : الأنبياء والرسل .

القسم الثانى : ملوك فارس الأقدمين .

(١) من ٢١٧ طبع ليدن سنة ١٩٠٠ : « ودر خطبه » تاريخ باز نغوده كه كتابت اين تاريخ از وقت صبح بد آى نريضة وبضی أورد تا طلوع آفتاب بوده ، چون در اوقات دیگر فراغت بواسطه .

أمور ملکی و اشتغال دیوانی میسر نبوده
(٢) من ٢٢٧ من طبعه ليدن سنة ١٩٠٠ .

- القسم الثالث : تاريخ النبي والخلفاء الراشدين .
 القسم الرابع : الدول الفارسية المعاصرة للخلافة العباسية .
 القسم الخامس : اليهود .
 القسم السادس : المسيحيون والفرنج .
 القسم السابع : الهنود .
 القسم الثامن : الصين .
 القسم التاسع : المغول .

والأخبار التي رواها «البناتكي» في الأجزاء الخمسة الأخيرة استمدتها في كثير من تفاصيلها من «جامع التواريخ» ولكنه أضاف عليها بعض المعلومات التي سمعها من الأجانب الذين كانوا يرتادون قصور المغول في هذه العصور . ولعل ذلك هو السبب — كما يقول الأستاذ براون^(١) — في أننا نجد بالكتاب إشارات عن حوادث تاريخية وقعت في بلاد بعيدة عن مواطن المسلمين كالبرتغال وبولندا وبوهيميا وإنجلترا واستكتلنده وإرلنده وقطالونيا .

وكان «البناتكي» مؤرخاً ممتازاً، وشاعراً مقرباً من سلاطين المغول وخاصة «غازان خان»^(٢) .

وقد أتم تأليف تاريخه في شوال سنة ٧١٧ هـ وذكر ذلك صراحة في البيت التالي :
 بسال ی ز ذ وشوال شد این دفتر تمام از قبل واز قال

٤ — تاريخ الوصاف

تأليف أبي عبد الله بن فضل الله الشيرازي في سنة ٧٢٨ هـ
 التاريخ الذي وضعه مؤلفه تحت عنوان «تجزية الأمصار وتزجية الأعصار» ،
 عُرف فيما بعد باسم «تاريخ الوصاف» كما عُرف مؤلفه باسم «الوصاف» أو «وصاف
 الحضرة» لأنه كان يلازم ملوك المغول ويقوم بحماية الضرائب لهم .

(١) ص ١٠٢ من الجزء الثالث من كتاب التاريخ الأدبي لایران .

(٢) ص ٢٢٨ من «تذكرة الشعراء» طبع سنة ١٩٠٠ م .

وكان أمير عبد الله بن فضل الله الشيرازي معاصراً لرشد الدين فضل الله الذي إليه يرجع الفضل في تقديم كتابه إلى الجايو في مدينة السلطانية، في يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر محرم سنة إثني عشر وسبعائة، كما يقرر ذلك في كتابه تحت عنوان «صفت عرض كتاب در سلطانية وسرالات سلطان» (۱).

ويقع هذا التاريخ في خمسة أجزاء تناول فيها المؤلف ذكر أحوال سلاطين المغول منذ نشأتهم إلى أيام السلطان أبي سعيد سنة ۷۲۸ هـ. ويعتبر في الحقيقة تمثلاً لكتاب تاريخ جهان كشاي الذي سبق الحديث عنه.

وذكر ريو «Rieu» (۲) في تعليقه على هذا الكتاب أنه يتضمن معلومات تاريخية صحيحة عن فترة مهمة من قرات التاريخ ولكن أهميته تنقص قليلاً لعدم ترتيبه ولأنه مكتوب بلغة تكثر فيها المحسنات اللفظية والبديعية.

والظاهر أن مؤلف الكتاب جعل موضوعاته التاريخية ميداناً يظهر فيه بلاغته وحسن عبارته وقدرته على الأساليب وبراعته بالاستشهاد بالنظم والنثر فأدخل كثيراً من المحسنات البديعية التي جعلت قراءته تمل القارئ الذي يلتبس حقائق التاريخ الخالصة وإن كانت تلذ إلى حد كبير القارئ اللغوي الذي تروقه العبارة وتعجبه الإشارة.

وقد تنبه صاحب الظنون إلى هذه الحقيقة فقال (۳)

«..... ولم يقصد فيه بيان التاريخ فقط بل أراد إظهار مهارته في الإنشاء وإيراد لطائف النظم والنثر كما أشار إليه في أوائل المجلد الثاني وهذه عبارته:

«معلوم بأشد كه غرض از تسويد اين رياض مجرد تقييد اخبار وآثار نيست والا خلاصه آنچه اين اوراق در موجز ترين عبارتي بي شواهد وأمثال محرر شدي اما نظر بر آنست كه اين كتاب مجموعه صنایع علوم وفهرست بدايع فضائل باشد، وأخبار وأحوال كه موضوع عام تاريخست در مضامين آن بالعرض معلوم گردد چنانچه فضلاء وصاحب طبع بعد از تأمل شافي انصافي دهند كه در رشاققت لفظ وسياقت معنى وحسن مواضع تضمين برين نمط در عرب وعجم مسبوق بغيري نيست».

(۱) ص ۴۴ وما يليها من «تاريخ وصال» طبع بمبای سنة ۱۲۶۹ هـ.

(۲) انظر ص ۱۶۲ Cat. of Pers. MSS. in Brit. Mus.

(۳) ج ۱، ص ۱۲۶، طبع مصر سنة ۱۲۷۴ هـ.

ولم ينس طابع الكتاب أن يشير إلى أن المصنف نفسه اعترف بأن غرضه من تأليف الكتاب كان مقصوداً على إظهار فصاحته وبلاغته ، فأورد في نهاية طبعته هذه العبارة ^(۱) :

« وچنانچه مصنف خود ایراد نموده که مقصود اصلی او نه تاریخ نویسی ووقایع نگاری بوده بلکه آنرا موضوع بدایع ترسل و علم معانی و سخن رانی نموده و حکایات را بالعرض پیرایه آن تصور ساخته و از روی انصاف در سیاق سخن طرازی و شیوه فصاحت گستر و حسن ابداع و اختراع و تضمینات نظم و اثر و غیره مستغنی از اوصاف ، وصیت شهرت و جمله قاف تا قاف است ، سخن هر فصیحی در عین فصاحت اگر باوی لاف همسری زند بلا خلاف همان حکایت زر دوز و بوریافست ، و کلام هر بلیخی با کمال بلاغت اگر با او هم چشمی نماید بدون کزاف همان حدیث های و طریق خطا فست » .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة جميلة على الحجر في مدينة بمبای في السادس عشر من شهر رجب سنة ۱۲۶۹ تسع وستين ومائتين بعد الالف من الهجرة النبوية .

۵ - تاریخ گزیده

تأليف حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر المستوفي القزويني

في سنة ۷۳۰ هـ

المعروف عن المؤلف قليل وإن كانت عبارات من كتبه تكشف لنا عن أصله بعض الشيء ، فهو ينتسب إلى أسرة قديمة في قزوین عرفت باسم « مستوفیان » ^(۲) أرجعت نسبها إلى أصل عربي أوصلته إلى « حرّ بن یزید الراحی » . وكانت هذه الأسرة ، كما يدل عليها اسمها ، تشغل بجمع الضرائب للملوك ایران و سلاطینها ، فكان جده « أمين الدين نصر » مستوفياً على العراق ، كما كان أخوه يشتغل مع « رشيد الدين فضل الله » ، الذي اليه يرجع الفضل في اختيار « حمد الله » مستوفياً على « قزوین » و « أهر » و « زنجان » ، وتقريبه إليه وتشجيعه على الدرس والتحصيل .

(۱) ص ۶۵۷ من كتاب « وصف الحضرة طبع الهند سنة ۱۲۶۹ هـ .

(۲) جمع « مستوفی » وهو جامع الضرائب .

وقد استلّاح «حمد الله» تأليف عدة من الكتب، وصلنا منها ثلاثة هي :

ا — تاريخ كزیده (التاريخ المنتخب).

ب — فخر نامه (كتاب الفخر).

ج — تزهة القلوب.

والكتاب الأخير من هذه الكتب جغرافي، وأما الكتابان الأولان فتاريخيان، ولذلك سأقتصر الحديث عليهما :

تاريخ كزیده :

أكمل «حمد الله المستوفي» تأليف هذا الكتاب في سنة ۷۳۰ هـ أي بعد سنتين

من «تاريخ الوصاف».

ويقول الأستاذ براون في مقدمته الفارسية التي ألحقها بنسخة الكتاب المطبوعة في لندن سنة ۱۹۱۰ «أن كتاب تازيخ كزیده أقل في المرتبة من الكتب الثلاثة السالفة الذكر — أي «تاريخ جهان كشاي»، و«جامع التواريخ»، و«تاريخ الوصاف»، وهو تقليد وتلخيص لكتاب جامع التواريخ «لرشيد الدين فضل الله» الذي يشير إليه دائماً «حمد الله المستوفي» بعبارة «المخدوم السعيد الشهيد»^(۱).

وقد أهدى حمد الله المستوفي كتابه هذا لابن رشيد الدين المعروف بـ «خواجه غياث الدين محمد» الذي تولى الوزارة لأبي سعيد بعد مقتل «ركن الدين صاين»، وهو الذي أهديت إليه جملة كتب لها شهرتها بين الكتب العربية والفارسية، مثل «كتاب المواقف» لعضد الدين الايجي، و«الشمسية» لقطب الدين الرازي. و«جامع جم لأوحدي المراغي» (منظومة بالفارسية) و«هما وهمايون» لخواجه كرماني محمد بن علي مرشدي (منظومة بالفارسية).

وتاريخ كزیده من نوع التاريخ العام يتناول بالبحث جميع ما عرف عن إيران منذ

(۱) الأصل الفارسي لهذه العبارة هو ما يلي :

«تاريخ كزیده اگرچه فقط دو سال بعد از تاريخ وصاف يعني در سنة ۷۳۰ تأليف شده است ، ولی از حيث رتبة و شأن از سه كتاب سابق الذكر پائين تر است . فقط تقليد وتلخيص ماتدی است لئلا كتاب جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله كه ازو غالبا در أثناء كتاب به مخدوم سعيد شهيد تصوير من نمايد .»

الأنبياء والصدّيقين إلى سنة ٧٣٠ هجرية . وقد أشار مؤلف الكتاب نفسه إلى ذلك حيث يقول (١):

« واین کتاب را گزیده نام کرده ، مبنی گردانیده بر ذکر انبیاء و اولیاء و پادشاهان و وزراء ایران و آثاری که از ایشان باز مانده از عهد آدم علیه السلام تا زمان تألیف این مختصر که در سنة ثلثین و سبعائة هجرى مصطفویست . »

محتویات الكتاب

يقع كتاب تاريخ كزیده في ٨٥٢ صحيفة من الصفحات المتوسطة الحجم وقد نشره الأستاذ براون في لندن سنة ١٩١٠ م - في طبعة بالفوتوغراف لمخطوط يرجع تاريخه إلى سنة ٨٥٧ هـ - ثم اشترك معه الأستاذ نيكلسون في سنة ١٩١٣ فأخرجوا ترجمة مختصرة إلى الانجليزية لهذا الكتاب مع الفهارس اللازمة له . ووضع هذان المجلدان ضمن المجموعة التذكارية لأوقاف (٢) جب تحت رقم ١٤

ويشتمل الكتاب على خطبة ثم فاتحة ثم ستة أبواب ، كل منها يضم بضع فصول على النحو الآتي :

الباب الأول :	في ذكر الأنبياء والحكماء الذين كانوا قبل الاسلام : في فصلين
الفصل الأول :	في ذكر الأنبياء والرسل وأولى الخزم
الفصل الثاني :	في ذكر الحكماء
الباب الثاني :	في ذكر الملوك الذين عاشوا قبل الاسلام : في أربعة فصول
الفصل الأول :	البيشناديون
الفصل الثالث :	ملوك الطوائف
الفصل الثاني :	الكيانيون
الفصل الرابع :	الساسانيون
الباب الثالث :	في ذكر محمد المصطفى صلعم وخلفائه أولاده وأصحابه وأحفاده ويشتمل على مقدمة وستة فصول .
مقدمة :	في شرح نسب النبي
الفصل الأول :	في شرح أحواله وغزواته وأزواجه وكتابه وأقربائه ومواليه ومخلفاته .
الفصل الثاني :	في الخلفاء الراشدين
الفصل الخامس :	ملوك بني أمية
الفصل الثالث :	بقية الأئمة الاثني عشر
الفصل السادس :	خلفاء بني العباس
الفصل الرابع :	بعض الصحابة والتابعين

(١) ص ٨ من النسخة التي طبعتها الأستاذ براون في لندن سنة ١٩١٠ م ،

(٢) E. J. W. Gibb Memorial Series, Vol. XLV. 1 & 2 ... (٢)

في ذكر الملوك الذين حكموا إيران بعد الاسلام : في ١٢ فصلا	عباب الرابع :
ملوك خوارزم :	تفصيل الأول :
الأتابكة (حكم الشام وحكام فارس) :	تفصيل الثاني :
الاسماعيلية :	تفصيل الثالث :
قراختاين :	تفصيل الرابع :
أتابكة لورستان :	تفصيل الخامس :
ملوك المغول الإيلخانيين :	تفصيل السادس :
من آل المظفر ألحقه أحد الناسخين بنهاية الباب الرابع من هذه النسخة ولا يوجد له في النسخ الأخرى	باب خامس :
في ذكر الأئمة والشافع وعلماء الاسلام : في ستة فصول .	تفصيل الأول :
الأئمة والمجاهدون : الفصل الرابع : الشافع :	تفصيل الثاني :
الفصل الخامس : العلماء :	تفصيل الثالث :
شعراء العرب والمسلمين :	تفصيل الرابع :
في ذكر مدينة « قزوين » مولد المؤلف ومنشأه : في سبعة فصول .	تفصيل الأول :
في نسبة قزوين .	تفصيل الثاني :
عمارات وأبنية قزوين .	تفصيل الثالث :
فتح قزوين وإسلام أهلها .	تفصيل الرابع :
نواحي قزوين وأنها وما وقنواتها ومساجدها ومقارها .	تفصيل الخامس :
الصحابية والتابعون والأئمة والخلفاء والشافع والعلماء والملوك الذين زاروا « قزوين »	تفصيل السادس :
حكم قزوين .	تفصيل السابع :
القائل والأسر القديمة في « قزوين » .	وقد نشره دول كاتن ، الباب الرابع من هذا الكتاب باستثناء الفصل الثاني عشر مع ترجمة فرنسية له في باريس سنة ١٩٠٣ .
كما نشره « بارييه دومنار » ترجمة فرنسية للباب الأخير من « تاريخ كزیده » في	المجلة الآسيوية ، Journal Asia tque ، 1857 ، Series V ، Tome 10 .
كما نشر الأستاذ براون ترجمة انجليزية لشعراء العجم الذين ذكرهم المستوفي في	الفصل السادس من الباب الخامس من كتابه (١) .

٦ - كتاب ظفر نامه

تأليف حمد الله للمستوفي في سنة ٧٢٥ هـ

الكتاب التاريخي الآخر الذي ألفه حمد الله للمستوفي هو «ظفر نامه» وهو عبارة

عن منظومة كبيرة الحجم تحتوى على ۷۵,۰۰۰ بيت. نظمها المستوفى على نمط
الشاهنامه، في البحر المتقارب وقصد بها أن تكون تكملة لمنظومة الفردوسى تشتمل
على تاريخ العرب والعجم والمنقول منذ بداية الاسلام إلى سنة ۷۳۲ هجرية.
وهذه المنظومة هي أول ما اشتغل المستوفى بتأليفه من كتبه وهو يذكر ذلك في
مقدمة تاريخ كزیده^(۱) فيقول أنه كتب من منظومته ۵۰,۰۰۰ بيت وأنه يأمل أن
يوصلها إلى ۷۵,۰۰۰ بيت ويقدمها إلى السلطان «أبي سعيد»، ولكنه رأى أن يتجمل
بكتابة التاريخ المنشور - أى تاريخ كزیده :

وچون أحيانا شعرى شكسته بسته اتفاقى افتد درين علم هوس نظمى مى شود
که از أول عهد مصطفی صلی الله عليه وسلم تا اين زمان مبارک تاريخ منظوم مرتب
کرداند. واز آن پنجاه وچند هزار بيت گفته شد. اگر توفيق رفيق گردد بهفتاد
و پنج هزار خواهد رسانيد و بالقاب همايون و غنوم و غنوم زاده جهانيان لا زال قصر
عمره عامراً و عمر خصمه قاصراً موشح گرداند. أما چون آن منظوم هنوز از صورت
سواد بکسوت بياض منقول نگشته عجالة الوقت را موجزى مشور که بالحقیقة
بجمل اين فنست ترتيب داده مطرز گردانيم .

وقد بدأ المؤلف تأليف منظومته في الأربعين من عمره واستغرق تأليفها خمسة
عشر عاماً فأتىها في سنة ۷۳۵ هجرية أى بعد «تاريخ كزیده» بخمس سنوات ثم اشتغل
بعد ذلك بتأليف كتابه الجغرافى «تذهة القلوب» فأتته في سنة ۷۴۰ هـ. وقد خصص
المؤلف في منظومته ۲۵,۰۰۰ بيت للعرب و ۲۰,۰۰۰ بيت للعجم و ۲۰,۰۰۰ بيت للمنقول.

وهناك نسخة وحيدة لهذا المؤلف القيم موجودة في المتحف البريطانى تحت رقم
Or 825 وهي منسوخة في شیراز سنة ۸۰۷ هجرية وتحتوى على ۷۷۹ ورقة .

ويقرر «ريو Rieu» في تعليقه على هذه النسخة «أن أهمية «ظفر نامه» كبيرة
ولا يجب أن تنافى عنها فؤلها دقيق فيما أورد من حوادث وتواريخ وخاصة فيما
يتعلق بالجزء الثالث المخصص لتاريخ المنقول . فبالنظر مثلاً إلى الورقة ۵۱۲ حيث يصف -

المذبحة التي قام بها المغول في بلدته قزوین ، يمكننا أن نعلم أنه استقى معلوماته الصحيحة من جده « أمين نصر المستوفي » الذي بلغ من العمر الثالثة والتسعين ،

٧ - مجمع الانساب

تأليف محمد بن علي شيانكاره سنة ٧٣٣ هـ أو ٧٤٣ هـ .

كان المؤلف شاعراً ومؤرخاً مثل « فخر الدين البناكتي » والظاهر أنه كتب « مجمع الانساب » مرتين ، كانت الأولى منهما في سنة ٧٣٣ هـ .

وكتابه عبارة عن مجمل لتاريخ عام للخليفة منذ بداية الزمن إلى موت أبي سعيد في سنة ٧٣٦ هـ .

ويقول Ethé^(١) أن النسخة الأصلية من هذا الكتاب قد ضاعت أثناء النهب العام الذي أصاب منزل غياث الدين محمد بن رشيد الدين ، وأن المؤلف اضطر عقب ذلك لكتابة نسخة أخرى من تاريخه اعتمد فيها على الذاكرة فأتمها في سنة ٧٤٣ هـ .

والكتاب مقسم إلى أقسام وطبقات وكرره وطوائف ومحتوياته كما يلي :

المقدمة : العناصر الأربعة وخلق الإنسان والحديث عن العالم وطبقاته السبع وأقسام البشر .

القسم الأول : آدم .

القسم الثاني : الطبقة الأولى ، أولاد شيث .

الطبقة الثانية : في أربعة كروهات .

١ - أعقاب الاسكندر . البطالسة . القياصرة . ملوك العرب والعراق واليمن .

٢ - الساسانيون .

٣ - الديلمة . السلاجقة والملاحد . وملوك خوارزم والغوريون .

٤ - حكام شيانكاره . حكام فارس . ملوك كرمان . ملوك شيراز . ملوك هرمز

والمغول في طائفتين .

(١) انظر : Rieu : Pers. Cat. pp. 83-4

وكذلك Ethé : India Office Pers. Cat. Cois. 10-11, No 21 & 22

الطائفة الأولى : جنكيز خان وأحفاده في الصين .
الطائفة الثانية : هولاكو خان وأحفاده في إيران إلى موت أبي سعيد .
ويسمى هذا الكتاب في بعض النسخ بجامع الأنساب أو بحر الأنساب .

٩ - شهنشاہ نامہ

تأليف أحمد تبریزی في سنة ٧٣٨ هـ

عبارة عن منظومة في البحر المتقارب تحتوي على ١٨,٠٠٠ بيت تتعلق بتاريخ المغول من جنكيز خان إلى سنة ٧٣٧ هـ ، وقد أهداها مؤلفها إلى السلطان أبي سعيد . وتعرف أحياناً باسم جنكيز نامه .
ويمكن معرفة عنوان المنظومة ولن أهديت ، من هذه الآيات التالية التي توجد في مقدمتها^(١)

شهنشاه نامہ ہم نام این
بنام شهنشاه روی زمین
خداوند گیتی و دیہم و گاہ
جهان جهان آفرین را پناه
جوانبخت و فرمان روا بو سعید
جهان آفرینش ز جان آفرید

ويظهر أن المؤلف قام بتأليف شهنشاه نامہ ، بأمر أبي سعيد فأنمها في ثمانية سنوات .
سنة ٧٣٨ هـ أي بعد موت أبي سعيد بستين فهو يقول في النهاية هذين البيتين :

درین گفت و گو شد مرا ہشت سال
گر احمد بنالد کی گوید منال
چو از سال شد ہفصد و سی و ہشت
ستم دیدہ این نامہ را در نوشت

(١) انظر تعليقات Rieu عن هذا الكتاب في P. 135، Pera. Suppl. Cat. No 201.

٩ — غازان نامه

تأليف نور الدين بن شمس الدين محمد في سنة ٧٦٣ هـ^(١)

هذا الكتاب أيضاً عبارة عن منظومة في البحر المتقارب على نمط الشاهنامه
لأبي نغمس "نردوسي" وتحتوي على ما يقرب من عشرة آلاف بيت . ولكنها
وسبها . كما يقرر براون في كتابه عن "تاريخ الأدب ليران" ، لا يمتازان بشيء من الناحية
التاريخية أو الشعرية ولو أن بعض المعلومات الهامة يمكن استخراجها منها بشيء من
العناية والمثابة على الدرس .

وقد أورد صاحب كشف "ظنون العبارة التالية عن هذا الكتاب :
« تاريخ غازان خان : نظم فارسي لشمس الدين محمد الكاشي المتوفى في زمن
السلطان أبو سعيد الجغتاي في حدود سنة ٧٣٠ ثلاثين وسبعمائة تقريباً »^(٢) .

١٠ — مواهب إلهي أو تاريخ آل المظفر

تأليف معين الدين اليزدي في سنة ٧٦٧ هـ

كل ما يعرف عن المؤلف هو ما ذكره Rieu في تعليقه على إحدى النسخ الخطية
المحفوظة بالمتحف البريطاني تحت رقم ADD 7632 .

وكتابه المعروف باسم « مواهب إلهي » عبارة عن رسالة تاريخية عن آل المظفر
منذ بداية أمرهم سنة ٧١٨ هـ إلى موقعة « شيراز » التي وقعت بين الشاه شجاع وأخيه
الشاه محمود في سنة ٧٦٧ هـ^(٣) .

(١) Literary History of Persia, Vol. III, P. 103

(٢) كشف الظنون ، طبع مصر سنة ١٢٧٤ ، ج ١ ص ١٧٠ .

(٣) أنظر تفصيل هذه الحوادث في كتابنا عن « حافظ الشيرازي » طبع مطبعة المعارف

سنة ١٩٤٤ م ١٣٤ — ١٤٦ .

و مولانا معين الدين ، يعرف أيضاً باسم آخر هو «معلم يزدي» ، نسبة إلى تدينية
«يزد» ، الموطن الأول له «آل المظفر» .

ويذكره مواطنه «محمد مفيد المستوفي» ، في كتابه «جامع مفيدى»^(١) فيقرر أنه :
«كان أكبر علماء عصره» ، وأن دروسه كان يحضرها كثير من الطلاب ، وكان الشاه
شجاع من بين من يحضرون عليه أحياناً .

وكتاب المسمى بـ «مواهب إلهي» أو «تاريخ معنى مظفرى» ، أو «تاريخ آل
المظفر» ، يوصف بأنه مثل في البلاغة مليء بالمحسنات اللفظية والبديعة ومكتوب على
نمط «تاريخ الوصاف» ، وأسلوبه ، وقد قرر ذلك أيضاً حاجي خليفة ، في كتابه «كشف
الظنون»^(٢) حيث قال :

«تاريخ آل المظفر : فارسي لمعين الدين اليزدي ، ألفه في سنة ٧٥٧ سيع وخمسين
وسبعائه وسماه «مواهب إلهي» ، قصد فيه الإنشاء كالوصاف» .

ويمدح المؤلف في مقدمة كتابه الملك المعروف «جلال الدين شاه شجاع» ، ثم
يقول أنه : «لما كان يحظى برعاية أمراء آل المظفر فإنه كثيراً ما فكر في كتابة سجل
لأعمالهم يعترف فيه بأفضالهم» ، ففي سنة ٧٥٧ هـ عند ما وصل إلى إصفهان مع الشاه
شجاع وجيشه ، سمح له بالدخول على «مبارز الدين» ، فوجد الفرصة مواتية ليقراً
عليه وعلى ابنه الشاه شجاع جزءاً من تاريخه هذا ، فصادف منهما القبول وشجعاه على
المضي في كتابته فأتمه في ستة واحدة . .

ولكن المعروف أن «معين الدين اليزدي» ، أكمل كتابه إلى تاريخ أبعد مما ذكره
في هذه المقدمة لأن الكتاب ينتهي بوصف المعركة الهامة التي حاربها الشاه شجاع مع
أخيه ومنافسه في الملك الشاه محمود الذي انهزم في معركة شيراز واضطر إلى تسليمها
في سنة ٧٦٧ هـ . ويكون تأليف الكتاب بناء على ذلك قد استغرق عشرة سنوات .
وقد عثرت على نسخة مخطوطة من كتاب «تاريخ آل المظفر» ، حكام شيراز في .

Cat. Pers. MSS, OR. 210 fol. 252., (١)

(٢) كشف الظنون ، طبع مصر سنة ١٢٧٤ هـ ، ج ١ ص ١٧٠ .

مكتبة الجامعة تحت رقم ٦٩٩ فارسى عدد أوراقها ٢٠٨ وطول صحتها ٩,٢٥ بوصة وعرضها ٦,٢٥ بوصة .

وما كنت أمضى فى فصحى لهذه النسخة حتى تبين أن عدداً من أوراقها قد سقط وضاع وأنها أصبحت بذلك مضطربة سقيمة لا يمكن الاعتماد عليها بحال . ولكنى حسن الخط عثرت على مقال قيم عن آل المظفر اعتمد فيه كاتبه إلى حد كبير على ما كتبه « معين الدين اليزدى » وجعله باباً ملحقا بتاريخ كريده كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(١) .

وكتب هذا المقال هو « محمود الكتبي » الذى حدثنا فى مقدمة كتابه عن السبب الذى حدها إلى إلحاق هذا « باب تاريخ كريده » فقال ما ترجمته ^(٢) :
« وقد ألف السيد الفاضل « مولانا معين الملة والدين اليزدى » رحمه الله رحمة واسعة رسالة عن تاريخ آل المظفر ، ولكنه باستعماله للاستعارات الغريبة والعبارات العجيبة وما ساقه من مدح مطرد للملوكهم ، وإغراق فى الثناء على كل واحد منهم ، قد أخفى عروس المقصود ، فى ستر الاحتجاب والأمتاع .

فى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة أسعدنى الشرف أنا الفقير الحقير محمود الكتبي — أخقه الله بعباده الصالحين — فقرأت كتاب « تاريخ كريده » الذى صنفه « حمد الله المستوفى » فكان تاريخاً جامعاً لم يكتب ما هو أضبط وأكثراً فائدة منه ... فألهمنى العقل وهادنى التفكير إلى أنه يجب أن يدخل فى هذه النسخة (من كتاب تاريخ كريده) تاريخ آل المظفر منذ قيام دولتهم إلى انطفاء شعلتهم على يد تيمور...

ولما كنت أباً عن جد فى خدمتهم وكنت منذ ولادتي وتفتح بصرى إلى يومنا هذا قد شاهدت بعض حكاياتهم وعايبتها بنفسى كما استمعت لبعضها الآخر من الأكابر والمشايخ المعروفين بصحة القول ، فقد لبثت نداء هذا الإلهام السعيد بالسمع والطاعة وأطعت أمره رغم قلة بضاعتى فى الفضل وكثرة موانعى فى الوقت ...
ومحتويات هذا المقال تتشابه فى تفاصيلها مع محتويات كتاب « مواهب إلهى » —

(١) انظر ص ١٠٤ من هذا المقال

(٢) ص ٦١٣ — ٦١٥ من تاريخ كريده ، طبع لندن سنة ١٩١٠ م

كا وصفها ريو في «كتالوج المخطوطات الموجودة بالمتحف البريطاني» - وكذلك مع محتويات النسخة المخطوطة الموجودة منه في مكتبة الجامعة، وإن كانت تختلف عن هاتين الأخيرتين في أنها تسمى بتاريخ آل المظفر إلى آخر دولتهم في سنة خمس وتسعين وسبعمائة.

١١ - ظفر نامه

تأليف مولانا نظام الدين شامى في سنة ٨٠٦ هـ

اشتهر «نظام الدين شامى» بأنه المؤرخ الوحيد الذى كتب عن تيمور أثناء حياته كما اشتهر كتابه «ظفر نامه» بأنه أول تاريخ كتب عن دولة التيموريين ويقال أن تيمور هو الذى اختار تسمية هذا الكتاب.

وكتاب «مولانا نظام الدين شامى» نادر الوجود، وله نسخة مخطوطة بالمتحف البريطانى تحت رقم ADD 23, 980 ربما كانت النسخة الوحيدة الموجودة منه.

وقد لحص Rieu ما يعرف عن هذا الكتاب فيما يلي: (١)

«كان المؤلف يعيش في بغداد عند ما فتحها تيمور في سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٢ م) وكان من من اوائل من خرجوا من البلدة للقاء الفاتح وتقديم خضوعهم.

وفي سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) سُجن في مدينة حلب.

وفي سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) استدعاه تيمور، كما يذكر ذلك المؤلف في مقدمته وأمره أن يكتب تاريخاً عن حكمه وغزواته. ووضع تحت تصرفه كثيراً من المستندات التاريخية والأوراق الرسمية وأمره أن يكتب تاريخه بلغة عالية من التصنع والمحسنات البديعية ليتمكن العامة من قراءتها وفهمها.

وفي سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) خطب خطبة عيد الفطر أمام تيمور في معسكره بالقرب من «اردبيل».

وبعد ذلك بقليل رجع تيمور إلى « سمرقند » وسمح لنظام الدين شامى بالرجوع إلى موطنه الذى كان على ما يظهر فى « تبريز » ، وزوده بخطابات لحفيده « عمر بهادر » ابن « ميرانشاه » الذى نصب فى ذلك الوقت حاكماً على فارس وبقى يشغل منصبه إلى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) حينما خلفه أخوه « أبو بكر » .

ويظهر أن كتاب « ظفر نامه » انتهى بذكر سنة ٨٠٦ هـ عند ما رجع تيمور إلى عاصمته « سمرقند » ثم خرج منها بعد قليل ليقوم بفتحاته فى الصين — ولكنه لم يكملها بسبب موته فى السنة التالية .

وعلى ذلك فكتاب « ظفر نامه » لنظام الدين شامى لا يذكر لنا السنة الأخيرة من سنى تيمور — وإن كانت هذه السنة مذكورة فى الكتاب الآخر الذى يحمل هذه التسمية والذى ألفه « شرف الدين على اليزدى » فى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) كما سنفصل الكلام على ذلك مباشرة .

١٢ — ظفر نامه

تأليف شرف الدين على اليزدى فى سنة ٨٢٨ هـ

يذكر دولتشاه فى « تذكرة الشعراء »^(١) أن شرف الدين على اليزدى كان شاعراً من أهل الفضل والعلم وأنه برز فى سائر العلوم وخاصة فى الألفاظ والمعاني .

وبعد ما أورد لنا مثالا من شعره ذكر أنه كان مرجع الفضلاء فى العراق وفارس على عهد « ابراهيم سلطان بن شاه رخ بهادر » الذى كان يقربه ويفتق عليه من نعمه وهو الذى طلب إليه أن يكتب كتابه التاريخى المعروف بـ « ظفر نامه »^(٢) ليكون تاريخاً لتيمور من مولده إلى وفاته :

« واز مولانا التماس نمود تا تاريخ و مقامات صاحب قرانى تيمورى را بقيد

(١) ص ٣٧٨ من « تذكرة الشعراء » ، طبع ليدن سنة ١٩٠٠ م .

W. H. Morley : Descriptive Cat. of Historical MSS.

(٢) انظر :

Rieu : Cat. Pers. MSS, pp. 173—5

عبارات در آورد، و مولانا شرف بوقت پیری بالتماس شاهزاده آن کتاب را تالیف نمود، و بظفر نامه موسوم ساخت

و هذا الكتاب على عكس سميته الذى ألفه « مولانا نظام الدين شامى » ملئ بالمحسنات البديعية التى تدعو القارئ أحيانا إلى الملل والسأم . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحقائق التاريخية التى ذكرها هذا المؤلف ليست من تصنيفه ، وإنما الجزء الأكبر منها قد استعاره من نظام الدين شامى الذى سبق الحديث عنه .
ومع ذلك فكتاب « شرف الدين على اليردى » هو الذى فاز بالشفرة على كتاب « نظام الدين شامى » .

ويروى « دولتشاه » أن « شرف الدين » أكمل كتابه فى أربع سنوات :
« گویند که در مدت چهار سال مولانا روزگار صرف نمود تا آن تاریخ باتمام پیوست (۱) » .

وروى صاحب « حبيب السير » أنه فرغ من تأليفه سنة ۸۲۸ هـ ، كما تدل على ذلك عبارة « صنف فى شيراز » بحساب الجمل .
ويذكر « أمين أحمد رازى » فى كتابه « هفت اقليم » أن « شرف الدين » له بالإضافة إلى كتابه التاريخى ، كتاب فى « المعينات والألغاز » وشرح بالفارسية لفصيدة البردة للبوصيرى ، وكتاب عن الأعداد اسمه « كنه المراد در علم وفق اعداد » ، وقدر لا بأس به من الرباعيات والمثنويات .

وقد طبع كتابه « ظفر نامه » فى مجلدين فى مدينة كلكتا (۲) وترجمه إلى الفرنسية J. Darby فى سنة ۱۷۲۲ كما ترجمه من الفرنسية إلى الإنجليزية J. Darby فى سنة ۱۷۲۳ .

وقد توفى « شرف الدين » فى مدينة « نفت » فى سنة ۸۵۸ هـ ودفن فى مدرسة بناها هناك ، كانت تعرف بالشرفية .

(۱) تذكرة الشعراء لدولتشاه ، ۳۲۷ .

(۲) ضمن مجموعة Bibliotheca Indica Series

١٣ - زبدة التواريخ

تأليف حافظ ابرو في سنة ٨٢٩ أو ٨٣٠ هـ

ولد «خواجه نور الدين لطف الله» المعروف بـ «حافظ ابرو» في مدينة هراة^(١) وتلقى دروسه في مدينة همدان والتحق بخدمة تيمور ثم ابنة «شاه رخ» وحفيده «بايسنقر» الذي أهدى إليه كتابه المعروف «زبدة التواريخ».

وهذا الكتاب له تسمية أخرى كما يظهر من قول «فصيحى» صاحب «المجمل» فإنه أسماء هناك بـ «مجمع التواريخ السلطاني» وذكر أنه فرغ منه في سنة ٨٢٩ أو سنة ٨٣٠ هـ^(٢) أى قبل وفاة المؤلف بثلاث سنين أو أربع.

وكان الكتاب يشتمل على أربعة مجلدات، ضاع منها المجلدان الثالث والرابع اللذان كانا يتعلقان بتاريخ الدول التي نشأت في فارس بعد الاسلام^(٣) وبقيت نسخة مخطوطة من المجلدين الأولين في مكتبات روسيا وفي المتحف البريطاني.

وقد ألف «حافظ ابرو» بناء على طلب «شاه رخ» كتاباً آخر في الجغرافيا وصل إلينا منه الجزء الأول المحفوظ بالمتحف البريطاني تحت رقم or. 1577 وقد استطاع «ريو» أن يجمع منه كثيراً من الحقائق عن حياة المؤلف نختصرها فيما يلي^(٤):

أولاً - أن المؤلف كتب هذا الكتاب الجغرافى ما بين سنة ٨٢٠، وسنة ٨٢٣ هـ. ثانياً - أنه كان كثير الرحلة وقد صاحب تيمور في كثير من معاركه وكان حاضراً معه عندما استولى على حلب ودمشق في سنة ٨٠٣ هـ. ثالثاً - أنه أقام في مدينة «هراة» أثناء تولي «شاه رخ» وأخذ هناك في الكتابة والدرس والتصنيف.

(١) يقول «فصيحى» في كتابه «المجمل» أنه ولد في بلدة «خواف» من بلاد خراسان.

(٢) Rieu : Pers. Cat, P. 4229 ... (٢)

Baron Victor Rosen : Collections Scientifiques (Manuscrits pers.) Vol III p. (٣)

52-111

Rieu : Pers. Cat, P. 422 ... (٤)

رابعا - أنه مات في زنجان ، أثناء رجوعه من آذربيجان ، ودفن هناك .
وقد ذكر ، فصيحى ، في كتابه ، المجلد ، أنه مات في سنة ٨٣٣ هـ .
وكان كتاب « زبدة التواريخ » العمد الذى اعتمد عليه « عبد الرزاق السمرقندى »
في تأليف كتابه « مطلع السعدين » الذى سبأ فى الحديث عنه بعد قليل .

١٤ - المجلد

تأليف فصيحى خوافى في سنة ٨٤٥ هـ

كتب الأستاذ براون^(١) أن الموجود من هذا الكتاب هو ثلاث نسخ مخطوطة
كان يمتلك هو نفسه واحدة منها بينما يمتلك الثانية معهد الدراسات الشرقية بروسيا^(٢) ،
والثالثة أصبحت ملكا ، لأوقاف جب التذكارية ،^(٣) .

ويقول أنه كتب مقالا مفصلا عن هذا الكتاب في عدد الـ *Muséon* الذى
أصدره الأساتذة البلجيكيون أثناء وجودهم في كبرج سنة ١٩١٥ .
ويستفاد من هذا المقال أن « المجلد » يشتمل على مقدمة ومقالتين وخاتمة .
فأما المقدمة ففيها خلاصة لتاريخ العالم منذ بداية الخليقة إلى ولادة النبي محمد
عليه السلام .

وأما المقالة الأولى ففيها سيرة النبي إلى وقت هجرته إلى المدينة .
وأما المقالة الثانية فتبدأ بتاريخ السنة الأولى من الهجرة وتنتهى بسنة ٨٤٥ هـ .
وأما الخاتمة ، ففقودة من جميع النسخ الخطية وتشتمل على وصف لمدينة هراة
التي ولد فيها المؤلف .

والمؤلف لا ذكر له في سائر الكتب وإنما يؤخذ ما ذكره في كتابه أنه كان
يشغل في سنة ٨٠٨ بتحصيل الماليات مع ثلاثة آخرين ، وأنه ذهب في سنة ٨١٨ مع

(١) Lit. Hist. of Persia, Vol III, p. 426 ...

Institut des Langues Orientales du Ministère des Affaires Etrangères de St. (٢)

Petersbourg.

Gibb Memorial Series. (٣)

الشاه رخ إلى شيراز حينما توجه لمحاربة الأمير «بايقرا» ، وأنه ذهب إلى كرمان في سنة ٨٢٥ لأمور تتعلق بالماليات ، وأنه رجع إلى «بادغيس» في سنة ٨٢٧ وأنه التحق بخدمة الأمير بایستقر في سنة ٨٢٨ هـ ثم ذكر أنهم حبسوه في سنة ٨٤٣ هـ ثم في سنة ٨٤٥ هـ لاغضابه لـ «جواهر شارآقا» ، وبتنهي كتابه بذكر الأحداث التي وقعت في هذه السنة .

ويمتاز كتابه المجلد بأمرين :

- ١ - سهولة الأسلوب وبساطته وخلوه من آثار الضعفة .
 - ٢ - اهتمام المؤلف بذكر شيء عن الأدباء والكتاب الذين عاشوا في العصور المختلفة وخاصة الذين أقاموا في خراسان وما وراء النهر .
- ولا شك أن «فصحي» استمد معلوماته عن هؤلاء من مصادر متقدمة لم يستطع الرجوع إليها أصحاب كتب التراجم المتأخرة ، فكانت أهمية كتابه كبيرة من هذه الناحية .

١٥ - مجمع السعدين ومطلع البحرين

تأليف كمال الدين عبد الرزاق بن جلال الدين اسحق السمرقندي

في سنة ٨٧٥ هـ

ولد مؤلف هذا الكتاب في ١٢ شعبان سنة ٨٢٦ هـ ^(١) في مدينة هراة ، ولكنه نسب إلى سمرقند لأن أباه جلال الدين اسحق كان من هذه المدينة الأخيرة يتولى القضاء والإمامة فيها أيام شاه رخ .

وتوفي أبوه في سنة ٨٤١ وله من العمر خمسة وعشرون سنة فألحقه «شاه رخ» بخدمة مكان أبيه ، وقد ألّف في هذه السنة شرحاً على رسالة للقاضي عضد الدين الأيجي في معنى الحرف وإسم الإشارة . وفي سنة ٨٤٥ أرسله هذا الملك إلى أحد حكام الهند المسمى ييجانكر في رسالة استغرقت ثلاث سنين أورد لنا تفاصيلها في بداية كتابه «مطلع السعدين» .

(١) «حبيب السيرة» المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، ص ٣٣٥ .

وفي سنة ٨٥٠ أرسله شاه رخ في بعثة إلى « كيلان » ، فلا كاد يتمها حتى طلب إليه أن يسافر إلى مصر ، ولكن الشاه رخ توفي في هذه السنة فكان موته سبباً في عدم قيامه بهذه الرحلة والتحق بعد ذلك بخدمة الأمراء التيموريين « ميرزا عبد اللطيف » و « ميرزا عبد الله » و « أبي القاسم بابر » و « أبي سعيد » .

وفي سنة ٨٦٧ هجرية رجع إلى بلده « هراة » واختار حياة العزلة والكون فقبل أن يكون شيخاً للخانقاه التي أسسها « شاه رخ » في هذه البلدة واستمر في هذا المنصب إلى حين وفاته سنة ٨٨٧ هـ (١) :

« في جمادى الأولى سنة سبعة وستين وثمانمائة به منصب شيخى خانقاه ميرزا شاه رخ منصوب گشت . و تا آخر أيام حيات بدان امر اشتغال داشت . وفاتش در ماه جمادى الاخرى سنة سبع وثمانين وثمانمائة روى نمود . و از آثار اقلام بدايع ارقامش كتاب افادت آيات « مطلع السعدين » در ميان مردم متداول ومشهور است . و در آن تاريخ شريف معظم وقايع معموره ربع مسكون از زمان سلطان أبو سعيد به در خان تا وقت شهادت ميرزا سلطان أبو سعيد كوركان مسطور والله أعلم بحقايق الاحوال والامور (٢) » .

و كتاب مطلع السعدين كما يستفاد من هذه الفقرة عبارة عن تاريخ الفترة التي توسطت حكم السلطان أبي سعيد بهادر الإيلخاني وحكم السلطان أبي سعيد التيمورى أى بين سنة ٧٠٤ إلى سنة ٨٧٥ هـ تقريباً .

ولعل تحديد هذه الفترة وابتدائها بأبى سعيد الإيلخاني ، واختتامها بأبى سعيد التيمورى (٣) ، هو السبب الذى حدا المؤلف إلى تسمية كتابه بمطلع السعدين .
ويقع هذا الكتاب في جزئين :

(١) أرجع إلى تاريخ حياته في الكتب التالية : 3 — 181 pp. Rieu's Cat. Pers. MSS, Quatremère Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibl. Nationale, Vol. XIV. Morley's Descriptive Cat.

(٢) « حبيب السير » مجلد ٣ ، جزء ٣ ص ٣٣٥ .

(٣) قتل أبو سعيد التيمورى على يد « اوزون حسن » في سنة ٨٧٣ ولكن « مطلع السعدين » يذكر حوادث السنين التاليين بعد ذلك .

الجزء الأول : من مولد أبي سعيد بن الجايي محمد خطابته إلى موت تيمور في سنة ٨٠٧ هـ
وقد لاحظ المؤلف أن أبا سعيد توفي في نفس السنة التي ولد فيها تيمور
الجزء الثاني : أعقاب تيمور منذ تولى « شاه رخ » في سنة ٨٠٧ إلى السلطان حسين
ميرزا في سنة ٨٧٥ هـ ^(١)

وقد اعتمد المؤلف إلى حد كبير في تأليف هذا الكتاب على كتاب « زبدة التواريخ »
لـ « حافظ ابرو » ، ولكن هذا لم يقلل من أهمية كتابه لأنه أورد به كثيراً من التفاصيل
وأحداث التي وقعت في هذه الفترة الهامة من تاريخ إيران . ولا شك أن المؤلف
استقى كثيراً من أخباره من السجلات الحكومية التي استطاع الاطلاع عليها بحكم
مركزه واتصاله بالأمراء والحكام ^(٢)

١٦ - روضة الجنات في تاريخ مدينة هرات

تأليف معين الدين الاسفزاری في سنة ٨٧٥ هـ

كان المؤلف على قول صاحب « حبيب السير » ^(٣) عمدة المترسلين في زمانه وكان
ينظم الشعر أيضاً كما كان من الخطاطين الماهرين المعروفين بحسن الخط والولع
بتعليم قواعده .

وذكر أيضاً أن له كتابين ، الأول « تاريخ مدينة هراة » ، والثاني كتاب مرسل يشتمل
على بعض المنشورات والمكتوبات :

« از جملة مؤلفاتش تاريخ بلده هرات وترسلي مشتمل بر منشآت مناشير ومكتوبات
در میان مردمان مشهور است »

وقد قسم كتابه عن مدينة هراة إلى ٣٦ قسماً أو « روضة » :

الروضة الأولى إلى السادسة : عن وصف لمدينة هراة وضواحيها وموقعها وحكامها بعد
دخول الإسلام .

(١) أنظر : W. H. Morley : Descriptive Cat.

(٢) في « دار الكتب الملكية » بالقاهرة نسخة من هذا الكتاب تحت رقم ن ح ٩٢١٦ ، انظر
ص ٥٠٨ من فهرست الكتب الفارسية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية المصرية .

(٣) مجلد ٣ ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ .

والروضتان السابعة والثامنة : عن آل كرت إلى انتهاء دولتهم على يد تيمور .
وبقية الروضات : عن تيمور وأعقابها إلى تولي السلطان حسين أبي الغازي
عرش أجداده للمرة الثانية .

وقد كتب M. Barbier de Meynard مقالا مفصلا عن الكتاب نشره في مجلة
الجمعية الآسيوية وبين فيه موضوعاته وأهميته^(١) .

وقد ذكر المؤلف أنه اعتمد في تأليف كتابه على ما كتبه من قبل « أبو اسحق احمد
ابن ياسين » و « الشيخ عبد الرحمن فاضل » و « سفي الهروي » و « ريبي البوشنجي »
الذي ألف « كرت نامه » وكذلك « كمال الدين عبد الرزاق » صاحب مطلع السعدين
الذي سبق الحديث عنه .

١٧ - روضة الصفا

تأليف محمد بن خاوند شاه بن محمود المعروف بـ « ميرخواند »

المتوفى في سنة ٩٠٣ هـ

« روضة الصفا » هي أكثر الموسوعات التاريخية ذبوعاً في إيران وقد طبعت في
بمباي مرتين احدهما في سنة ١٢٦٦ والثانية في سنة ١٢٣١ وطبعت في طهران سنة ١٢٧٠
ونشرت ترجمتها إلى اللغة التركية في مدينة استانبول سنة ١٢٥٨ هـ . وترجمت أجزاء منها
إلى اللغات الأوروبية في فترات مختلفة . ويعتبرونها في إيران مصدراً من أهم مصادرهم
التاريخية وقد يبالغون أحياناً فيعتبرونها المصدر الأول والوحيد للعصور التي تحدثت
عنها . وقد بالغ في قيمتها رضا قلي خان ، الملقب بهدايت ، فكتب لها ملحقاً تاريخياً
أضافه إليها ، جمع فيه حوادث السنين التالية لتأليف « روضة الصفا » إلى أيامه التي عاش
فيها — أي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي^(٢) .
والمعروف عن مؤلف « روضة الصفا » قليل ، وما نقله عنه حفيده « خواند أمير »

(١) Journal Asiatique, 5th. serie, Vol. XXVI, pp. 461-520 ...

(٢) « من روضة الصفا » يقع في ثلاثة أجزاء وبذلك تكون روضة الصفا ومنمها في
عشرة أجزاء .

في كتابه « حبيب النير » (١) لا يفيدنا إلا في معرفة تاريخ وفاته

ويستفاد مما قاله أن مؤلف « روضة الصفا » مات في ذى القعدة سنة ٩٠٣ هـ وأنه بلغ من العمر ستاً وستين سنة .

فإذا صح هذا النص تكون ولادته في سنة ٨٣٧ هـ .

وكان أبوه « سيد برهان الدين » من أهل « بخارى » هاجر إلى « بلخ » ومات بها . ثم انتقل « ميرخواند » إلى هراة والتحق بخدمة الأمير « عليشير نوائي » واستمر هناك إلى أن أدرسته الوفاة .

وتقع « روضة الصفا » في سبعة أجزاء بالتفصيل الآتي :
الجزء الأول : في بيان أول المخلوقات وذكر قصص الأنبياء وذكر ملوك العجم والحكام الأسبقين .

الجزء الثاني : في بيان نسب الرسول خاتم الأنبياء ، والخلفاء الراشدين .
الجزء الثالث : في ذكر الأئمة وأحوال بني أمية وبني العباس .
الجزء الرابع : في ذكر الدول الإسلامية التي نشأت في فارس إلى تيمور .
الجزء الخامس : في ذكر المفاول الإيلخانيين

الجزء السادس : في ذكر تيمور وأعقابيه إلى سنة ٨٧٣ هـ .
الجزء السابع : ويظهر أن الذي أكمله شخص آخر ، مخصص بأجمعه لذكر أحوال الخاقان السعيد السلطان حسين ميرزا بايقرا الذي توفي في سنة ٩١٢ هـ أي بعد تسع سنوات من وفاة « ميرخواند » .

ولا شك أن الجزئين الأخيرين من « روضة الصفا » يشتملان على كثير من الحوادث التي شاهدها المؤلف بنفسه وتحتصر فيها أهمية الكتاب لمن أراد أن يكتب عن التيموريين خاصة .

- ١٨ - مآثر الملوك
١٩ - خلاصة الأخبار
٢٠ - حبيب السير

تأليف غياث الدين بن همام الدين المعروف بـ «خواند امير»
المتوفى سنة ٩٤١ هـ

مؤلف هذه الكتب الثلاثة، تربطه صلة القرابة بمؤلف «روضة الصفا» الذى كان جده لأمه، كما حكى لنا فى كتابه «حبيب السير».

وقد ولد «غياث الدين» الملقب بـ «خواند امير» فى مدينة هراة فى سنة ٨٧٩ أو فى السنة التالية والتحق كجده بخدمة الأمير «عليشير نوائى» الذى كان قصره محطاً لرجال العلم والأدب.

والمعروف أن «عليشير» هو الذى طلب إليه تأليف كتابه «مآثر الملوك» و«خلاصة الأخبار».

أما «حبيب السير» فيذكر لنا المؤلف فى مقدمته أنه جمعه بناء على طلب مخدومه «السيد غياث الدين محمد بن يوسف الحسينى» الذى كلن يتولى التدريس فى مدرسة من مدارس هراة، والذى كان مقرباً من السلطان حسين وأعقابه ثم أصبح قاضياً لخراسان زمن الشاه اسماعيل الصفوى.

ويقول «خواند امير» أنه بدأ كتابة الجزء الأول من «حبيب السير» عند مقتل مخدومه «غياث الدين» وكانت مدينة هراة فى ذلك الوقت تسودها الفتن والقتل بحيث خشى ألا يستطيع إكمالها. ولكن الشاه اسماعيل أرسل حاكماً جديداً لخراسان أعاد إليها الأمن هو «دورميش خان» الذى سلم لـ «كریم الدين خواجه حبيب الله» أزمة الأمور وكان معروفاً بعلومه وأدبه وحبه للتاريخ وسائر العلوم.

وحبيب الله هذا هو الذى شجع «خواند امير» على تكملة كتابه «حبيب السير» ويقال أن المؤلف اختار لكتابه هذه التسمية تخليداً لذكره.

ويظهر من نهاية الجزء الرابع من المجلد الثالث من «حبيب السير» أن المؤلف

انتهى في كتابه بذكر حوادث شهر ربيع الأول سنة ٩٣٠ هـ أى قبل وفاة الشاه اسماعيل الصفوى ببضعة أشهر .

وقد ذهب « خواندامير » بعد ذلك إلى الهند في سنة ٩٣٤ حيث قربه « بابر » وابنه « همابون » فبقى هناك حتى مات في « كجرات » في سنة ٩٤١ هـ .
أما مؤلفاته الثلاث فأليك وصفاً موجزاً لها :

ما تـر الملوك :

يظن Rieu أن هذا الكتاب^(١) كان أول مؤلفات « خواند أمير » فهو لا يشير فيه إلى مؤلفيه الآخرين .

ويذكر « خواند أمير » في مقدمة كتابه هذا أن الذى شجعه على تأليفه هو « الأمير عليشير نوائى » .

ويشتمل هذا الكتاب على الأقوال الماثورة للبلوك والحكام السابقين ، ويقع في ستة أبواب :

الباب الأول : ذكر شئ من آثار ملوك العجم .

الباب الثانى : أقوال الحكام من بداية آدم إلى بزرجمهر .

الباب الثالث : أقوال النبي والأئمة .

الباب الرابع : أقوال ملوك بنى أمية .

الباب الخامس : أقوال خلفاء بنى العباس وملوك الطاهريين والسامانيين والغزنويين

إلى آل كرت .

فهرسة الرؤى في بياره أهوال الرؤى :

بالمتحف البريطانى نسخة مخطوطة من هذا الكتاب تحت رقم^(٢) Or 1292 وكذلك تحتفظ « الجمعية الآسيوية الملكية بلندن » بنسخة أخرى منه^(٣) .

(١) بالمتحف البريطانى نسخة من هذا الكتاب تحت رقم Or. 2928 & 2643 .

(٢) Rieu : Cat. Pers. MSS, p. 96 ...

(٣) W. H. Morley : A Descriptive Cat. of the Historical MSS, preserved in the Library of the Royal Asiatic Society.

ويقول المؤلف في مقدمة كتابه هذا أن الأمير عليشير كلفه بتأليفه في سنة (٩٠٤) ووضع تحت تصرفه كل الكتب التاريخية التي كانت في مكتبته فأخذ يلخصها ويرتبها حتى أخرج هذه الخلاصة ، التي قدمها لسيدته والتي قال في خاتمتها أنه فرغ منها بعد ستة أشهر من اشتغاله بها .

وتعتبر « خلاصة الأخبار » تلخيصاً لكتاب « روضة الصفا » الذي سبق الحديث عنه ، وتشتمل على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة :

مقدمة : في خلق العالم والإنس والجن .

المقالة الأولى : الأنبياء والرسول .

المقالة الثانية : حكماء الفرس واليونان .

المقالة الثالثة : ملوك فارس الأقدمين وملوك العرب واللتخمين والساسنة والحميريين

المقالة الرابعة : سيرة النبي وغزواته .

المقالة الخامسة : الخلفاء الراشدين والأئمة الاثنا عشر .

المقالة السادسة : بنو أمية .

المقالة السابعة : بنو العباس .

المقالة الثامنة : الطاهريون ، الصفاريون ، السامانيون ، آل بويه ، الغزنويون ،

الإسماعيلية ، السلاجقة ، حكام خوارزم ، أتابكة الموصل وأذربيجان وفارس ولورستان ،

القراختاي ، آل المظفر ، السريدار ، الغوريون ، ملوك سيستان ، آل كرت .

المقالة التاسعة : جنكيز خان وأحفاده .

المقالة العاشرة : تيمور وأعقابيه إلى سنة ٨٧٥ هـ .

الخاتمة : وصف هراة وذكر بعض المعاصرين من العلماء .

هيبب السبر في أفراد أخبار البئر :

يقع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات كل منها يشتمل على أربعة أجزاء . والمؤلف

ينقل في أماكن كثيرة عن « روضة الصفا » ، ولكنه مع ذلك يفيض القول في أماكن

أخرى ، فيتحدث عن الدول الصغيرة التي أهملتها « روضة الصفا » كما يتحدث عن

(١) يذكر حاجي خليفة أن هذا الكتاب تم تأليفه سنة ٩٠٠ هـ . كشف الظنون ج ٣ ص ١٦٣

رجال العلم والأدب الذين ظهروا في مختلف العصور مما يجعل كتابه سجلاً تاريخياً أدبياً كبير القيمة . هذا بالإضافة إلى وضوح أسلوبه وخلوه من الحشو والزوائد .

وحتويات الكتاب على النحو الآتي :

المجلد الأول : مقدمة وأربعة أجزاء .

المقدمة : في تاريخ الخليقة .

الجزء الأول : الأنبياء والرسل والحكام .

الجزء الثاني : ملوك الصميم والغرب الأقدمين .

الجزء الثالث : سيرة النبي وغزواته .

الجزء الرابع : تاريخ الخلفاء الراشدين .

المجلد الثاني : في أربعة أجزاء .

الجزء الأول : تاريخ الأئمة الاثني عشر .

الجزء الثاني : بنو أمية .

الجزء الثالث : بنو العباس .

الجزء الرابع : تاريخ الدول الفارسية المعاصرة للخلافة العباسية وتاريخ الاسماعيلية .

المجلد الثالث : في أربعة أجزاء .

الجزء الأول : تاريخ الممولى الأتراك .

الجزء الثاني : تاريخ الدول المعاصرة لدولة الممولى الأتراك .

الجزء الثالث : تاريخ تيمور وأعقابيه .

الجزء الرابع : تاريخ شاه اسماعيل الصفوى إلى سنة ٩٣٠ هـ .

الخاتمة في ذكر بدائع الربيع المسكون وغرائب ووفائف العالم وعجائبه .



هذه مجموعة من المصادر الفارسية التي لو تهيأ لها أن تنقل إلى لغتنا العربية لأغنت ثروتنا التاريخية ، وجعلتنا غنى عن الرجوع إلى تراجمها الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية كما جد بنا الدرس واحتجنا إلى البيان والتفصيل ؛ ولعل كلية الآداب ومعهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد الاول يستطيعان أن يهيئا الفرصة المساعدة لنقل هذا التراث التاريخي الخالد إلى اللغة العربية حتى يستطيع القارئ العربي أن يحصل على ثروته الموروثة كاملة غير منقوصة .

ابراهيم أمين

بعض مشكلات تخطيط

الحدود السياسية ونتائجها

بقلم

الدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى

قد تطور الاهتمام بتعيين الحدود السياسية تبعاً لتطور العناية بما تمثله هذه الخطوط الفاصلة في معناها ومبناها ، ذلك أنها في الماضى البعيد كانت عبارة عن الصور التى جاء بها هؤلاء الذين تولوا شئون الحكم والإدارة فى الوحدات المختلفة وبالتالي كانت تنطبق مع نهايات مجهوداتهم فى التوسع أو الانكماش تبعاً للظروف المختلفة التى توصى بمثل هذه الحالة أو تلك ؛ ^(١) وليس من شك أن مبلغ العناية بالحدود السياسية فى ذلك العهد لم يكن قوامه تعلق الشعب بصفة عامة بخط معين أو بمظهر جغرافى واضح يحدد مصيره مرتبطاً به ، بل كانت الحدود السياسية عبارة عن الأبعاد العظمى أو الصغرى لرقعة القطر فى عهود حكامه المختلفين بدون اشتراك فعلى فى تعيينها ^(٢) .

ثم تطور أمر الحدود السياسية بعد أن شاعت عمليات التوسع والفتح وتكوين إمبراطوريات فسيحة عظيمة تضم الكثير من الجماعات والشعوب المتشابهة أو المتنافرة وتشمل اللغات واللهجات والأديان المتعددة ، وتظهر بين ثنائياها الحضارات المتقاربة أو المتباعدة ، وتنظم فى رقعا المظاهر التضاريسية المعقدة ، كل هذا الخليط أصبح يكون وحدة سياسية ذات حدود معينة قد يطول العهد يبقائها على هذه الصورة ، وقد يحدث التنام بين أجزائها المتأثرة ، وقد يظهر نوع من الرابطة ، وقد تتكون من مجموعها وحدة كبيرة قوية فى مظهرها ، أو قد تكون ضعيفة فى قواعدها وأركانها ، حتى إذا ما جاءت نهايتها ، وحل دور تفككها وانحلالها ، طفت أجزاؤها المختلفة تبحث عن حدودها التى ترتضيها لنفسها ، وهكذا تنشأ حدود جديدة وتتضاعف خطوط الاحتكاك والاضطراب

من جراء عمليات تخطيط الحدود الفاصلة ، ومن خير الأمثلة حالة الحدود السياسية في أمريكا الجنوبية والوسطى إذ جمهورياتها المختلفة هي وريثة الإمبراطوريتين الاستعماريتين الإسبانية والبرتغالية . فلما جاء دور كفاحها من أجل استقلالها لم تكن هناك خطوط ظاهرة مقبولة يمكن اعتبارها الحدود السياسية الفاصلة بينها (١) ولذا كان الكفاح من أجل تعيين هذه الحدود السياسية مريراً قاسياً واستمر مدة أطول بكثير من تلك التي اقتضاها النجاح في الحصول على الاستقلال ، وما زالت حروب التحديد السياسي تتجدد آتية بعد أخرى بين كثير من هذه الجمهوريات مثل براجواي وبوليفيا وبيرو وشيلي (٢) والبرازيل واكوادور وكولومبيا وفنزويلا .

على أن الهجرات البشرية المختلفة التي حملت الحضارات المتباينة وجاءت بالجماعات المتنافرة . قد ساعدت على تعقيد مشكلات تعيين الحدود ، وقد توالى وصول هذه الهجرات من الأم "كبرى آسيا" (٣) . وترتب على ذلك اضطراب الأمر في القارات الأخرى المتصلة بها . ويضيق المقام عن تتبع الدوافع والأسباب التي جعلت آسياترسل جموعها وأفواجها للعظيمة في الاتجاهات المختلفة (٤) . ولكن يكفي أن نذكر أن وصول هذه الهجرات كان نذير الارتباك السياسي في الجهات التي وصلت إليها : إذ كان على السكان الأصليين أن يهاجروا أو يخضعوا أو يندمجوا أو ينزروا في مناطق العزلة والالتجاء ، وكانت الحدود السياسية تبعاً لذلك كثيرة التغير والتبدل ، ويظهر ذلك بوضوح على طول امتداد الطرق الرئيسية التي سلكتها هذه الهجرات البشرية أو التي جاءت عن طريقها جيوش الغزاة وجحافل الفاتحين ، رعاة كانوا أو مستقرين .

وإذا كانت قارة إفريقية قد تأثرت في جزئها الشمالي بصفة خاصة نتيجة لهذا الارتباط منذ أقدم العصور فإن الصحراء الكبرى — التي تمتد عبر نصفها الشمالي ما بين سواحل المحيط الأطلسي غرباً وسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي شرقاً — قد وقفت حجر عثرة في سبيل توغل المؤثرات الآسيوية بصفة عامة إلى باقي القارة ، فإن شمال إفريقية المطل على البحر الأبيض المتوسط قد لمس بدوره التغير السريع في الحدود السياسية بين وحداته المختلفة ، ورأى إلى جانب ذلك الإمبراطوريات الكبيرة الفسيحة إبان عظمتها وفي أدوار ضعفها وتفككها .

أما باقى إفريقيا - وهو منطقة الزئوج مجدرة - فلم يتأثر كثيراً، إذ أن درجة الحضارة التى وصلت إليها جماعاته المختلفة لم تكن من الرق بحيث تظهر الاهتمام بالتحديد أبأ كان نوعه، لاسيما وأن حياتها الكثيرة الحركة من شأنها ألا تدع مجالاً للتفكير فى الوقوف عند خط معين، بل أنها تفضل أن تجوب وتمرح بدون تقييد لحركاتها أو تضيق على حرية انتقالها^(٧)؛ ولما جاءها الاستعمار الحديث وضع لها المستعمرون حدوداً أقرب ما تكون إلى الخطوط المستقيمة، "تتبع خطوط الطول والعرض لدرجة عظيمة، ولا يمكن تعليلها أو شرح الدوافع التى بعث بها سوى أنها تمثل صورة ما وصل إليه المستعمرون فيما بينهم. وقد وضعت هذه الخفوض فى المؤتمرات التى وكل إليها تنظيم أجزاء إفريقيا وتوزيعها بين هؤلاء الذين يهمهم الأمر، ومن الطبيعى أن تحصل الدول العظمى الأوربية على نصيب الأسد، وأن تكون الحدود السياسية محققة لهذا الغرض. ومن خير الأمثلة الحدود السياسية التى تفصل بين المستعمرات المختلفة فى شرق إفريقيا وعلى طول امتداد ساحل غانة^(٨).

ومثل ذلك يقال عن استراليا، تلك الجزيرة الكبيرة، فأنها لم تهتم كثيراً بالحدود السياسية بين أجزائها لأنها تمثل وحدة كبيرة متشابهة فى الجنس والحضارة واللغة وتعلق أجزائها فى حياتها السياسية برباط واحد هو اشتراكها فى مجموعة الأمم البريطانية، وكل ما هنالك من خطوط للفصل بين أجزائها قد اقتضاه أمر تنظيم الحكم والإدارة فيها، وليس الدافع إليه وجود حاجة ماسة أو رغبات متعارضة كما هى الحال فى القارات الأخرى.

كذلك ساعد الحظ أمريكا الشمالية لأنها انتهت من فترة اضطرابها بسبب المنافسات الاستعمارية فيها منذ عهد بعيد، وشاء حسن طالعها أن تنقسم إلى وحدتين كبيرتين هما كندا والولايات المتحدة، استقرت إحدهما فى الجزء الشمالى على حين وضعت الثانية يدها على معظم القسم الأوسط والجنوبى. وبعد أن انتهت الولايات المتحدة من مرحلة الحصول على استقلالها وتكوينها على صورتها الحالية كان حسن الجوار كفيلاً بقبول وضع خط سياسى فاصل بين الاثنين ويتبع فى مجلته درجة عرضية محدودة^(٩). أما فى الشمال الغربى فإن الحدود بين ألسكا وكندا، كان من السهل الوصول إلى

انفاق بشأنها بسبب قلة السكان من جهة ، وصالة جاذبيتها وقوة ظروفها الطبيعية من جهة أخرى .

أما آسيا ، وفيها نشأ الإنسان الأول وبلغت حضاراته ، ومنها خرجت الهجرات التي عمرت الأقاليم المتاخمة لها . فإن حالتها تختلف عن شقيقتها من القارات الأخرى ؛ إذ أن اتساع رقعتها ووجود مظاهر تضاريسية بارزة كان له أكبر الأثر في تيسير وجود خطوط فاصلة بين أجزائها الكبيرة ، بدليل أن الكتلة المغولية يكاد ينظم أمرها خلف الحاجز الجبلي العظيم الذي تمثله هضبة التبت من جهة وخط مرتفعات : پامير - تيان شان - التاي - يابلنوي - ستانفوي من جهة أخرى ، ويرتكز في قاعدته على ساحلها الشرقي . ومثل ذلك يقال عن الكتلة الهندية ، إذ لعبت الهيمالايا دورها كاملا غير منقوص في الفصل بينها وبين باقي القارة ، كذلك كانت حدودها الشمالية والغربية تمثلها خطوط مرتفعات پامير - سليان وامتداداتها . وهكذا كانت الهند في رقعتها وكأنها شبه منعزلة عن قارة آسيا ، ولم ترتبط مع جيرانها إلا قليلا طول تاريخها البشري الطويل ، بل أن هذا الاتصال المحدود قد رسمته الطبيعة وحددت وسائله بمثابة في المنافذ والممرات التي وهبتها الطبيعة ، ولهذا كله كان تعيين حدودها السياسية ميسورا . وقد رسمتها الطبيعة بشكل ظاهر واضح ؛ على حين نجد أن أواسط آسيا وسهولها الغربية الفسيحة المترامية تمثل حالة مختلفة تمام الاختلاف ؛ إذ أن سطحها المنبسط الذي يكاد يخلو من المظاهر التضاريسية البارزة قد جعل منها محيطا واسع الأرجاء تنتقل فيه الجماعات وفق نظم حياتها ، ومن ثم كان نهبا مشاعا لا تستقر فيه خطوط ، ولقد رأى هذا القسم من آسيا الأمبراطوريات الرعوية القوية التي أرسلت جيوشها الحربية وهجراتها السلية في مختلف العصور هنا وهناك^(١٠) ، وتركت هذه الغزوات وتلك الهجرات آثارها واضحة في الجهات المتاخمة لها في آسيا وإفريقية وأوربا ، بل يمكن القول إن هذه الحركات البشرية التي انبعثت من قلب آسيا الرعوي هي التي وضعت تاريخ الجهات المجاورة بصفة عامة ، وعلى أساسها قام تركيبها الجنسي وكان تكوينها الحضاري .

ولقد اختصت أوربا بقسط كبير من هذه الهجرات وتلك المؤثرات ، وتوالت

عليها المؤثرات الجنسية والحضارية ، وتركت هذه أثراً واضحاً في أجزائها الشرقية ، والوسطى ، والجنوبية الشرقية بصفة خاصة ، كما تأثرت بها الأجزاء الباقية في الشمال والغرب والجنوب بصفة عامة ؛ وليس من شك أن هذا يرجع إلى جغرافيتها الطبيعية : جبالها وسهولها تكاد تمتد بلا انقطاع في شقيقتها آسيا المجاورة ، والحد الطبيعي السياسي الذي يفصل بينها هي جبال أورال ، ومع ذلك فهذه لا تمتد من الشمال إلى الجنوب حتى شواطئ بحر قزوين ، فتكون بذلك حاجزاً طبيعياً يعرقل الاتصال بين القارتين ، بل هي تنتهي قبل أن تصل إلى شواطئ هذا البحر تاركة بينها وبينه أرضاً سهلة منبسطة ، وهي تمثل حلقة مهمة من حلقات اتصال الجهتين . وعلاوة على هذا فإن جبال أورال نفسها ليست بالحاجز الطبيعي الذي يصعب اختراقه ، وفيها كثير من الممرات التي تحدد ارتباط الجهات الواقعة على جانبيها .

لهذا كله كان ارتباط أوروبا بآسيا من الوجهة البشرية وثيقاً للغاية ؛ إذ أنها تدين لآسيا بسكانها ، ولا يزال عدد كبير حتى الوقت الحاضر يمكن اعتباره أسيوياً في معيشته وفي دياناته ولغاته ومدنيته ، ولم يفقد هذا الارتباط قوته في عصر من العصور التاريخية ؛ فقديماً أغار سكان آسيا على أوروبا واستوطنوا جهاتها المختلفة ، وقد استمر سيلهم يتدفق حتى كان عهد آخرهم ، وهم الأتراك العثمانيون .

على أن أوروبا قد بدأت بدورها تغير على جارتها : فقد خرج منها الاسكندر الأكبر وغزا غربها وأخضعه حتى وصل إلى الهند ، كذلك فعل الرومان من بعده ؛ ثم بدأت غزوات البرغاليين بعد كشفهم طريق رأس الرجاء الصالح ، وتبهم الفرنسيون والإنجليز والهولنديون .

وفي القرنين الماضيين خرج الروس من سهولهم في أوروبا واتجهوا نحو الشرق ، فامتد سلطانهم في سيبيريا ، وما زالوا في زحفهم حتى وصلوا إلى شواطئ المحيط الهادئ . على أن عصر الغزوات والفتوحات قد زال وأعقبه عصر الارتباطات التجارية والاستعمارية بين القارتين ، وهكذا تطورت العلاقة بين التابع والمتبوع ، فبعد أن كانت أوروبا تتلقى الغزو والفتح من آسيا ، أصبحت تنشر سلطانها وتهمين لدرجة كبيرة على مساحة كبيرة في آسيا ؛ غير أن أوروبا لم تتخلص بعد من نتائج هذا الارتباط

الوثيق وذلك الاتصال "عظيم" ، فجراؤها لشرقية والوسطى والجنوبية الشرقية قد تأثرت في تركيبها الجنسى وتكوينها الحضارى ، وتنظيمها اللغوى . وترتيبها الدينى بسبب ما نالها من جراء هذه تبعية ، وكان من الصيحي أن تنعكس هذه الصورة في الحياة "سياسية لهذه الأجزاء حيث "الكفاح الجنسى واللغوى والدينى والسياسى والاقتصادى قد بلغ أشده . وحيث أصبحت الحدود السياسية تبعاً لهذه القاعدة سريعة "الظهور . وسريعة الاختفاء في الوقت ذاته . وليس من شك أن تأخير ظهور روح القومية في هذه الأجزاء من "قارة الأوربية عن نضائها في الغرب أو الشمال الغربى إنما يرجع إلى آثار هذا الارتباط وإلى نتائج هذه الهجرات والغزوات ، ويضيق المقام عن تتبع العوامل الجغرافية التى أدت إلى هذا التأخير أو التى ساعدت على هذا التكبير بالنسبة لظهور روح "قومية في أجزاء "قارة مختلفة" (١) .

وقد تولدت الحركات "سياسية وتابعت الثورات الحرية نتيجة لهذه الظروف المتناثرة ، وترتب على ذلك تغيير خريطة أوروبا السياسية بسرعة فائقة ، وضاعف هذا الكفاح دخول العوامل الاقتصادية بعد أن نهضت القارة نهضتها الاقتصادية الصناعية العظيمة ، وهكذا دفعت القارة نمنا باهظاً ، سدها اضطراباتنا المتكررة ، ولحمته حروبها المتعددة . وقد تعددت طرق الكفاح وتنوعت أساليب الضرب والنزال ، وتجمعت وسائل التخريب والدمار حتى شملت مجموع نواحي النشاط البشرى في أرقى جهاتها بصفة خاصة ، ويكفى أن نذكر أن تاريخ القارة الحديث يمثل سلسلة متصلة الحلقات من الحروب والثورات ، كما كثرت المؤتمرات والمعاهدات والاتفاقات ، وكلها ترسم خرائط جديدة تبقى مدة ثم تختفى ليحل محلها غيرها .

وما يزيد الطين بله أن هذا التغيير والتبديل لا يقتصر أمره على القارة لحسب بل يتعداها إلى جهات كثيرة أخرى على سطح الكرة الأرضية ، وهذه تتأثر بها عن طريق غير مباشر ، بدليل أن الحروب المتجددة بين الفرنسيين والبريطانيين في أوروبا كانت تنعكس صورتها في ممتلكاتهما فيما وراء البحار ، كذلك شأن التغييرات التى كانت تترتب على اختفاء نفوذ دولة ما مثل هولند أو البرتغال . فقد كان صدق ذلك الاختفاء يردد في أمبراطوريتها الاستعمارية في جهات العالم الأخرى ، ومن خير الأمثلة الكفاح بين

مناطق النفوذ الأوربي في الهند ، ذلك الكفاح الذى قرر فى النهاية شكل الاستعمار غير البريطانى فى الهند فى صورته الحالية .

ولذا جاز لنا أن نقرر أن العوامل الاقتصادية قد أصبحت تقوم بالنصيب الأكبر فى دفع أوربا إلى هذه الحروب والكوارث آتياً بعد آخر (١٣) ، فإنها فى الوقت ذاته تظل تلعب دورها وتنفث سمومها ، وتنصب شبا كها حتى يكاد يخيل للتأخر ، بعد انتهاء حرب وبدة فترة سلم ، أن الحالة لم تتغير كثيراً ، وأن المسكون الذى أعقب الانفجار لم يكن سوى المنظر التالى من مناظر هذه المأساة التى تمثل على مسارح السياسة الأوربية والعالمية حتى الوقت الحاضر ؛ وفى كل حالة قد غاب ظن هؤلاء الذين كانوا يملكون النفس بأن مجرد ظهور فجر السلم سوف يبدد ظلة الحرب ، وأن ضوء السلم سوف ينير الطريق للعمل على إنحاض القارة من كبوتها وإقالتها من عثرتها ، وفى النهاية إلى تلطيف حدة شقاقها ، وتضميد جروحها (١٤) .

ولقد خرجت أوربا من الحرب العظمى الماضية بعد أن أصابها الطبع والتلف وشملها الدمار والخراب فى أجزاء كثيرة منها ، ولذلك كانت مجهودات إنحاض أوربا من كبوتها بطيئة ؛ إذ أن عملية الإنقاذ كانت متشعبة ومعقدة ولذا كانت خطواتها ثقيلة غير مطردة . ولقد تركت الحرب العظمى الماضية مساحات عظيمة من قارة أوربا قاعاً صافساً ، ولم تبق فيها ولم تدر ، حتى أصبحت القارة وكأنها على شفا جرف هار ، وكانت المجاعات تجتاح كثيراً من جهاتها ، على حين كان العوز والفقر يسودان جل ربوعها . ولقد ترتب على انتشار الجوع والفقر فى ربوع القارة ، التى أصابت منها الحرب مقتلاً ، تهديد الطريق لظهور الاضطراب والارتباك ، وغدت دول كثيرة قاب قوسين أو أدنى من الانهيار والاضمحلال ، وأنشبت الفوضى أظافرها فى دول وسط أوربا وشرقيها . ولقد ضاعف خطورة الحالة اضطراب الأفكار بسبب الانقلابات السياسية التى أعقبت الانتهاء من تلك الحرب نتيجة تصفية ثلاث امبراطوريات أعلن إفلاسها بعد خروجها مقهورة (١٥) ، وبدأت عناصر السكان المختلفة فى كل من ألمانيا والنمسا وتركيا تأخذ القانون فى يدها وتعمل بما تسوله لها إرادتها ورغبتها ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى التماحز الدموى بين العناصر الجنسية التى تتألف منها هذه القوميات ؛ ووقعت جهات كثيرة

من أوروبا الوسطى والشرقية والجنوبية الشرقية فريسة للحرب الداخلية وسفك الدماء، وكان "قارة" يكفها أن تحضر الملايين من المخارين . وأن تفقد بلايين الجنهات من المتاع بسبب هذه انجزرة "العظمى" التي ظلت سنوات تلتهم الأخضر واليابس، وتأثت على كل ما وصلت اليه يدها من تائج "نشاط البشرى" ومعالم الحضارة الراقية التي أقامها سكان هذه الأقاليم بعد مجهودات جبارة مدى قرون عديدة^(١٥) . وهكذا انفرط عقد الأمن والطمأنينة واضطرب جبل "سور" وتعذرت سبل الإنقاذ بسبب الاضطراب العام الذى ساد جميع نواحي "نشاط الاقتصادى القومى" ، وكادت التجارة وتعذرت المبادلة بعد أن تدهورت قيم العملة المتداولة وأصبحت أقطار متعددة من أوروبا بما يشبه الشلل فى نواحي حياتها المختلفة^(١٦) .

ومن الطبع أن يؤدي العمل على إعادة بناء صرح أوروبا من جديد إلى ظهور مشكلات التحديد بوضوح ، وفى الحق أن كثيراً من هذه المشكلات كان كامناً متأهياً للوثوب متى حانت الفرصة ، فثلا كانت العناصر الجنسية المختلفة فى أواسط القارة وشرقها دائمة المطالبة بوجوب إنقاذها ، كما كانت العناصر المحكومة فى الإمبراطوريات الثلاث التي تقرر تصفياتها وتسوية حسابها تئن وتشكو من أجل إطلاق سراحها ؛ ولكن إذا كان من المسلم به إيجابتها لما تطلب فألى أين تذهب هذه العناصر ، وفى أى اتجاه ؛ وهل يسمح له أن تبقى وتعيش لنفسها أو هل تضم إلى بعض جيرانها ؟ وهل يكتفى بمنحها شبه استقلال أو هل يسمح لها بنظام سياسى خاص بها ؟ وفى النهاية هل تكون النتيجة إخضاعها تحت علم جديد ؟ ويلوح أن لورد برايس Bryce قد أصاب حين قال « قد كانت رغبات العناصر الجنسية التي تكره حكماها السابقين وتطلب الاستقلال أو الانضمام إلى بنى جنسها أو أقرب الناس إليها ، أعقد مشاكل التحديد^(١٧) » ؛ ولكن يظهر أن تحقيق هذه الرغبات كان بعيد المثال ولم تجيء الحدود السياسية الموضوعة بما كانت تقيس به الخواطر من الأمانى : إذ أن العقبات التي واجهتها والسياسات الأوربية المتعارضة التي صورتها وشكلتها ، أبعدتها فى النهاية عن مقصدها ، وأخرجتها عن جميع القواعد والمبادئ التي ظن أنها جاءت لخدمتها وصيانتها^(١٨) .

ويمكن الباحث أن يتعقب أسباب هذا الفشل على الرغم من كونها كثيرة ومتعددة

ومختلفة، وتأتى فى مقدمة هذه الأسباب مشكلات الجنس واللغة وتوزيع موارد الثروة وطريقة تطبيق مبدأ تقرير المصير، الذى ولوائه ربما كان من أهم ماتوحى به الديمقراطية، إلا أنه فى الواقع كان سبباً فى التقسيم والتجزئة وترتب عليه ظهور كثير من الصعوبات فى طريق التفاهم السياسى وتعاون الثقافى والاقتصادى^(١٩)، وقد كان تطبيقه فى حالة وسط أوروبا^(٢٠) وشرقها كفيلاً بخلق متاعب وإثارة مشكلات كان يمكن تسويتها ومعالجتها بطرق أخرى أكثر ملائمة لظروف القارة وملاساتها^(٢١). وإذا عرفنا أنه يقل أن توجد قومية واحدة مناسبة قوية وغير مختلطة^(٢٢) بل يغلب على الكثير من القوميات أن يشمل ضمن نطاق حدوده أقليات أجنبية هامة ترجع أصلاً إلى قوميات أخرى، أصبح ممكناً الحكم بأن كثيراً من عنيات التخطيط السياسى - بسبب تطبيق هذا المبدأ - قد أضرت أوروبا بدلاً من إفادتها: إذ اتخذ الجنس أو اللغة أساساً فى بناء القوميات الجديدة المستقلة لا يمكن التسليم بصوابه ويتعذر تنفيذه بما يطابق العدالة، وكثيراً ما ترتب عليه فقط تغيير الحالة بانصاف فريق كان مظلوماً فى الماضى وظلم فريق فى الوقت الحاضر^(٢٣).

كذلك كانت مشكلة الحدود الخاصة بالدويلات الجديدة التى خلقت لخدمة غرض خاص، فقد ترتب عليها ظهور كثير من التسويات الأرضية التى يشوبها النقص ويبرز فيها الخطأ الواضح^(٢٤).

وما يزيد فى خطورة مشكلات التحديد السياسى عدم ترك الباب مفتوحاً لإصلاح ما قد يظهر من الخطأ فى التحديد، والواجب يقضى باعتبار الحدود السياسية الجديدة مجرد إجراءات مؤقتة وغير دائمة، وأن مصيرها يتوقف على الظروف والملاسات الاقتصادية والاجتماعية بدلاً من اعتبارها أموراً مقررة، ووضع القيود والصعوبات فى طريق تنفيذها ومراجعتها حتى تصبح كل محاولة لتعديلها اختيارياً عملية متعذرة أو شبه مستحيلة. وليس من العسير مناقشة مثل هذا الخطأ الظاهر، ويكفى الناقد أن يذكر أن الحدود القومية السياسية لم يمكن ولن يمكن الاعتراف بأنها يجب أن تظل ثابتة وباقية: إذ لم تكن مثل هذه الحدود يوماً ما غير قابلة للتحويل والتغيير، وإن تأرجح وسط أوروبا وشرقها وجنوبها الشرقى يعطى الباحث أمثلة عديدة لحدود القوميات المضطربة، وكيف تغيرت وتعدلت

في مختلف العصور وفق الحوادث التاريخية الهامة التي أثرت فيها ، وحتى في حالة غرب أوروبا كانت حدود فرنسا أيام ملكية لويس الرابع عشر مثلاً تختلف عنها أيام الثورة أو في عهد الإمبراطورية الأولى ، أو عقب مؤتمر فينا ، أو بعد حرب السبعين . وهكذا يؤدي التعلق بالحدود الموضوع في فترة ما إلى انتشار موجة الاضطراب وعدم الاستقرار بسبب الجشع الطبيعي ، وهنا تظهر النفوس البشرية على حقيقتها وتتكشف غريزتها التي جبلت على حب الملكية سواء في ذلك حقها أو ما ليس من حقها ، حتى أصبح تملك الأرض من أهم ما شغل الفكر البشري منذ أقدم العصور .

وليس من شك أن تقرير الحدود السياسية الجديدة يجب أن يسير وفق القواعد الأساسية التي يتحتم العمل بمقتضاها أثناء تخطيط حدود القوميات المختلفة . ونخص بالذكر عامل الأرض وعامل السكان وكلاهما لا يقل في الأهمية عن الآخر^(٥) . والواقع أن المثل الأعلى للحد الطبيعي يجب أن يكون في الوقت نفسه جغرافياً في مظهره وكاملاً من حيث كونه فاصلاً جنسياً ، ولكن لسوء الحظ يندر وجود مثل هذه الحدود ويحدث أن تشكل الحدود وتعمد بسبب العوامل الجغرافية والاعتبارات القومية والقيمة النسبية والميول البشرية والأهمية الحرية والرغبة الجنسية والفروق اللغوية ودرجة التقدم الحضاري وغير ذلك من المتناقضات^(٦) .

وعلى هذا الأساس كانت خرائط أوروبا السياسية المتعاقبة وهي عبارة عن خليط من الحدود الجيدة والردئية : أما الحدود الجيدة وهي أقلية ضئيلة فقد وضعتها الطبيعة بنفسها ولم يتدخل الإنسان في رسمها وتقريرها ، على حين كانت الأغلبية الساحقة من النوع الرديء الذي صنعه الإنسان ولم يتقن صنعه لغرض في نفسه : فمثلاً في حالة شبه جزيرة أيبيريا وإيطاليا والجزائر البريطانية وشبه جزيرة اسكندناوه قامت الجغرافية بمهمتها وأعطت خطوطاً من التضاريس الصالحة لقيام حدود طبيعية لدرجة عظيمة ، ولقد أقام التاريخ البرهان على أنها حدود قومية منيعة .

على أنه يظهر العكس في جميع الحالات التي لا تتوافر فيها هذه الحدود الطبيعية ، وخير مثال لذلك الحدود بين فرنسا وألمانيا ، وحدود بلجيكا وهولندا وحدود دول أواسط أوروبا وشرقها وفي النهاية حدود الدول البلقانية . في جميع هذه الحالات

السابقة لم تتدخل العوامل الجغرافية الطبيعية في تقرير مواضع خطوط الحدود، بل قامت الحدود الجديدة على أسس صناعية واعتمدت في حالات كثيرة على قواعد تاريخية بحثة ترجع الى عصور خاصة في تاريخها منذ عدة قرون (٢٧). وقد أثبتت التجارب فيما يتعلق بأوروبا أن أفضل الحدود الطبيعية بعد البحر هي الجبال العالية ولهذا كانت البرانس حداً طبيعياً مانداً، ومثل هذا يقال عن الكربات والآب إذ أن الجبال بسبب ارتفاعها تكون حاجزاً مانعاً يقسم الناس الى شطرين وتحولهم الى جهتين متضادتين على الرغم من التقدم العلمى الحديث، كما أثبتت الجبال بما لا يترك مجالاً للشك قيمتها الحربية.

هذا ويرى الباحث في خريطة أوروبا بطريقة خاصة شيوع ظاهرة استخدام الأنهار في تخطيط الحدود. وهنا موضع الخطأ إذ الأنهار بطبيعتها تدعو الى الربط والوصل وبقل أن تتجص في الفصل (٢٨). وليس معنى هذا أنها لا تصلح بنائاً لهذا الغرض، إذ كيف تنكر أهميتها الحربية؟ ويلوح أن هذا هو سبب استعمال الطونة والرين وغيرها من الأنهار في تخطيط الحدود السياسية، ويضاف الى ذلك أن نسبة عالية من الحدود السياسية، لا تقوم على الجبال أو الأنهار وإنما تعتمد على بعض مظاهر التضاريس القليلة الأهمية أو يكون أساسها اعتبار نقط الدفاع أو طرق المواصلات. وقد لعبت طرق المواصلات دوراً هاماً في تعديل الحدود وتشكيلها، وكثيراً ما وضعت الحدود لخدمة غرض خاص بتوفير سبل الاتصال بالبحار سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر. كما أن ظاهرة دولية الأنهار وحرية الموانئ ترجع أصلاً إلى مشكلة طرق المواصلات وخاصة في حياة وسط أوروبا (٢٩). وقد ظلم واضعوا الحدود السياسية الجديدة أنفسهم كثيراً وحملوا خريطة أوروبا السياسية عبثاً ثقلاً حين أوجدوا الدول الجديدة بمحدودها التي رسموها. وفي كثير من الأحيان تقطع هذه الحدود السياسية الصناعية الخطوط الحديدية والبرية التي تجرى في الطرق الجغرافية الطبيعية، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة، وتظهر بصفة خاصة في حالة حدود دول وسط أوروبا وشبه جزيرة البلقان.

ويضاف الى هذا كله عامل التدخل في شئون بعض العوامل الجغرافية الهامة مثل موارد الثروة الطبيعية في الأقاليم المختلفة والاجتهاد في توزيعها لخدمة أغراض خاصة. والواقع أن تقسيم الأرض الخصبة وغير الخصبة وتوزيع موارد الثروة المعدنية بقصد

إرضاء مطالب الدول الجديدة لا يمكن تبريره تبريراً عادلاً مقبولاً. وليس من شك أن مسائل الفحم والحديد كانت بصفة خاصة عاملاً عظيم الأثر في تخطيط حدود أوروبا الجديدة، وقد ظهر ذلك بوضوح في حالة تخطيط حدود مناطق الفحم في سيليزيا العليا وتشن Teschen ولينز ولسار ومناطق الحديد في بري Briey ومناطق البوتاس في الأكراس العليا ومناطق الزئبق في كارنيولا. ويلوح أن التاريخ هنا يعيد نفسه ولكن على نطاق أوسع، وبصورة أعم وأكبر، ذلك لأن حدود أوروبا الجديدة، عقب انتهاء الحرب "عظمى الماضي، تمثل نفس الأخطاء التي ظهرت في الحدود التي جاءت نتيجة مؤتمر فينا ١٨١٤ - ١٨١٥ وكذلك تلك التي جاءت عقب حرب السبعين، لأنها تتشابه في تأثيرها الشديد باعتبارات توزيع موارد الثروة الطبيعية الهامة، ولكن يلوح أن حدوث خطأ في الماضي لا يبرر ارتكاب خطأ مثله في الوقت الحاضر. وقد برهنت الحوادث على ضرر مثل هذا العمل لأنه يحمل بين ثناياه بذور الاضطراب وعدم الاستقرار، ويؤدي في النهاية إلى الشجار والكفاح عندما تسنح أول فرصة مناسبة، وعلى ذلك يجب الاتعاظ بنتائج الماضي حتى لا تكرر المأساة ويعيد تاريخ أوروبا المضطرب نفسه^(٣٠).

هكذا خرجت خريطة أوروبا الجديدة بحدودها الصناعية للفصل بين دولها القديمة وقومياتها المبعوثة الحديثة نتيجة تطبيق مبدأ تقرير المصير أو اتخاذ أساس لغوى أو جنسى حجة لمحقها كيائها واستقلالها. ومن الطبيعي أن يؤدي خلق مثل هذه القوميات المستقلة إلى ظهور كثير من المشكلات وخاصة في وسط أوروبا حيث تختلط الأجناس واللغات والحضارات ويتندر أويستحل العزل بينها. وقد زاد في هذه الصعوبات، وساعد على تعقد الحالة لدرجة عظيمة، أن القوميات التي نشأت عن طريق تطبيق هذا المبدأ، ورسمت حدودها تبعاً للاعتبارات السالف ذكرها، أصبحت بمجآلتها الراهنة وفي ظل حدودها الموضوعية الحديثة تضم عدداً من الأقليات على كل حد من حدودها^(٣١)، الأمر الذي يجعل استقلالها مهدداً دائماً. وقد أظهرت الأيام القرية الماضية صدق هذا القول وتغيرت معالم الخريطة الجديدة في أجزاء من وسط القارة وشرقها بعد أن نجحت بعض الدول في ضم أقلياتها المجاورة إليها.

هذا ويلحظ أن الاحصاءات التي اتخذت أساساً في تحديد مواطن القوميات

المختلفة، كانت في كثير من الأحيان قابلة للنقاشه كما كان بعضها مشكوكا في صحته؛ فثلا في بعض الحالات كان الاعتماد على احصاءات قديمة نسبياً كما كان الحال في تخطيط حدود دول امبراطورية النمسا والمجر، وفي حالات أخرى وضعت الحدود على أساس إحصاءات أوائل هذا القرن أو أواخر القرن الماضي. وفي حالة بولندا وتشيكوسلوفاكيا كان الاعتماد على مزاعم تاريخية ترجع إلى عصور خاصة في تاريخها منذ عدة قرون. ولما كانت هذه الاحصاءات في مجملها تعنى بتوضيح تعداد التوزيع اللغوى، فقد ترتب على ذلك أن أصبح الأساس اللغوى أهم القواعد بعد أن استحال اتخاذ التوزيع الجغنى أساساً لخريطة أوروبا الجديدة^(٣٢). ويمكن الاعتراض بسهولة على مثل هذا العمل، لأن التوزيع اللغوى كثيراً ما يختلف مع العاطفة القومية أو السياسية كما ظهر ذلك في استفتاء اللشتين ومريشرد على حدود بروسيا الشرقية، على عكس ما كان ينتظره البولنديون^(٣٣). ومثل ذلك يقال عن تصويت عناصر بولندية للبقاء في سيليزيا العليا الألمانية. وقد لجأ واضعو الحدود في بعض الحالات إلى تقرير مبدأ الاستفتاء، ولكن مع الاعتراف بصواب هذا العمل من الناحية القانونية والديمقراطية، إلا أنه من الناحية الشكلية الواقعية، لم يأت بالنتيجة العادلة المنتظرة، وكثيراً ما حدث الاستفتاء تحت الضغط والتهديد واستعملت فيه وسائل غير مشروعة، وفي حالات متعددة لم تحترم نتائج الاستفتاء كما حدث في سيليزيا العليا وشلزفج ووضعت الحدود الجديدة على أساس اعتبارات أخرى مغايرة لما جاء به الاستفتاء ونخص بالذكر الاعتبارات الاقتصادية والحرية^(٣٤).

هذه حالة خريطة أوروبا السياسية التي جاءت بها معاهدة فرساي وليس من شك أن إضافة عدد من الدول الجديدة الناشئة التي لم يكن لها وجود قبل الحرب العظمى الماضية كان معناه ازدياد أطوال الحدود، وكلما تضاعفت أطوال الحدود السياسية كثرت فرص الاحتكاك وعظم احتمال ظهور المشكلات، التي قد يترتب عليها تكبير صفو السلم. ويزيد في خطورة هذا الوضع كون نسبة كبيرة من الحدود السياسية الأوروبية غير طبيعية بل ولا يمكن اعتبارها بحق حدوداً واضحة فاصلة مانعة وجلبها من عمل الإنسان وتعتمد على مظاهر غير ثابتة وغير مقررّة أو مقبولة.

أما ما يتعلق بتفصيل حد سياسي عام على آخر فأمر قد اختلف بشأنه الباحثون وكثير من نقاش حوله وتعارضت الآراء بصدده؛ فمثلا يذهب هولدتش إلى تفصيل الحد السياسي الذي يمثل ظاهرة جغرافية طبيعية، ويعتبر أن أفضل الحدود السياسية ما كان يمثل منطقة قليلة السكان أو شبه خالية من السكان، ويضرب مثلا لذلك الأقاليم الجبلية المرتفعة التي ثبت بالتجربة أنها تعطي حدوداً سياسية جيدة كما هي حالة الحد الفاصل بين السويد والنرويج، ويكنى دليلاً على جودته أن أقل من ٥ ٪ من تجارة الجارتين يعبر هذا الطريق الوعر (٢٥). كذلك حالة الصحراوات الجرداء التي تكون في العادة خالية أو شبه خالية من السكان، فهذه بسبب فقرها وقلة جاذبيتها وتمذر اختراقها وصعوبة الحياة في ربوعها يمكن أن تعطي نوعاً من الحدود السياسية الجيدة في جميع الجهات التي تمثل فيها. ويؤكد يتفق الباحثون على أن مناطق الجبال العالية الوعرة، حيث تقف صعوبة التضاريس حائلاً دون تيسير عبورها ويؤثر مناخها البارد في تقليل مجهود الإنسان بصفة عامة وتحديد فترة إمكان عبورها بصفة خاصة، تمثل أكثر الحدود السياسية مناعة وأفضلها للقيام بالفرض المقصود منها.

أما مناطق المستنقعات الفسيحة فقد كثر اتخاذها في الماضي للفصل بين الوحدات السياسية ولكن يلوح أن شأنها قد فقد الكثير من أهميته لأن الإنسان قد نجح في كثير من مناطقها في تخفيفها وبالتالي قد أمكنه التغلب على مبررات استعمالها، ونقص صعوبة عبورها، وقلة سكانها، وعدم جاذبيتها، ومن ثم أصبحت صلاحيتها للاستعمال في هذا السبيل محدودة للغاية. ولم تمنع مستنقعات برمت ونكس الاتصال والاحتكاك بين روسيا وبولندا على الرغم من عظم مساحتها واتساع نطاقها.

وإذا كانت المستنقعات قد لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الماضي، إذ كان يرهبها الإنسان فيأعد بينه وبينها، كما حدث لقدماء المصريين الذين أدى بهم وجلهم من مستنقعات شمال الدلتا إلى الابتعاد عن شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وحرمانهم من أن يألفوا هذا البحر أو يتعلقوا بركوبه، وأن يتأثروا في حياتهم بوقوعهم عليه، بدليل إن إنشاء الاسكندرية مثلاً قد جاء على يد أقوام وفدوا إلى مصر من الخارج. ومع ذلك فإن المصريين القدماء قد نجحوا بالتدرج في تذليل هذه العقبة عن طريق تقديم حضارتهم

وتطور مقدرتهم ، وبدأت صلتهم بسواحلهم الشمالية تقوى وتعظم تبعاً لذلك . كذلك حال إفريقيا المدارية والاستوائية التي عملت مستنقعاتها الساحلية على حجبها عن الأنظار وحمايتها من الرواد مدة طويلة ، غير أنها خضعت في النهاية حين نجح الإنسان في التغلب عليها بتجفيف بعضها أو كلها ليسهل عليه اختراقها وساعده تقدمه العلم على أن يعيش في كنفها أو ياتقرب منها دون أن تقضى عليه أخطارها أو تودى به أوبئها وأمراضها المتروكة فيها .

وقد كانت الغابات الطبيعية شائعة الاستعمال في التحديد السياسي ، وكان الإنسان في هجراته المتعاقبة وانتقالاته المستمرة يعتمد عنها ويفضل عليها الأرض المكتسوقة ، غير أن تقدم حضارته قد عمل على تسهيل مهمة اختراقها وبذلك فقدت صلاحيتها لهذا الغرض ، ولو أنها ما زالت من الناحية الحرية تمثل عقبة ذات قيمة لا تنكر . ولما كانت الغابات في العادة تمثل جهات قليلة السكان ، فقد كان هذا العامل من أهم ما كان يبرر صلاحيتها لأن تقوم كحدسياسي . ولكن التقدم العظيم في سبل المواصلات الحديثة وخاصة في ناحيتي السكك الحديدية والطرق المعبدة قلل كثيراً من درجة صلاحيتها ، اللهم إلا في حالات محدودة ، فمثلاً مازالت الغابات التي يسكنها ذباب تسي تسي في أواسط أفريقية قادرة على منع غزوات الرعاة ، وقائمة بوظيفتها على الوجه المرضي . وليس من شك أن أهميتها ترجع في الواقع إلى وجود هذا الذباب ، وهو عدو الحيوان أولاً والإنسان ثانياً ، أكثر منها إلى أي عامل يتصل بحياتها ، وأشجارها ، وكثافتها ، وظلتها أو وحشيتها ، كما كان حالها في الماضي .

ولقد كان شأن المحيطات العظيمة والبحار الفسيحة كبيراً في هذه الناحية بدليل أن المحيط الأطلسي قد نجح في حجب العالم الجديد عن أنظار العالم القديم مدة طويلة ، كما نجحت البحار الشمالية الباردة والمتجمدة في حجب معالم مناطقها بسبب صعوبة ملاحتها وقسوة مناخها ، ولكن التقدم العلمي قد قلل من أهميتها بعد أن ذلَّ صعاها ويسر ركوبها .

أما ليد Lyde فيذهب في تفضيل مجارى الأنهار كحدود سياسية فاصلة إلى أبعد حد (٣٦) . غير أن هذا الرأي لم يلق قبولا كثيراً ، ذلك لأن النهر لا يصلح بطبيعته للقيام بهذه المهمة إذ وظيفته الرئيسية وصل المناطق بعضها ببعض الآخر والعمل على إيجاد

مصلحة مشتركة بين أجزاء حوضه . ويضاف إلى ذلك أن أودية الأنهار تجتنب إليها عادة قدرا كبيرا من السكان بسبب انبساط السطح وخصوبة التربة وإمكان قيام الزراعة والانتفاع بالنهر كطريق للواصلات ، وكل هذه العوامل تجعل من النهر أداة للوصل أكثر منه حاجزا للفصل . وتجعل الإشارة إلى أن مجارى بعض الأنهار قد استخدمت بنجاح في عملية التحديد السياسى ، كما هى الحال في منطقة خائق كلورادو حيث يصبح مجرى النهر حداً سياسياً متبعاً لمسافة تزيد على ٥٠٠ كيلومتر بين الولايات المتحدة والمكسيك ، وكذلك حال خائق برهميترا ، بيد أن الفضل في هذه الأهمية لا يرجع أصلاً إلى مجرى النهر ذاته بل إلى طبيعة تضاريس هذه المنطقة وبميزات سطحها الوعر (٣٧).

ويمكن القول بصفة عامة إن اتخاذ الأنهار في التحديد السياسى لا يمكن أن يؤدي إلى النتيجة المرجوة ، ويؤيد ذلك ما جاء على لسان ناپليون حين سئل عن أفضل الحدود السياسية الطبيعية ، وكان الجواب أنه يفضل أولاً المتسع المائى العظيم ثم الصحراء الجرداء الشاسعة ثم الجبال العالية الوعرة ثم الأنهار وهكذا يجرى ذكر النهر في نهاية القائمة . وفى الحق توجد أنهار قليلة جداً في العالم جميعه تفصل بنجاح بين مواطن اللغات أو الديانات أو الحضارات بصفة عامة ، بل إن المنافع التى يمكن الحصول عليها من النهر قد تكون من أقوى الدوافع لظهور المشكلات وإثارة الحزازات والشكايات . وإذا أضفنا إلى هذا كله أن كثيراً من الأنهار لا يستقر مجراها على حالة واحدة ، ونخص بالذكر الأنهار التى وصلت إلى مرحلة الشيخوخة في مجراها جميعه أو في أجزاء منه ، ولهذا تكثر من الانحناء والانشاء والتعرج وكثيراً ما يهجر النهر مجراه مفضلاً عليه مجرى جديدا .

وهناك أمثلة عديدة نذكر منها على سبيل المثال تغيير مجرى هونج هو الأدنى في الصين الشمالية والتغييرات الكثيرة المستمرة في المجارى السفلى للرين والطونة والنيجر والنيل والكنج والميسيسي ومرى ودارلنغ وغيرها على الرغم من الجهود العظيمة التى تبذل للإشراف عليها والتحكم في نظام جريانها .

هذه الصعوبات جعلت مشكلة التحديد السياسى خطيرة ومعقدة ويزيد في هذا التعقيد ظهور عوامل جديدة ناشئة عن تطبيق مبدأ تقرير المصير وحق الشعوب

والقوميات في أن تحيا الحياة التي تختارها لنفسها . ولكن السيل إلى الفصل بينها مازال شائكا والوصول بمشكلات التحديد السياسى إلى حل يقبله الجميع ما زال في كفة القدر . غير أن بادرة ناجحة قد ظهرت في الآفاق ونقصد بذلك تجربة تبادل السكان التي أدى استخدامها فيما بين تركيا واليونان ، عقب معاهدة لوزان ^(٢٨) سنة ١٩٢٣ ، إلى نتيجة خير ما توصف به أنها مرضية لأنها أوجدت تقليداً جديداً وانتجت توجيهاً حديثاً بين الدولتين وأقامت جواً من الاتفاق والتفاهم يفضل بكثير أعظم الحدود السياسية مناعة وأجلها خطراً وشأناً .

المراجع

1. Fawcett. C.B. "Frontiers, a Study", Oxford 1918. pp 92—93.
2. Lord Curson "Frontiers" 2nded. Oxford pp 2—8 etc.
3. Sir T.H. Holditch "Frontiers etc" Geog. Journal Feb. 1916.
4. Jones. C.F. "South America" London 1931 pp 163—136 & 704 etc.
5. Huntington E. "The Pulse of Asia, 1908" pp 380—384.
6. Haddon, A.C. "The Wanderings of Peoples" Cambridge u. Press. 1927 pp 2—10 & 14—16.
7. Sir H. Johnston "The opening up of Africa" London pp 81—37 & 120—124 etc.
8. Alexander B. "From the Niger to the Nile" London pp. 3—9 etc.
9. Lord Curson Ibid pp 50—52.
10. Semple "The influences of geographic environment" Lond on 1911 pp 481—483 etc.
11. Ripley W. Z. "The races of Europe" 1900 pp 12—34 etc.
12. Pringle W.H. "Economic problems in Europe today" 1928 pp 4—8 & 17 etc.
13. (a) Chisholm "The healing of nations" London 1925 pp. 14—30 etc.
(b) Zimmern "Europe in convalescence" 1922 pp 3—10 & 14—16 etc.
14. (a) Alexander H.G. "The revival of Europe etc." 1924 pp 5—9 etc.
(b) Dalton H. "Toward the peace of nations etc." 1928 pp 13—21 etc.
15. Maurice Sir F. "How the war was fought & won". Eventful Years vol. I p 268.
16. Bowman I. "The New Word" 1926 pp 3 & 189 & 224 & 394.
17. Haskins & Lord "Problems of the peace Conference" 1921 pp 2—6 etc.
18. Lansing "Peace negotiations" pp 217—218 & 234—237 & 278 etc.
19. Haskins & Lord "Ibid" pp 3—9 etc.
20. Butler "The frontiers of Central Europe & their defence" Geog. Teacher 1912 pp 251—253.
21. Czaplicka "Problems of Eastern Europe" Geog. J. 1919 vol. II pp 249—257.
22. Hinks A. R. "Boundary delimitation in the Versailles treaty" Geog. J. 1919 vol II. p. 103 etc.
23. Nevil Forbes "Language & Nationality in Europe". Geog. J. 1917 vol. I. pp 448—453.
24. Hinks A.R. "Ibid" pp 103—105.
25. Brigham "Principles in the delimitation of frontiers" Geog. R. 1919. pp 8—17.

26. (a) Haskins & Lord "Ibid" pp 6—15.
- (b) Dominian "Frontiers of language & nationality" New York 1917 pp 8—16 etc.
- (c) New Begin "Race & Nationality" Geog. J. 1917. vol. L. pp 313—317.
27. (a) Dyboski "The deliverence & reunion of Poland" Eventful years vol. II p 200.
- (b) Eisenmann "La nouvelle Hongrie" Annales de Geog. 1920 pp 321—333.
- (c) Hinks A.R. "The boundaries of Czechoslovakia" Geog. 1919 vol. II p 185.
28. Levanville Jacques "The economic function of the Rhine" Geog. R. 1926 vol. 16 pp 242—250.
29. Lyde L.W. "The international rivers of Europe" Geog. J. 1919 vol II. pp. 303—306.
30. (a) Sarolea C. "Europe & the League of Nations" London 1919 pp 102—103.
- (b) Fisher H. "A History of Europe" London 1930 pp 1169—1170.
31. (a) Wallis P.C. "Distribution of nationalities in Hungary" Geog. J. 1916.
- (b) Keynes J.H. "The new Statesman" 26 march, 1938.
32. Meillet A. "Les langues dans l'Europe Nouvelle" Paris 1918 pp 2—13 etc.
33. (a) Dauson "Germany undertreat," London 1931 p 378.
- (b) Boswell "Poland & the Poles" London pp 73—87.
34. (a) Jones L. "Plebiscites" in Grotius Society 1927 vol. B. pp 165—186.
- (b) Keynes "Economic consequences of the peace" London pp 264—266.
35. Fawcett C.B. Ibid. pp 32—33,
36. Lyde "Some frontiers of tomorrow, an aspiration for Europe". 1915. pp 6—14 etc
37. New Begin "The geographical treatment of rivers" Scottish Geog magazine Feb 1916.
38. Morgenthau "An international drama" London pp 269—278.

محمد عبد الحميد الشراوى

الخزف الفاطمي ذو البريق المعدني

في مجموعة الدكتور علي ابراهيم باشا

بقلم

جمال محمد محرز

يقتني الدكتور علي ابراهيم باشا مجموعة ثمينة من الخزف الاثرية الاسلامية قل أن تنافسها مجموعة أخرى في العالم . ولا ريب في أن كثيراً من المتاحف تقبضه على هذه المجموعة الرائعة لاسي ما تضمه من سجاد نادر وخزف إيراني جميل .

على أن الذي يعنينا هنا من تلك المجموعة إنما هو ما تضمه من الاواني الخزفية ذات البريق المعدني التي لا يكاد ينافسه في الفخـر مثـلها إلا بعض المتاحف الأوربية والـإيرانية وبعض الغربيين وتجار المعاديات الشرقية من الأرمن والمقيمين في أوروبا وأمريكا ممن انصرفوا الى جمع هذه الخزف الثمينة منذ زمان طويل ،^(١)

ولقد تفضل معاليه فأهدى إلى متحف معهد الآثار الإسلامية بكلية الآداب بجامعة قواد الأول مجموعة عظيمة من الخزف الإسلامية بينها قطع كثيرة من الخزف ذي البريق المعدني^(٢) .

والمعروف ان مجموعة علي باشا ابراهيم تضم عدداً وافراً من الاواني الخزفية التي صنعت بمصر في العصر الفاطمي والتي تشهد بما أصابه الخزفيون في ذلك العصر من توفيق في انتاج الخزف ذي البريق المعدني .

ويعتبر هذا الضرب من الخزف من مفاخر صناعة الخزف الإسلامية ، لاسيما وأن الصين الذائعة الصيت في صناعة الخزف لم تعرف هذه الصناعة ، وأن صناع الخزف الغربيين لم يفلحوا في تقليد الخزف ذي البريق المعدني إلا في القرن ١٨ م^(٣) وما هو جدير بالذكر أن العثور على هذا الخزف في أي بلد من البلدان الأوربية

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الدكتور علي باشا ابراهيم وهواية الآثار الإسلامية (مجلة الثقافة عدد ٩٤ ص ٢٣) .

(٢) تقرير كلية الآداب عن العاملين الدراسيين ١٩٤٢—١٩٤٣، ١٩٤٤—١٩٤٥ ص ١٣ و ٣٥

(٣) A Survey of Persian Art ج ٢ ص ١٤٩٠ .

دليل على أن العلاقات كانت قائمة بينها وبين الاقطار الاسلامية^(١)

ويظن ان المسلمين كانوا يتخذون الخزف ذا البريق المعدني بدلا من الأواني الذهبية التي حرم الاسلام استعمالها^(٢) لما له من بريق يعادل بريق الأواني الذهبية، وتكتسب القطعة الخزفية هذا البريق المعدني باستخدام أملاح معدنية كالححاس والحديد مثلا^(٣) لرسم الموضوعات الزخرفية فوق الطبقة الزجاجية التي يطلّى بها الفخار لتمنعه من امتصاص الألوان ولهذا تدخل القطعة الخزفية القرن ثلاث مرات^(٤) : الأولى لأكساب الطلي صلابة والثانية لتثبيت الزجاج فوق الفخار والثالثة لتثبيت المعدن اذ أن الأملاح تتحول باتحادها بالدخان المتصاعد من النار إلى طبقة رقيقة من المعدن^(٥) فوق الطبقة الزجاجية التي يغلب عليها اللون الأبيض^(٦) والتي تكون معتمة في أكثر الأحيان نتيجة اضافة القصدير الى المادة الزجاجية كما قد تكون شفافة اذا ما أضيف الرصاص.

ويكاد يكون اللون الذهبي هو الشائع والمشارك بين الأقطار المختلفة مع تفاوت في

(١) Riefstahl : The Parish-Watson Collection of Mohammedan Potteries pIX.

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الايرانية ص ١٦٩ . وانظر أيضا صحيح البخارى ومسلم باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة في الشراب وغيره على الرجال والنساء .

(٣) يضيف الأستاذ هوبسون Hobson الفضة الى مجموعة المعادن التي تستخدم في الحصول على البريق المعدني (ص ١٦٩٨ من A Survey of Persian Art) في حين أن الأستاذ بوب لا يرى أن الفضة (ص ١٤٨٨ من المرجع السابق) ، وتوجد إشارة أخرى الى استعمال الفضة بين هذه المعادن في Aly Bey Bahgat et Felix Massoul : La Céramique Musulmane de L'Egypte. ص ١٩ .

(٤) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الايرانية ص ١٧٠—١٧١ ويذكر الأستاذان بوب وديماند أن عملية البريق المعدني تحتاج الى عملية احراق الأولى خاصة بتثبيت الطبقة الزجاجية والثانية لتثبيت الأملاح المعدنية وهذا لا يتعارض مع ما ذكره إذ أن القطعة تحرق قبل طلائها بالزجاج، انظر A Survey of Persian Art ج ٢ ص ١٤٨٨، ١٦٩٨ Dimand: Loan Exhibition of Ceramic Art of the Near East XIV ص

(٥) ديماند : المصدر السابق ص XIV.

(٦) يوجد أيضا لون أبيض ضارب الى الزرقاء ولون أبيض ضارب الى الخضرة . انظر الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٩؛ Dimand: A Handbook of Mohammedan Decorative Art ص ١٦٩ .

الدرجة (١) ونجده أحياناً أصفراً ضارباً الى الخضرة وأحياناً أخرى أحمر نحاسياً كما نجد ألواناً أخرى كالأسمر والزيتوني والقرمزي . ولكل قطر ألوانه المحيية اليه ، ففي إيران نجد الذهبي والقرمزي والأحمر والأصفر والأسمر والزيتوني (٢) وفي مصر في العصر الطولوني الأصفر والزيتوني (٣) وفي العهد الفاطمي الذهبي والأحمر والأسمر (٤) . وللخزف الأندلسي المتأخر (١٤ - ١٦ م) بريقه الذهبي الذي لا تخطئه العين . وقد يكون البريق المعدني في التحفة من لون واحد أو متعدد الألوان .

ولقد انتشر الخزف ذو البريق المعدني في أنحاء العالم الاسلامي إذ عثر في الحفائر على تحف منه في إيران والعراق ومصر وأسبانيا (٥) . وأدى هذا الانتشار إلى انقسام علماء الآثار الاسلامية فيما بينهم بخصوص مذهب هذا الأسلوب الصناعي ؛ فيرى بعضهم ولاسيما علماء المدرسة الفرنسية من مؤرخي الفنون الاسلامية أن إيران هي المهد (٦) ومنها انتشر إلى باقي أجزاء الامبراطورية الاسلامية وقد تبهم أخيراً في هذا الرأي القائمون على إخراج موسوعة الفن الإيراني (٧) (A Survey of Persian Art) . بينما يذهب علماء الآثار الاسلامية من الألمان إلى أن العراق هي الموطن الأصلي ، ولأن هناك اختلافاً بين الدكتور كونل (Kühnel) والدكتور زره (Sarre) حول مركز هذه الصناعة فيعتقد الأول أن بغداد هي المركز الفني بينما يقول الثاني أن ذلك المركز كان سامرا . ويتفق كثير من علماء

(١) انظر اللوحات المونة الخزف الاسلامي للنشورة في Koechlin & Migeon : Islamische Kunstwerke ولا سيما لوحة ٦٢١ للإيراني ولوحة ٣ لطرانسامرا ولوحة ٧ للفاطمي ولوحة ٥٠ — ٥٢ للأندلسي .

(٢) A Survey of Persian Art ج ٢ ص ١٤٨٨ ، الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية ص ١٧٠ .

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ص ١٠٢ .

(٤) الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥١ : Dimand : A Handbook of Mohamedan Decorative Arts ص ١٦٩ .

(٥) Riefstahl : المصدر السابق ص XI : Pérezard. La Céramique Archaïque de l'Islam : et Ses Origines ص ١٣٦ .

(٦) المصدر السابق ص ١٣٥ .

(٧) A Survey of Persian Art ج ٢ ص ١٤١٣ — ١٤٩٤ .

الآثار الإسلامية في الوقت الحاضر مع الدكتور كوتل ويقرونه على رأيه^(١)
أما عن مصر فلا يوافق علماء الآثار الدكتور بتلر فيما ذهب إليه من أن مصر قد
أخذت هذه الصناعة عن الأقباط^(٢)؛ وذلك لعدم وجود أدلة تؤيد نظريته ولأن الخزف
الذي عثر عليه في أحلال القسطنطين لا يرجع إلى عصر سابق عن القرن ٩ الميلادي^(٣) بل
أن ما عثر عليه شديد الصلة جداً بطراز سامرا^(٤) وليس من شك في أن كثيراً من
هذه القطع قد استوردت من العراق؛ ولكن الثابت أن مصر صنعت نوعاً مماثل من هذا
الخزف في بريقه وأسلوب صناعته وتلوينه، فقد عثر على بعض القطع التي تدل عجبتها
على أنها صناعة مصرية^(٥)

أما في مصر الفاضلي فقد كانت صناعة الخزف ذي البريق المعدني قائمة موطدة
الأركان ولم يعد هناك ما يدعو إلى الشك في أن الخزف الفاضلي ذا البريق المعدني من
صناعة مصر على يد صناع مصريين بعد أن وصلت إلينا قطع عليها إمضاء صانعيها واسم
المدينة التي صنعت فيها، مثال ذلك الصحن المذكور عليه أنه من «عمل إبراهيم بمصر»^(٦)
والموجود في مجموعة الدكتور علي باشا إبراهيم وقطع أخرى في نفس المجموعة
والى القارىء وصف القطع الرئيسية من الخزف المصرى ذي البريق المعدني في
هذه المجموعة التي تمتاز بوجود أكثر من ٢٠ طبقاً تكاد تكون كاملة :

-
- (١) انظر ما كتبه الدكتور زكى محمد حسن عن هذه الآراء في كتابه : « الفن الاسلامى في مصر »
ص ١٠٢ — ١٠٥ وراجع A Survey of Persian Art ج ٢ ص ١٤٩٠ حاشية ١ .
(٢) Butler : Islamic Pottery ص ٤٠ وما بعدها .
(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى في مصر ص ١٠١ ؛ Dimand : A Handbook of
Mohammedan Decorative Arts ص ١٦٩ ؛ Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of
the Near East ص XV .
(٤) الدكتور زكى محمد حسن : دليل موجز لمروضات دار الآثار العربية ص ٤٥ .
(٥) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى في مصر ص ١٠٣ ، كنوز الفاطميين ص ١٤٩ ،
ديانته : اللصل السابق ص ١٦٢ حيث ذكر أن إحدى هذه القطع محفوظة في متحف التروبوليتان
بنيويورك .
(٦) Wiet : Deux Pièces de Céramique Egyptiennes (Ars Islamica vol III : 2) ص
١٢٦ ش ٣ والدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، وشكلى ص ٢٥ ، ٢٦ .

رقم ٥٢ من المجموعة :

صحن ذو جدار سميك . والرسوم من بريق معدني ذي لون أصفر زيتوني فوق طبقة زجاجية معتمة يفضاء اللون تغطي السطح الداخلي والخارجي للأناء المزخرف أيضا

وبزخرف السطح الداخلي فيل ضخمة الجثة مرسوم باتقان ويحتل مساحة السطح كلها تاركا فراغا بسيطا مزينا بأوراق نباتية من ثلاثة فصوص يشبه فصا العلوى الحربة تقريبا وللليل ذنب طويل وهو مرسوم في حالة السير مقدما اليد اليسرى إلى الأمام وخافضا رأسه إلى أسفل . وقد رسمت بعض خطوط يضاء لتساعد على توضيح أجزاء جسم الحيوان كما نرى في رسم اليد اليمنى ومفصلها وكذلك في رسم الأقدام ، وحول أسفل سيقان الحيوان الأربع عصاة قريبة الشبه بالعقد أو الخللخال وقد زينت حافة الصحن بقطاعات من دائرة .

أما السطح الخارجي فزين بأربع دوائر كل منها عبارة عن دائرتين متحدتي المركز بداخل الصغرى عدة نقاط نرى مثيلاتها تملأ المساحة بين الدوائر الأربع ويأخذى هذه الدوائر نجمد بالخط المستدير « عمل إبراهيم بمصر » كما نجمد بوسط القاعدة كلة « صحن »

وأبعاد هذا الصحن : قطر ٢٨,٥ سم . ارتفاع ٦,٥ سم . قطر القاعدة ١٣ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم

وترجع هذه القطعة إلى القرن ١٠ - ١١ م
وبما يلاحظ أن اتخاذ الفيل عنصرا زخرفيا أمر نادر وخاصة في العصور الإسلامية الأولى . وما يعرف من التحف المزينة برسوم فيلة قليل وقد ذكرها الاستاذ ثبيت في مقاله المنشور في مجلة Ars Islamica (المجلد ٣ الجزء الثاني) عند دراسة هذه التحفة كما ذكر بعضها الدكتور زكي محمد حسن في كتاب تراث الاسلام (ص ٦٥ حاشية ٢) ونستطيع أن نصيف إلى ما ذكر بعض شبائك القلل من صناعة مصر (١) ونجمة من القاشاني من

صناعة إيران في القرن ١٣ م^(١) وأربع سلطانيات اثنتان من صناعة مدينة الري في القرن الثالث عشر الميلادي^(٢) ، والثالثة من صناعة مدينة ساوه في القرن ١٣ م^(٣) والرابعة من صناعة قاشان في القرن ١٣ م^(٤) وطبقا خزفيا من صناعة إيران أيضا حوالي سنة ١٧٠٠ م^(٥) وسلطانية أخرى في مجموعة الدكتور علي باشا إبراهيم (رقم ١١٥) من صناعة سلطان آباد في القرن ١٣ م

سراج : (Ars Islamica : Deux Pièces de Céramique Egyptienne : Vol III Part 2 ص ١٧٢ - ١٧٨ ، الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٣ - ١٥٤)

رقم ١٥٨ (شكل ١)

صحن ذو جدار سميك ولون البريق ذهبي على أرضية بيضاء معتمة .
وزين هذا الصحن طاووس رافع ذيله إلى أعلا فلا معظم مساحة الفراغ العلوى ويتدلى من مقارده فرع قصير لولي الشكل وقد رسم التاج على شكل حرف واو مقلوب تخرج منه ورقة نباتية . وزين أرضية الصحن أفرع نباتية متداخلة يتصل بها أوراق نباتية مختلفة الأشكال بعضها ثلاثي وبعضها يشبه نصف المروحة النخيلية (المثلث) وزين حافة الصحن إطار من قطاعات من دوائر غير منتظمة الشكل بعضها كبير وبعضها صغير .
والسطح الخارجى مزخرف بأشكال لولبية أو حلزونية .

أما أبعاده ففى : قطر ١٩,٢ سم . ارتفاع ٦ سم . قطر القاعدة ٧,٥ سم . ارتفاع ١ سم ويؤرخ من القرن ٥ هـ - ١١ م

والطاووس من الطيور التى اتحدت عنصرا زخرفيا . ونجد كثيرا من القطع المزخرفة بهذا الطائر ؛ منها تحفة خزفية فى متحف فيكتوريا والبرت ذات بريق معدنى من القرن ١٠ - ١١ م^(٦) ومنها قطع محفوظة بدار الآثار العربية من نفس

(١) Céramique Orientale لوحة ٣٨ .

(٢) A Survey of Persian Art pl 663 fig A et B .

(٣) المصدر السابق لوحة ٦٩٢

(٤) المصدر السابق لوحة ٦٧٥

(٥) ش ٨٥ من Hobson : a Guide to the Islamic Pottery of the Near East

(٦) Butler : Islamic Pottery لوحة ١٠ شكل ١

العصر^(١) وعلى بعض قطع إيرانية من نفس العصر أيضا^(٢) كما استخدم رسم الطاووس في زخرفة شبايك القل^(٣)

رقم ١٥٩ :

سلطانية ذات حافة . وأسلوب صنعها من النوع السابق شرحة في القطعتين السابقتين غير ان اللون أصفر ليونى .

ونجد هنا زخرفة خاصة بقاع الأناة وأخرى بمقداره أما الأولى فعبارة عن طائر داخل دائرة بمساحة القاع تقريبا وقد زخرفت الأرضية بأفرع نباتية ملتوية تنتهى بأوراق نباتية بعضها على شكل قلب والبعض من ثلاثة فصوص ويتبدل من مقدار الطائر فرع نباتي تخرج منه أفرع أخرى صغيرة تلتوى على نفسها وجدار السلطانية مقسم إلى مجرىين بواسطة دائرتين تزين كل واحدة منهما ورقة نباتية بها شكل يضاوى أبيض اللون في وسطها وأطرافها السفلى على شكل حرف واو والبحور أو المناطق مزخرفة بالخط الكوفي المزهر .

ويزين حافة السلطانية أربع قطاعات من دائرة على أبعاد متساوية تقريبا يربط بينها شريط

والأبعاد هي : قطر ٢٥ سم ارتفاع ٧,٥ سم . عرض الحافة ١,٨ سم . قطر القاعدة ١١ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم .

وهذه القطعة من القرن ١١ - ١٢ م

مراجع : أحمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : التصوير عند العرب

شكل ٢٩ لوحة ٩ و ص ٢٥٥

رقم ١٦٠ (شكل ٢) :

صحن لون بريقه المعدنى ذهبي ضارب إلى الخضرة . ومصنوع بنفس الأسلوب

(١) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ١٠ ش ٧ ، لوحة ١٨ ش ٦ .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية لوحة ٧٢ ش ٧٧ Survey of Persian Art لوحة ٦٣٠ .

(٣) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ٥٩ ش ١٣ ، مجلة المخطف مايو

١٩٣٧ ؛ الخرف الفاطمي للدكتور لام ترجمة وتعليق [البكباشى] عبد الرحمن زكى .

السابق شرحه أى له جدار سميك وغطاء زجاجى أبيض معتم يغطى السطح الداخلى والخارجى .
وتمت دائرة قوامها الجزء المتوسط الغائر من قاع الاناء . وداخل هذه الدائرة
نجد رسم طائر صغير يتدلى من منقاره ورقة نباتية وتطير من رأسه عصاة . والطائر
ذو جسم أبيض منقطع وفى جناحه شكل يضاوى داخله نقطة أما زخرفة الجدار فعبارة
عن أربعة طيور تسير متتابعة ينشر طائر منها كلا جناحيه والباقون ينشر كل منهم جناحا
واحداً ويتدلى من منقار الطائر الأول والطائر المقابل له ورقة نباتية من ثلاثة فصوص
أما الطائران الآخران فيتدلى من منقاريهما فرع نباتى قصير ينتهى بأنصاف مراوح
نخيلية أو أنصاف أوراق نباتية من ثلاثة فصوص

ويزين السطح الخارجى للاناء أربع دوائر تتكون كل واحدة من دائرتين متحدتي
المركز ويزين الداخلية نقط سميكة تملأ المساحة كما نجد نقطة أخرى تملأ الفراغ المحصور
بين الدوائر الأربع .

وباحدى هذه الدوائر الأربع نجد مكتوبا بالخط الكوفى البسيط « عمل الطيب »
وأبعاد هذا الصحن هى : قطر ٢٣ سم . ارتفاع ٧,٢ سم . قطر القاعدة ٩,٤ سم . ارتفاع
القاعدة ١ سم

ويؤرخ هذا الصحن من القرن ١١ - ١٠ م .

ونجد هذا الموضوع الزخرفى فى طبق فى مجموعة الدكتور فوكيه وقاعه مزين بطائر
تطير من رأسه عصاة وسبعة طيور متتابعة تزين جدار الطبق وأسلوب الزخرفة الحفر
أو التحزير وينسب دليل تلك المجموعة إلى القرن ٧ م^(١) من صناعة مصر . مما يدل على
أن هذا الأسلوب الزخرفى كان موجودا فى أوائل العصر الإسلامى بل العصر القبطى
والمعروف أن الفرع النباتى المتدلى من منقار الطائر وكذلك تلك المصاة الطائفة
من الزخارف التى أخذها المسلمون عن الفن الساسانى ونجدها مستعملة بكثرة فى مختلف
مباني الفن الإسلامى^(٢)

(١) Collection du Docteur Fouquet du Caire لوحة ١١ نمرة ٢٦١ .

(٢) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ١٢ الملونة ، لوحة ٤٥ من
La Céramique Egyptienne لقطعة خزفية من العصر الطولونى ؟ ودجماند : المصدر السابق ش ١٢٤ .
قطعة منسوجات من القرن ١٠ — ١١ م ؟ الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوح ٢٢ —
٤٤٤ ، ٣١ ؟ التصوير عند العرب لوحة ٦ ش ١٨ ، ١٠ ، لوحة ٧ شكل ٢٤ نقوش سامرا الحاشية .

ونجد طبقاً آخر في مجموعة ديموت Demotie مزخرفاً بنفس الأسلوب إلا أن الفراغ المحصور بين الطيور قد زين بدوائر صغيرة داخلها نقط على نمط أسلوب سامرا وهذا الطبق من صناعة سمرقند في القرن الثامن أو التاسع الميلادي^(١)

رقم ١٦١ (شكل ٣) :

سلطانية ذات بريق معدني ذهبي اللون . والطبقة الزجاجية البيضاء اللون المعتمة تغطي السلطانية من الداخل والخارج .
ويزين هذه السلطانية طائر (غراب) كبير الحجم مرسوم داخل دائرة واسعة تملأ السلطانية كلها تقريباً ولا تترك إلا شريطاً ضيقاً للحافة المزينة بقطاعات من دوائر أقرب ما تكون إلى أسنان المنشار .

ويزين الأرضية أفرع نباتية ملتوية تكون أشكالاً حلزونية ويوجد مجموعتين منها ، مجموعة في الفراغ العلوي والثانية في الفراغ السفلي وتتصلان بفرع نباتي يسير خلف رأس الطائر وتنتهي هذه الملفات بأوراق نباتية قريبة الشبه بالكشمري . ويدل على جناح الطائر عدة خطوط بيضاء رفيعة تصل جميعها بشكل يشبه الكاية وهو في الواقع مقدم الجناح .
والأبعاد : قطر ١٦,٧ سم . ارتفاع ٦,٣ سم . قطر القاعدة ٤,٧ سم . ارتفاع القاعدة ٨ ملم وهذه السلطانية من القرن ٥ - ١١ م

وهذا الموضوع الزخرفي هو الشائع في الفن الفاطمي حيث يكون الطائر أو الحيوان هو الموضوع الأساسي والأفرع النباتية والأوراق ثانوية^(٢) .

مراجع : احمد تيمور باشا والدكتور زكي محمد حسن : التصوير عند العرب لوحة ٩ ش ٢٨ ، ص ٢٥٥ وقد ذكر أن رقم هذه القطعة في المجموعة هو ١٥٨

رقم ١٦٢ (شكل ٤) :

سلطانية ذات حافة ، ولون البريق المعدني أخضر ذهبي والطبقة الزجاجية بيضاء معتمة .
يوجد هنا دائرة مرسومة بقدر مساحة القاع وشريطاً دائرياً يزين الجدار ويفصل بينه

(١) بزار : المصدر السابق ج ٢ لوحة XCI شكل ١ .

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٧ ، ص ١٦١ .

وبين محيط الدائرة خط أبيض وقد قسمت الدائرة إلى أربعة أقسام بزخرف كل قسم ورقة نباتية على شكل قلب ذات أطراف مستتة وبداخلها عدة نقط سوداء. والواقع أن شكل القلب هو ما يحيط بالورقة وليست الورقة نفسها وهي شائعة جداً في الخزف الفاطمي^(١).

أما الكتابة الكوفية فهي عبارة عن تيمات فتجد «نعمة شاملة وبركة كاملة» مع ملاحظة اختصار الموجود في كلمة كاملة. ويتلأ الفراغ المحصور بين الأحرف وبين الكلمات عدة أشكال متعددة الاضلاع تملأ مساحتها خطوط ملتوية (لولية) داخلها نقط

واحافة مزخرفة بقطاعات من دائرة يقرب بعضها من شكل أسنان المنشار

ويزين الجدار الخارجي ٦ دوائر كل منها مكون من دائرتين متحدتي المركز بداخل تصغرى عدة خطوط قصيرة يوجد ما يماثلها مائتا الفراغ المحصور بين الدوائر

والابعاد هي: قطر ٦ ر ٢٤ سم. ارتفاع ٣ ز ٧ سم. عرض الحافة ٥ ر ١ سم. قطر القاعدة ٢ سم. ارتفاع القاعدة ١ سم.

وتتوخ هذه السلطانية من القرن ٥ هـ — ١١ م

. مراجع: الدكتور زكي. محمد حسن: الدكتور علي باشا ابراهيم وهواية الآثار الانسلامية (مجلة الثقافة عدد ٩٤)

رقم ١٦٢ :

سلطانية . ولون البريق المعدني رمادي والطبقة الزجاجية بيضاء معتمة وتغطي السلطانية من الداخل والخارج وجدار السلطانية سيمك كباقي الأواني

ويزين قاع السلطانية دائرة ، يقسمها قطران إلى أربعة أقسام تكاد تكون متساوية، كل قطر عبارة عن خطين رمادي اللون يحصران بينهما خط أبيض والأجزاء الأربعة مزخرفة بورقة نباتية ثلاثية الفصوص بفصها العلوى شكل يضاوى صغير أبيض اللون كما أن طرفي الفصين يلتويان في اتجاه العنق على شكل حرف «واو» ،

ويحيط بالدائرة خط أبيض بأسفل جدار السلطانية يليه خط من البريق المعدني

هو في الواقع الحد الأسفل لشريط دائري مزين بكتابة كوفية . ويحد هذا الشريط من
أعلى خط دائري آخر من البريق المعدني يليه خط دائري أبيض فشریط من البريق
المعدني تخرج منه خطوط عمودية عليه تصل إلى الحافة
ولقد ملئ الفراغ بين أحرف الكلمات الكوفية بالأفرع المتوترة المنتهية بأوراق نباتية
وأبعاد السلطانية : قطر ٢٠ سم . ارتفاع ٦ سم . قطر القاعدة ٨ سم . ارتفاع
القاعدة ٦ ملم
وتنسب هذه القطعة إلى القرن ٥٥ - ١١ م

رقم ١٦٤ (شكل ٥) :

سلطانية ذات حافة ولون البريق المعدني ذهبي فوق طبقة زجاجية معتمة بيضاء اللون
وزخرفة هذه السلطانية عبارة عن طاووس يتدلى من منقاره فرع نباتي طويل تخرج
منه أفرع أخرى تكون أشكالا حلزونية تنتهي بأوراق نباتية والغرض من هذه الأفرع
هو ملء الفراغ . والظاهر متقن الرسم ورشيق الحركة وذيله مرفوع إلى أعلا وقد نشره
الظاهر فظهرت شعراته المختلفة وأرجله كأنها أقواس أحسن بكثير من الطاووس
السابق شرحه في القطعة رقم ١٥٨ . وتاج الطاووس عبارة عن ثلاث دوائر صغيرة
متتامة داخلها نقط صغيرة ويصل هذه الدوائر برأس الظاهر خطان قصيران .
وحافة السلطانية مزينة بقطاعات من دائرة .

أما السطح الخارجي للأناء فزين بتلك الدوائر التي سبق شرحها في القطع السالفة
الذكر ونجد إمضاء « مسلم » بالخط الكوفي على قاعدة الأناء .

وأبعاد هذه السلطانية هي قطر ٢٤ سم . ارتفاع ٧ سم . عرض الحافة ١,٥ سم .
قطر القاعدة ١١ سم . ارتفاع القاعدة ١,٥ سم . وهذه القطعة من القرن ٥٥ - ١١ م
وهذا الأسلوب الزخرفي هو الأسلوب المحبب إلى نفس مسلم ومدرسته (١)

رقم ١٦٥ :

طبق مسطح ذو قاع عريض يوجد بينهما الجدار البالغ عرضه ٤,٨ سم . جزء غائر

(١) الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٦ وما بعدها . أنظر على بك بهجت
وفليكس ماسول : المصدر السابق ، ألواح رقم ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٧ حيث توجد قطع عليها إمضاء « مسلم » .

قليلا عن مسترهما . ولون البريق المعدني ذهبي ضارب إلى الخضرة .

وبين هذا "طبق سيدة جالسة على مقعد مرتفع كما يظهر من رجله الخلفية وهي تغزف على آلة موسيقية (قنارة) . وقد رسم جذع السيدة ووجهها مواجهين لنا ولكن توجهه يظهر منه إلا ثلاثة أرباعه : بينا الساق وتقدم جانبيتين وتتجهان نحو حافة الاناء وذلك لأن تكرسي جانبي أيضا . ويتلى شعر السيدة حتى يصل إلى الكتف وتوجد منه خصلتان أمام الأذن . وحول رأسها فوق جبهتها عقد من حبات مستديرة ترى مثيلا له حول عنقها متبعا فتحه الرداء الواسع الأكام والمزين بأفرع وأوراق نباتية .

وعلى يمين "سيدة ابريق كروى الجسم ذو رقة ضويلة رفيعة وقص اليد من الجسم حتى الفوهة التي يخرج منها فرع نباتي يتفرع إلى فرعين أحدهما قصير ينتهي بورقة والآخر يكون شكلا حذونيا ينتهي بورقة نباتية ثلاثية الفصوص . ونجد أسفل الابريق فرعاً آخر ينتهي بورقتين إحداها من خمسة فصوص والثانية على شكل قلب .

وقد زين باقي الفراغ بأشكال هندسية مختلفة ملأت بتلك الأشكال اللوية الصغيرة المنقطعة .

وبالسطح الخارجي دائرة وعدة خطوط من نفس الأسلوب الذي وجدناه خارج الأواني السابق وصفها .

والأبعاد هي : قطر ٢٨ سم . ارتفاع ٧ سم . قطر القاعدة ١١,٥ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم ويمكن تاريخ هذا الطبق من القرن ٥ - ١١ م .

وبما يجب ملاحظته أن موضوع العازف على القيثارة كثير الظهور في الفن الاسلامي^(١) ونجده في مصر في العصر الطولوني^(٢) أيضا كما نجد قطعاً أخرى من الفن الايراني مزخرفة بنفس الأسلوب منها واحدة في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم^(٣) رقم ١٦٦ :

طبق ذو حافة عريضة . ولون البريق المعدني ذهبي والطبقة الزجاجية بيضاء معتمة .

(١) La Céramique Egyptienne لوح ٤٥ ، ٥١ ، ٥٦ : على بك بهجت وماسول : المصدر السابق لوحة I نمرة ٦٦ : الدكتور زكي حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٤٧ .

(٢) La Céramique Egyptienne لوحة ٤٥ ، الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر لوحة ٢٨ .

(٣) طبق من القرن ٩ م ، انظر الدكتور زكي حسن : الفنون الايرانية لوحة ٧٣ ش ٧٩ .

وانظر A Survey of Persian Art لوح ٦٥٢ ، ٧١١ ، ٧٧٨ ، ٧٩٢

وقد استخدم هنا العنصر الحيواني في الزخرفة فتجد طائرا يتدل من متقاربه فرع
نباقي يتفرع إلى أشكال حلزونية متصلة تملأ المساحة أسفل جسم الطائر وينتهي كل
شكل منها بورقة نباتية . كما نجد أفرعا متداخلة تزين باقي المساحة . أما الطائر فقد زين
جناحه بنصفين من المراوح النخيلية المسننة الأطراف وليس له سوى رجل واحدة .
وحافة الاناء مقسمة إلى أربعة أقسام بواسطة أربعة أشكال هندسية تشبه حرف Z
الأفربجي تقريبا وقد رسم في المناطقي الموجودة بين هذه الأشكال أنصاف أوراق نباتية
على شكل قلب ومستنة الأطراف وفي كل منصفه نصفان تتجه قاعدة كل منهما نحو قاعدة
الأخر وتلاحظ أن وضع هذه الأنصاف يختلف فمرة يتجه حدانصف إلى داخل الاناء
ومرة إلى الحافة أى أن كل مجموعة تخاف اثني تليها مباشرة في الوضع . ويزين السطح
الخارجي فقط زيتونية اللون موزعة بدون انتظام

الأبعاد : قطر ٢٥,٨ سم . ارتفاع ٤,٣ سم . عرض الحافة ٤ سم . قطر القاعدة
١٦,٥ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم .
وهذا الطبق من القرن ٥ هـ - ١١ م .

رقم ١٦٧ :

سلطانية ذات حافة . بين القاعدة والجدار جزء قليل الغور ولون البريق المعدني
أخضر زيتوني .

وفي القاع دائرة ، داخلها طائر صغير يتدل من متقاربه فرع نباقي ينتهي بورقة
وثلث عصابة طائرة من رأسه يخرج منها فرعان ينتهي كل منهما بورقة نباتية تتجه
إحداها إلى أعلى والأخرى إلى أسفل ويملا الفراغ المحصور بين الطائر ومحيط الدائرة
عدة أشكال لولبية بعضها رفيع وبعضها غليظ . وعلى محيط الدائرة شريط أبيض رفيع
يفصل بينه وبين قطاعات من دائرة متجاورة تحد جدار السلطانية من أسفل وعلى هذه
القطاعات شريط دائري به فرع نباقي يرتفع في سيره مرة وينخفض أخرى ، ويتفرع
منه عند الارتفاع والانخفاض فرع آخر يثنى إلى الداخل مكونا مناطق أو جامات
عددها ٨ ، وينتهي على شكل حرف « الواء » حيث تخرج منه نصف مروحة نخيلية تنتهي

بحرف الواو أيضا ويتفرع منها نصف مروحة ثانية . وبعض هذه الأشكال المكونة من نصفى المروحة تظهر كأنها رأس طائر صغير وخاصة تلك الأنصاف ذات الأطراف المستنة والعميقة التستين^(١) . ويملا الفراغ الثلاثى الشكل المحصور بين هذه الجلمات أشكال مختلفة فنجد أحيانا شكلا لوليا وأحيانا أخرى ورقة نباتية كأنها نصف مروحة نخيلية أو ورقة من ثلاثة فصوص .

وزخرف الجدار الخارجى دائرتان كبيرتان داخلهما خطان غليظان
الأبعاد : قطر ٢٥ سم . ارتفاع ٦,٤ سم . عرض الحافة ١,٧ سم . قطر القاعدة ١١,٥ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم .
وهذه السلطانية من القرن ١١ - ١٥ م .

رقم ١٦٨ :

صحن ذو قاع عريض . ولون البريق المعدنى ذهبى
ونجد دائرة كبيرة بمساحة قاع الصحن وقد قسمت إلى نصفين يحد كل نصف شريط عريض طرفه الداخلى مسنن . وفى كلا النصفين ورقة نباتية كبيرة الحجم على شكل قلب مبسنة الأطراف ونهاية الطرفين عند العنق مثنية إلى الداخل على شكل حرف الواو وبالورقة شكل يضاوى به زخرفة على شكل حرف S وعلى جانبي الورقة أفرع نباتية تكون على الجانب الأيمن شكلا يضاويا بداخله ثلاثة أوراق نباتية مختلفة الشكل والأفرع النباتية الموجودة على الجانب الأيسر متداخلة فى بعضها وينتهى كل فرع بورقة نباتية . ونجد أوراقا نباتية أخرى تملأ الفراغ بين هذه الأفرع وبعض هذه الأوراق يتصل بالأفرع وبعضها لا يتصل بها . والفروع التى تزخرف أحد النصفين أكثر تداخلا وتشابكا .

ومحيط بهذه الدائرة شريط أبيض هو فى الواقع الحد الأسفل لإطار يزين الجدار وهذا الإطار مقسم إلى أربعة أقسام بواسطة أربعة أشكال هندسية تشبه حرف Z

(١) يوجد صحن حذى مماثل هذه السلطانية وهو محفوظ بدار الآثار العربية وهو من العصر الفاطمى أيضا ولكن هناك اختلافا فى زخرفة المناطق غير أن زخرفة بعض المناطق تتشابه وخاصة فى ذلك الشكل الظاهر كأنه رأس طائر : انظر الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٢٢ ، على بك بهجت وماسول La Céramique Musulmane de l'Egypte لوحة ٢ الملونة شكل ب :



(شكل ١) صحن من الخزف ذي البريق المعدني ، من صناعة مصر في العصر النفاضي . قرن ٥ هـ
(١١ م) في مجموعة الدكتور علي باشا إبراهيم (رقم ١٥٨)



(شكل ٢) صحن من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة مصر في العصر النفاضي
القرن ٥ هـ (١١ م) في مجموعة الدكتور علي باشا إبراهيم (رقم ١٦٠)
(تصوير الأستاذ محمد محمود شلبي)



(شكل ٣) سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني . من صناعة مصر في العصر الناصري
القرن ١٥ هـ (١١ م) في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم (رقم ١٦١)



(شكل ٤) سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني . من صناعة مصر في العصر الناصري
القرن ١٥ هـ (١١ م) في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم (رقم ١٦٢)
(تصوير الأستاذ محمد محمود شالي)



(شكل ٥) سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة مصر في العصر الفاطمي
القرن ٥ هـ (١١ م) في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم (رقم ١٦٤)



(شكل ٣) طبق من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة مصر في العصر الفاطمي
القرن ٥ هـ (١١ م) في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم (رقم ١٦٩)
(تصوير الأستاذ محمد محمود شلي)



(شكل ٧) صحن من الخرف ذي البريق المعدني من صناعة مصر في "عصر الفاطمي"
القرن ١١ هـ (١١ م) في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم (رقم ١٧٣)



(شكل ٨) صحن من الخرف ذي البريق المعدني من صناعة مصر في العصر الفاطمي
القرن ١١ هـ (١١ م) في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم (رقم ٢٢٧)
(تصوير الأستاذ محمد محمود شلي)

الافرنجى تقريبا تحصر بينها في كل منطقة نصفى ورفقتين على النحو الذى سبق شرحه في القطعة رقم ١٦٦ .

وزخرفة الجدار الخارجية قوامها عدة خطوط لولبية الشكل .

الأبعاد : قطر ٣٠ سم . ارتفاع ٧ سم . قطر القاعدة ١٤ سم . ارتفاع ١ سم .

ويرجع هذا الصحن الى القرن ٥ هـ - ١١ م .

رقم ١٦٩ (شكل ٦) :

طبق صغير ذو حافة مفصصة أى عبارة عن أقواس . وبريقه المعدنى ذو لون زيتونى والعنصر الزخرفى المستخدم هنا هو السمك فنجذ سمكتين معكوستى الوضع تتجه رأس كل منهما نحو ذنب الأخرى وهو من النوع المعروف بالبلىطى وهو متقن الرسم واضح التفاصيل وقد أظهر الصانع جزءاً من البطن فظهرت بيضاء بها عدة نقط . ويدور حول الحافة إطار من نفس البريق المعدنى .

ولم يكن اتخاذ السمك عنصراً زخرفياً شائع الاستعمال كالطيور والحيوانات ولقد وصلت الينا بعض القطع المزخرفة بهذا العنصر^(١) منها طبق من العصر الطولونى^(٢) ولقد اتخذ هذا العنصر فى زخرفة شبايك القل أيضاً^(٣) . ونجد هذا العنصر ضمن زخرفة قدر الدكتور فوكيه المشهور^(٤) كما نجده على بعض القطع من العصرين الأيوبي والمملوكي^(٥) وعلى بعض القطع الخرفية الإيرانية^(٦) والأندلسية^(٧)

(١) لوحة ٢ ش ١١ Martin : The Persian Lustre vase in the Imperial Hermitage at St. Petersburg ، على بك بهجت وماسول : المصدر السابق : لوحة ١١ ش ٢ ، لوحة ٢٤ ش ٣ ،

لوحة ٢ الملونة ش ١ La Céramique Egyptienne ، لوحة ٢٩ .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر لوحة ٢٦ : ودليل موجز لمروضات دار الآثار العربية لوحة ١ .

(٣) على بك بهجت وماسول : المصدر السابق : لوحة ٥٨ ش ١٠ ، لوحة ٥٩ ش ١ ، أحمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : التصوير عند العرب ش ٥٢ (لوحة ١٦) .

(٤) Collection du Dr. Fouquet لوحة XIV : الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٣١ .

(٥) المصدر السابق لوحة XV رقم ٣١٥ ، لوحة ١٦٧ Prisse d'Avannes : L'art Arabe ، وانظر Cleves Stead : Fantastic Fauna. Decorative Animals in Moslem Ceramics

الوقحات من ١ - ٣٤

(٦) A Survey of Persian Art لوح ٧١٩ ، ٧٦٩ و ٧٨٨ وانظر أيضاً شكل ٢٦ ، ٢٨ من مقال Ettinghausen : Evidence for the Identification of Kashan Pottery. (Ars Islamica vol

HI part I.)

(٧) الدكتور زكى محمد حسن : فى الفنون الاسلامية شكل ٣٧ .

رقم ١٧٣ :

سلطانية ذات حافة يميل طرفها إلى أسفل . ولون البريق المعدني ذهبي ضارب إلى الخضرة .

نجد بهذه السلطانية خمسة أعلام مثثة الشكل مرسومة بحيث يكون الضلع الأكبر في محاذة الحافة وتصل أطراف المثلثات ببعضها فأصبحت أضلاعها الكبيرة كأنها يحيط شكل خماسي يليه إطار دائري . وتستند سوارى هذه الأعلام على امتداد أضلاع شكل خماسي مرسوم في وسط القاع وقد تنج عن هذا الامتداد وارتكاز سوارى الأعلام على الخطوط الممتدة أشكال تشبه حرف L الأفرنجي . وبكل علم عنصر زخرفي مكون من دائرتين متحدتين المركز وتصل محيطهما بخطوط عرضية متتالية ، وفي وسط الدائرة الصغرى نقط .

وفي الشكل الخامس امضاء مسلم في عبارة نصها : « عمل مسلم بن الدعان بمصر » بخط نسخي بسيط . ولهذا الصانع المشهور امضاء كهذه على قطعة محفوفة بدار الآثار العربية^(١) . أما زخرفة الحافة فهي عبارة عن قطاعات من دائرة يقرب شكلها من أسنان المنشار والأبعاد : قطر ٢١,٢ سم . ارتفاع ٧,٩ سم . عرض الحافة ١,٥ سم . قطر القاعدة ٩ سم . ارتفاع القاعدة ١,٢ سم . والسلطانية من صناعة القرن ١٥ هـ - ١١ م .

رقم ١٧٣ (شكل ٧) :

صحن عميق ذو حافة تنقوس إلى الخارج قليلا . ولون بريقه المعدني ذهبي ضارب إلى الخضرة .

وفي قاع الصحن ست دوائر قوامها دائرة ذات محيط مفصص يحيط بها خمسة إطارات تحدد معها في المركز . والدائرة مزخرفة بعدة دوائر صغيرة وبكل دائرة نقطة داكنة . والملاحظ أن هذه النقاط غير منتظمة التوزيع ولي هذه الدائرة إطار من البريق المعدني مفصص من الداخل بعدد فصوص الدائرة الداخلية ثم يلي هذا إطار أبيض به شريط من دوائرها نقط غير منتظمة التوزيع أيضا ويختلف عرض هذا الشريط . ثم نجد إطارا

(١) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ٤ ش ٤ مكرر .

من البريق المعدنى فاطارا أيضا به خطان متوازيان يحصران بينهما عددا من الدوائر ذات النقطه الداكنة وتلاحظ أن المسافة بين هذين الخطين تختلف في العرض فأحيانا تسع دائرتين وأحيانا لا تسع إلا دائرة واحدة . وهذه الدوائر ذات النقطه الداكنة غير المنتظمة التوزيع تقع أحيانا داخل الدائره وأحيانا على محيطها وأحيانا أخرى بين دائرتين وتذكر بأسلوب زخرفة الحزف في طراز سامرا^(١) . على هذا إطار من البريق المعدنى هو في الواقع حد عصاية دائرية تحد من أعلا بقطاعات من دائرة تزين حافة الإناء في نفس الوقت وبهذه العصاية كتابة كوفية زخرف ما بين أحرفها بأفرع ملتوية وزخرفة السطح الخارجى قوامها دوائر وخطوط من ذلك النوع الذى سبق أن رأيناه

الأبعاد : قطر ٢٢,٤ سم . ارتفاع ٥ سم . قطر القاعدة ١٠ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم . وهذه القطعة من القرن ١٠ م .

رقم ٢١٤ :

حصن له بريق معدنى ذهبي اللون ضارب إلى الخضرة .
المصدر الزخرفى هنا حيوان خرافى له جسم أسد مجنح ورأس طائر يتدل من منقاره قطعة قماش والجناح غير واضح التفاصيل وينتهى على هيئة نصف مروحة نجيلية وقد زخرف رأس الحيوان بأفرع نباتية ويتدل من رقبته شكل على هيئة الكثرى مزين بقوسين صغيرين . وذيل الحيوان مرفوع إلى أعلا ومرسوم بحيث يملأ الفراغ كله تقريبا . ولقد استخدم الصانع الخطوط البيضاء ليسهل على الناظر معرفة أجزاء الحيوان فرسم شكلا يضاوياً مديا من أسفل للدلالة على المفصل الأمامى . كما رسم عدة خطوط أخرى أسفل الرقبة وبين الساقين الخلفيتين . والحيوان مرسوم فى هيئة السير وتلاحظ أن القدم اليسرى غير موجودة وذلك لضيق المساحة .

وقد زخرفت الأرضية بأشكال ملتوية (لولية) تماس وتنهى بنقط ويتصل بعضها ببعض بخطوط رفيعة . كما نجد ورقة نباتية . والحافة مزخرفة بأربع قطاعات من دائرة .

(١) على بك بهجت وتليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ١ ، ٢ . الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر لوحة ٢٤ ، ٢٥ .

أما السطح الخارجي فمزخرف بالأسلوب الذى أشرنا إليه فى معظم القطع التى مر الكلام عليها .

الأبعاد : قطر ٢٥ سم . ارتفاع ٧,٢ سم . قطر القاعدة ١١,٨ سم . ارتفاع ٧ ملم والصحن من القرن ٥ هـ - ١١ م .

ونلاحظ أن كثيرا من التحف ذات الحيوانات الخرافية قد وصلت إلينا مما يدل على أن ذلك الأسلوب كان مرغوبا فيه فنجد طيورا ذات رؤوس آدمية على الخرف والأخشاب وغيرها (١) كما نجد حيوانات بمنحة (٢) وأخرى ذات رؤوس طيور (٣) .

رقم ٢٢٧ (شكل ٨) :

صحن لون بريقه المعدنى ذهبى ضارب إلى الخضرة

ومزخرفة هذا الصحن عبارة عن راقصة قد شغلت أكبر مساحة ممكنة من الصحن ولقد ملأ الفراغ بأفرع وأوراق نباتية على شكل السمك ذات نهاية على شكل الخطاف وهذه الأوراق موجودة فى المساحات الخالية بين الأشكال المختلفة الهندسية التى تحتوى على الخطوط الحلزونية والنقط .

أما الراقصة فقد رسم جذعها ورأسها رسما أماميا وساقها وقدمها رسما جانبا . وقد ظهر الوجه وتفاصيل الوجه مرسومة بأسلوب بسيط وبدل شعرها حتى كتفها كما نجد ذؤابتين أمام الأذنين وطرف خصلتين بأعلى الجبهة وحول الرأس هالة مستديرة بهاشريط عرضى مزخرف بمعينات ناجمة عن تقاطع خطوط . وترتدى السيدة رداء طويل الذيل والأكمام وله فتحة حول العنق وقد زينتها بعقد يوازى شكل الفتحة تماما (٤) .

(١) La Céramique Egyptienne لوحة ٤٣ ، الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين

لوحة ٤٥ ؛ A Survey of Persian Art ، لوح ٦٣١ ، ٦١٧ ب

(٢) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ٩ شكل ٢ .

(٣) نفس المصدر السابق لوحة ٥١ شكل ١ ، A Survey of Persian Art ، لوحة ٦١٥ ا وكليز

سعيد : المصدر السابق اللوحات ١٧٢ — ١٧٧

(٤) La Céramique Egyptienne لوحة ٤٨ ، لوحة ٥٠ ، على بك بهجت وماسول : المصدر

السابق لوحة ٢٧ ش ٣ وقبالة : على بك بهجت وماسول : المصدر السابق لوحة ٢٧ ش ١ ،

La Céramique Egyptienne لوحة ٤٧ .

ولقد استخدم الصانع أسلوب التظليل لكي يوضح معالم الجسد . وتمسك الراقصة في يديها منديلين وقد رفعت اليد اليمنى بينما خفضت اليسرى مع وضع العنق في اتجاه مائل على الجسم كما فعلت في الساق اليمنى . ونجد وشاحا طويلا مرسوما أمام الخصر ويرتفع إلى أعلا عابرا فوق الذراعين ثم منخفضا إلى أسفل مرتكزا على الذراع الأيمن وهابطا عموديا بينما يستمر في ارتفاعه بعد الذراع الأيسر وينخفض إلى أسفل متبعا حافة اللثام . وزخرفة الطح الخارجي من الدوائر والنقط التي تملأ الفراغ بين الدوائر .

الأبعاد : قطر ٢٩ سم . ارتفاع ٦ سم . قطر القاعدة ١٤ سم . ارتفاع القاعدة ٨ ملم
وهذا الصحن من القرن ٥ - ١١ م .

وتعتبر هذه القطعة من القطع النادرة في الخزف الفاطمي لعدم وصول خزف إلينا يحتوى على هذا الموضوع . حقا أن مناظر الرقص من المناظر العامة التي اعتاد الفنانون الفاطميون اتخاذها عنصرا زخرفيا كما نرى من الألواح الخشبية الفاطمية المحفوظة بدار الآثار العربية^(١) وبعض القطع العاجية^(٢) رسم راقصة في الكابلا بلاتينا في بالرمو^(٣) . ولقد وصلت إلينا رسوم راقصات من فن غير الفن الفاطمي منها صورة الراقصتين في نقوش سامرا^(٤) ونرى بعض أوجه الشبه بين صورة هذه الراقصة وصورة الراقصتين وخاصة في رسم الوجه وذلك الوشاح أما حركة اليدين والرجل فمختلفة وكذلك أسلوب رسم الرداء . ويذكرنا ما في رسم هذه الراقصة من حركة برسم حمال على قطعة من سحن خزفي ذي بريق معدني في مجموعة أراكيل نوبار باشا^(٥)

رقم ٢٢٨ .

صحن لون البريق المعدني ذهبي ضارب إلى الخضرة (زيتوني داكن) .

(١) الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٤٥ .

(٢) Olflück & Díez : Die Kunst des Islam لوحة ٤٩٨

(٣) Ettinghausen : Painting in the Fatimid Period . A Reconstruction (Ars Islamica vol 9 .)

(٤) أحمد تيمور باشا والدكتور زكي محمد حسن : التصوير عند العرب لوحة ٦ ش ١٦

(٥) الدكتور زكي محمد حسن : في الفنون الإسلامية ص ٣٠ شكل ٩

تري هنا سيدة تعرف على آلة موسيقية (قيثارة) وهي جالسة على وسادة مرسومة كأنها قطاع من دائرة ومزينة بأنصاف أوراق نباتية .

ووجه السيدة مستطيل بعض الشيء ولها أنف طويل وعينان واسعتان وقد ظهرت أطراف ثلاث خصلات تحت غطاء الرأس الملفوف حول وجهها أيضا والثوب فتحة كفتحة ثوب الراقصة في القطعة السابقة وهي فتحة غير مستديرة . وترتدى السيدة عقدا غير مستدير أيضا . والثوب ذو حافة مرتفعة حول العنق والأكمام مزينة بأشكال صليبية .

ونجد إبريقا إلى يسارها وهو ذو جسم كروي ورقبة واسعة جدا ويخرج من فوهة فرعان نباتيان قصيران ينتهي كل منهما بورقة نباتية . ويقابل الإبريق في الناحية الثانية حوض مزخرف بأشكال حلزونية . ويخرج منه أربعة أفرع نباتية ينتهي كل منها بورقة ذات طرف مشرشر . ثم نجد علاوة على ذلك أفرعا وأوراقا نباتية تزين باقي الفراغ^(١) . وزخرفة الحافة قوامها قطاعات من دائرة . والسطح الخارجى مزين بتلك الدوائر والحطوط .

الأبعاد : قطر ٢٣ سم . ارتفاع ٧,٢ سم . قطر القاعدة ٩,٤ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم والصحن من صناعة القرن ١١ - ١٠ م

رقم ٢٢٩ :

صحن . لون البريق المعدن ذهبي

وقد رسم في قاع الصحن دائرة كبيرة بمساحة القاع تقريبا يحيط الدائرة من الداخل على شكل عقود بلغ عددها ١٦ عقدا زينت كوشاتها بخطوط لولبية رفيعة ايضا . اللون ، ونجد في وسط الدائرة كتابة كوفية نستطيع أن نميز منها كلمة ربما كانت « النبطة » ، والخط من النوع المزهر . كما نجد أفرعا وأوراقا نباتية تخرج من العقود لتزخرف الفراغ المحيط بالكتابة .

أما جدار الصحن فقد قسم إلى ثلاثة أبحر بينها ثلاثة دوائر ايضا . مزخرفة بتلك

(١) نلاحظ هنا رسم المازن في الكابلا بلاتينا . انظر ش ٣ من مقال الأستاذ استجهاوون في مجلة :

الخطوط الحلزونية . وبالأبهر كتابة كوفية عبارة عن كلمة واحدة متكررة وهي نفس الكلمة الموجودة بقاع الصحن .

والسطح الخارجى مزخرف بتلك الدوائر والخطوط يحدها من أعلا خط مستدير ومن أسفل حول القاعدة خط آخر .

الأبعاد : قطر ٢٤,٤ سم . ارتفاع ٧,٧ سم . قطر القاعدة ١١,٣ سم . ارتفاع القاعدة

١,٢ سم

والصحن من القرن ٥ هـ - ١١ م

رقم ٣٣٢ :

سلطانية صغيرة ورسومها ذات بريق معدنى ذهبي اللون .

العنصر الزخرفى هنا طائر وأفرع وأوراق نباتية تزين الفراغ

الأبعاد : قطر ١١,٥ سم . ارتفاع ٤,٨ سم . قطر القاعدة ٤,٨ سم

وهذه القطعة من القره ٥ هـ - ١١ م

رقم ٣٣١ :

قطعة خزفية نستطيع أن نقين أنها على شكل رأس طائر والظاهر أنها كانت فوهة

لاحدى الأواني إذ وصل إلينا كثير من هذه الأواني ذات الفوهة التى على شكل طيور^(١)

ونجد بهذه القطعة بريقا معدنيا ذا لون أصفر ضارب إلى الخضرة ولقد رسمت عين

الطائر بواسطة بروز مستدير فى نفس مادة الخزف وبما هو جدير بالذكر أن قطعة كهذه

من صناعة سامرا وبها كتابات كوفية^(٢) قد وجدت فى بلاد الهند فى مدينة Brahminabad

وتقع شمال شرقى حيدرآباد بنحو ٥٠ ميلا ،

والمعروف أن المسلمين قد فتحوا الهند فى القرن ٨ م وأن هذه المدينة كانت عامرة

فى أوائل الهجرة سنة ٦٢٢ م ويحتمل أنها دمرت فى سنة ١٠٢٠ م بواسطة زلزال^(٣)

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية لوحة ٩٠ ش ١٠١ ، لوحة ٩٦ ش ١٠٢ ،

عل بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ٦٣ ش ٣ .

(٢) هوبسون : المصدر السابق ص ٨٤ ، لوحة ٤ ش ١٤ .

فوجود مثل هذه القطعة بالهند ليس بالأمر المستغرب وهذه القطعة من القرن ١١ م .

رقم ٣٣٢ :

فنجان مدهون بالبريق المعدني وزخرفته غير واضحة أما اللون فهو الأصفر الضارب إلى الخضرة وأبعاده هي : قطر ٤,٣ سم ° ارتفاع ١,٩ سم ° قطر القاعدة ٢ سم وهو من صناعة القرن ١١ م .

رقم ٣٣٣ :

طبق صغير جدا ولعله فنجان ، وهو مزين بورقة من ٦ فصوص كل فص يزين تجويفا من تجويفات الطبق إذ أن حافته مفصصة وعدد فصوصها خمسة ولقد رسمت الورقة السادسة على الخط البارز بين فصين من فصوص الفنجان ولون البريق أصفر ضارب إلى الخضرة .

الأبعاد : قطر ٤,٨ سم . ارتفاع ٢ سم . قطر القاعدة ٢,٢ سم . ارتفاع القاعدة ٦ ملم
القرن ١١ م .

رقم ٣٣٤ :

طبق صغير ذو حافة مفصصة وتبرز الأقواس إلى الخارج وهو مزخرف بورقة نباتية على هيئة شكل يضاوى وعلى يمينها وشمالها نصف مروحة . ولون البريق أصفر ضارب إلى الخضرة ، الأبعاد : قطر ٥,٥ سم . ارتفاع ٢ سم . قطر القاعدة ٢,٢ سم . ارتفاع القاعدة ٥ سم
من القرن ١١ م .

رقم ٣٣٥ :

طبق . لون البريق زيتوني ، ويزين هذا الطبق أرنب يتدل من فوه ورقة نباتية ثلاثية الفصوص ، وله أذنان طويلتان وذنب قصير . استخدم الصانع الخطوط البيضاء للدلالة على أجزاء الجسم . والفراغ مزخرف بتلك الأشكال المملوءة بالأشكال الجلزونية

والنقط^(١) . وهذا الطبق من القرن ٥ هـ - ١١ م

رقم ٣٣٦ :

طبق غير كامل لون البريق المعدني أحمر نحاسي . الزخرفة قوامها طاووس رافع ذيله إلى أعلا ويتدل من منقاره فرعان نباتيان أحدهما إلى الأسفل والآخر يذهب إلى خلف الرقبة ويتيمان بورقتين . كما نجد أوراقا أخرى وأفرعا نباتية ، والطبقة الزجاجية رقيقة جدا .

الأبعاد : قطر ٩,٣ سم . ارتفاع ٣,٨ سم . قطر القاعدة ٣,٩ سم .

ويؤرخ من القرن ٥ هـ - ١١ م

نستطيع إذا أن نصل مما تقدم إلى النتائج الآتية

١ - أن هناك شكلين للطباق : أولا شكل يكاد يكون مسطحا أى أن جدار الطبق غير مرتفع ولعل أحسن تسمية لهذا النوع هي « الصحن » ويوجد واحد (رقم ١٦٦) ذو ساق عريضة (٤ سم) ولذا سميته طبقا . أما الشكل الثاني فهو جدار مرتفع فهو أقرب إلى شكل السلطانية منه إلى شكل الطبق ولقد سميت الأواني ذات الحافة المستعرضة (رقم ١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٧ - ١٧٢) سلطانيات أما الأواني الباقية فقد سميتها « صحنات » . وهذا طبقا عدا الأطباق الصغيرة جدا وقاعدة هذه الأواني جميعها متشابهة ويبلغ ارتفاعها نحو ١ سم .

٢ - أن العناصر الزخرفية إما أن تكون من رسوم حيوانية أو آدمية تلعب الدور الرئيسي في الزخرفة وتصاحبها الأفرع والأوراق النباتية . ولما أن تكون من رسوم أوراق نباتية في مناطق هندسية تصاحبها أحيانا كتابات كوفية (رقم ١٦٢) وأحيانا أخرى رسوم نباتية (رقم ١٦٨) ، وأما كتابات كوفية تصاحبها الأفرع والأوراق النباتية (رقم ١٦٣)

(١) نفس المصدر . وتوجد قطع مشابهة محفوظة بدار الآثار المصرية ، انظر La Céramique Egyptienne لوحة ٢٦ .

أما زخرفة الحافة فقوامها قطاع من دائرة يدور مع الحافة وأحيانا تتلامس هذه القطاعات (رقم ٥٢) وأحيانا أخرى تكون متباعدة. (رقم ١٥٨ - ١٥٩)

وقوام زخرفة السطح الخارجى دوائر متباعدة يملأ الفراغ المحصور بينها عدة خطوط غليظة قصيرة أو نقط مميكة ترى مثيلا لها داخل الدائرة الداخلية لأن كل دائرة تتكون فى الواقع من دائرتين متحدتى المركز ويرجع هذا الأسلوب إلى العصر الطولونى .

٣ - أما البريق المعدنى فاما أن يكون ذهبيا أو أصفر ضاربا إلى الخضرة وأحيانا يكون اللون الأخضر داكنا (رقم ١٧٦) وأحيانا أخرى فاتحا يقرب من الزيتونى (رقم ١٧٢) كما نجد أيضا لونا أحمر نحاسيا (رقم ٢٣٦) ويستعمل هذا اللون فى زخرفة السطح الخارجى لبعض الأواني كما تستعمل باقى الألوان السابق ذكرها .

٤ - أن هذه الأواني من صناعة مصر . كما تدلنا على ذلك تلك العبارة التى تشمل اسم الصانع واسم المدينة كما فى الآيتين رقم ١٧٢، ٥٢ ، وإذا كانت باقى الأواني غالية من هذه العبارة فإن التشابه بينها جميعا فى الصناعة والشكل والزخرفة ولون البريق المعدنى لا يدع مجالاً للشك فى أنها من صناعة مصر .

وقد يذكر اسم الصانع فى وسط قاعدة الأناة (رقم ١٦٤) أو فى إحدى الدوائر التى تزين السطح الخارجى (رقم ٥٢ ، ١٦٠) أو فى وسط قاع الأناة (رقم ١٧٢)

محمد محمد حمزة

المراجع

- أحمد نيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : كتاب التصوير عند العرب للرحوم أحمد تيمور باشا ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن (لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢)
- الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين (دار الآثار العربية سنة ١٩٣٧) .
- : الفن الاسلامى فى مصر (دار الآثار العربية سنة ١٩٣٥) .
- : الفنون الإيرانية فى العصر الاسلامى (دار الآثار العربية سنة ١٩٣٩) .

- في الفنون الإسلامية (اتحاد أساتذة الرسم بالقاهرة سنة ١٩٣٨)
: دليل محتويات دار الآثار العربية (كتبه بالفرنسية جاستون فيث وترجمه
بصرف زكي محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٩) .
: الدكتور علي باشا إبراهيم وهوابة الآثار الإسلامية (مقال في مجلة الثقافة ،
عدد ٩٤) .
البكباشي عبد الرحمن زكي : الحزف الفاطمي للدكتور لام ، ترجمة وتعليق الملازم الأول عبد الرحمن
زكي (مجلة المقتطف عدد مايو سنة ١٩٣٧) .
Aly Bey Baghat et Massoul, F. : La céramique musulmane de l'Egypte, Le Caire, 1930.
Butler A. J. : Islamic Pottery, London 1926.
Céramique Orientale : Ernst Henri, Editeur S. D. Paris 1922
Le Céramique Egyptienne de L'Epoque Musulmane (Musée de l'Art Arabe du Caire)
Bâle 1922.
Collection du Docteur Fouquet du Caire.
Dimand, M. S. : A Handbook of Mohammedan Decorative Arts, New York, 1930.
: Loan Exhibition of Ceramic Art of the Near East (The Metropolitan
Museum of Art 1931).
Hobson. R. L. : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East (British Museum)
London 1932.
Kochlin. F. : The Persian Lustre Vase in the Imperial Hermitage at St. Petersburg :
Stockholm 1899.
Pézar, M. : La céramique archaïque de l'Islam, Paris 1920.
Pope, A. U. (Editor) : A Survey of Persian Art Oxford 1938.
Riefstahl, M. : The Parish-Watson Collection of Mohammedan Potteries, New York,
1932.
Wiel, G. : Deux Pièces de Céramiques Egyptiennes : Ars Islamica vol II, part 2.

أداة التعريف

في اللغة العربية

بقلم

فؤاد مسمون

لكي نعالج هذا الموضوع في اللغة العربية يجب علينا أن نعرض له في سائر اللغات واللهجات التي تمت إلى لغة القرآن بصلة ، وذلك لأن لغتنا غصن من شجرة مترامية الأطراف متشعبة الجذور ، ودراسة هذا الغصن تتطلب ولاشك الاطاحة بهذه الشجرة والامام بها . ف لغة القرآن الكريم لهجة عربية شمالية تكون مع الثودية ، والصفوية ، والحيانية ، وما اليها من اللهجات العربية الشمالية ، التي اكتشفت أو لم تكتشف بعد اللغة التي اصطلح العلماء على تسميتها العربية الشمالية ، وهي تقابل المعينة السبائية أو العربية الجنوبية كما تكون الاسرتان مع الحبشية (الجمزية) الفرع الغربي من شجرة اللغات السامية بينما الاكدية هي فرعها الشرقي ، والآرامية والكنعانية الشمالى .

وهذه اللهجات العربية الشمالية — التي انتشرت في وسط وغرب وشمال وشمال غرب الجزيرة ، خاصة على طول الطريق التجارى القديم الذى كان يخرج من بلاد اليمن ماراً بغرب الجزيرة متجهاً شمالاً محترقاً مكة ويثرب حتى يصل إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط ، وهناك يخرج منه طريق آخر إلى دمشق حيث يتفرع إلى فرعين فرع إلى آسيا الصغرى فأوروبا وآخر إلى بلاد بابل ماراً بتدمر — هي التي اكتشف المستشرقون كثيراً من نقوشها في العلا والحجر (مدائن صالح) وتدمر وتبالة وجبال الصفا (جنوب شرقي دمشق) ووسط الجزيرة وسيناء ، والكثرة المطلقة من هذه الكتابات مكتوبة

بالخط المعين الجنوبي، وإن كانت لغتها عربية شمالية^(١)، وهذا مما يدل على قوة عملية التزاوج التي تمت بين العرب الجنوبيين والشمالين هذا التزاوج الذي كانت نتيجته المحتملة أن انتشرت اللغة العربية الشمالية بين القبائل المعنية الشمالية لا نقول قبل الاسلام فقط بل قبل الميلاد أيضاً. وذلك لأن هذه الكتابات العربية الشمالية لم تكن لغة العرب الشماليين فحسب بل المعينين أيضاً بعد أن نزحوا من الجنوب، واستوطنوا تلك البقاع واختلطوا بالشمالين، واحترفوا التجارة أو حراسة القوافل التجارية التي كانت تدرع الجزيرة طولا وعرضا.

ولعل أشهر لهجة شمالية عرفت في اللغة العربية هي اللهجة القرشية، وذلك بدليل المكانة الرفيعة التي تبوأها مكة^(٢) في الجاهلية كوطن للكعبة، وفي الاسلام كبسيط للوحي ووطن للرسول. لذلك قدر لهذه اللهجة المحمدية بفضل نزول كتاب الله بها، وبفضل انتشار الاسلام أن تهيمن على سائر اللهجات واللغات التي كانت منتشرة في سائر بقاع الجزيرة من ناحية، وعلى كثير من لغات الأمم الأخرى التي دانت بالاسلام أو خضعت لرايته من ناحية أخرى. وهيمنت هذه هي التي مكنتها من أن تفرض نحوها وصرفها، يانها وبديها على اللهجات العربية الأخرى حتى أصبح نحوها هو النحو العربي الذي يجب مراعاته ويفرض درسه.

(١) D.H. Müller, Epigraphische Denkmäler aus Arabien in Denkschriften der kaiserl. Akademie der Wissenschaften, Wien 1889, Bd. XXXVII.

F. Hommel, Aufsätze und Abhandlungen arabisch-semitologischen Inhalts, 1, München 1892.

Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabie, Paris 1909-22.

M. Lidzbarski, Ephemeris für semitische Epigraphik, 11, 23-48, 345-361; 111, 214-217.

F. Hommel, Exploration in Arabia (in: Hilprecht. Explorations in Bible Lands. Philad. 1903).

F. Prätorius, Bemerkungen zum südsemit. Alphabet (ZDMG Bd. 58 (1904) S. 715 f)

....., Das kanaan. und südsemit. Alphabet. (ZDMG Bd. 63 (1909) S. 189 f)

Charles Doughty: Documents épigraphiques recueillis dans le nord de l'Arabie, Paris 1884.

Charles Huber: Inscriptions recueillis dans l'Arabie centrale, 1878-82.

J. Euting: Nabatäische Inschriften aus Arabien, Berlin 1885.

..... Sinaiische Inschriften, Berlin 1891.

R. E. Brünnow und A. v. Domaszewski: Die Provincia Arabia, Bd. 1-111, Stargburg 1904-1909.

Christian Snouck Hurgronje; Mekka. Haag 1888-1889. (٢)

لكن قداسة اللغة شيء والبحث اللغوي شيء آخر فنحن إذا عرضنا لأداة التعريف في لغتنا فإما نعرض لها كظاهرة من ظواهر اللغة العربية خاصة، واللغات السامية عامة فنحن سنتجاوز الحدود التي رسمها رجال الديانة الإسلامية للعربية الفصحى، فنصو قرشاً واللجة القرشية بكل مقومات الفصاحة والبلاغة ووصموا ظواهر اللهجات العربية الأخرى بالضعف والوهن والشذوذ. نحن نعرض هنا في هذا البحث لا لهذه اللهجات فحسب بل للغات السامية أيضاً وبذلك فقط نستطيع فهم هذه الظاهرة اللغوية فهماً صحيحاً.

التعريف قديم في اللغات السامية وهو يوجد في سائرهما كما يوجد في السامية القديمة إلا أن التعريف شيء وأداة التعريف شيء آخر ^(١) وقد تكون أداة التعريف هذه حديثة في اللغات السامية، وقد تكون غير موجودة في السامية الأصلية إلا أنها ليست واحدة في اللغات التي أوجدتها واستخدمتها فهي مختلفة متنوعة، ولو أن بعض علماء اللغات السامية حاول أرجاعها إلى أصل واحد فلم يوفق ^(٢). فهذه الأداة كما نعرفها اليوم من النصوص المختلفة قد تسبق المعرفة كما هو الحال في العربية والكنعانية، وقد تلحقه مثل الآرامية والسبائية، وقد يكون الفرق في الاستعمال ناشئاً من أن بعض هذه اللغات استخدمت الأداة قبل أن تجمع على طريقة استخدامها. وليس هذا هو الخلاف الوحيد الذي يعترضنا في بحثنا هذا بل هناك خلافات أخرى ستبين لنا بما يلي.

الأكدية: لا تعرف أداة للتعريف وإن كانت تستخدم الإضافة أحياناً مع ذكر الضمير — ش — كما في المثال الآتي: شرم ش مايم: يعني، الملك الذي للبلاد، أي، ملك البلاد.

الحبشية: شاركت الأكديّة في هذه الصفة فهي وإن كانت لم تستخدم قديماً أداة تعريف خاصة إلا أنها استعاضت عنها بوسائل كثيرة منها:

C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, 2 Bd., Berlin 1908-13. [١]

J. Barth, Die Pronominalbildung in den semitischen Sprachen, Leipzig 1913.

W. Wright, Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, [٢] Cambridge 1890 p. 114 sq.

أى الأرض و **البلاد** (هـاج) أى العبد.

العربية الجنوبية : ولهجة طى تستخدمان الميم وهى التى أطلق عليها العرب الطمطمائية
كقولهم : طاب امهراء : أى طاب الهواء .
وتلحق السبائية أحيانا الحرف (ن) بالاسم إذا أريد تعريفه
مثل : أملك ن : أى الملك .

العربية الشمالية

فى اللهجات النمودية واللحيانية^(١) والصفوية^(٢) نجد أداة التعريف (هـ) وتستخدم
هذه اللهجات هذه الاداة استخدام الأسرة الكتنائية لها تقريبا . اعنى أنها تشدد الحرف
الاول من المعرف إن لم يكن حرفا حلقيا^(٣) أو قريبا من الحلقى مثال ذلك فى النمودية
(هـ و ع ل) أى الوعل ، وفى اللحيانية (هـ ص ل م ن) أى التمثال ، وفى الصفوية
(هـ د ر) أعنى « الدار » .

وقد لوحظ أيضاً فى النقوش اللحيانية أنها تستخدم إلى جانب الـ (هـ) اللفظ
(هن) وكذلك (هل) وذلك أحيانا مع الكلمات المبتدأة بأحد الحرفين الحلقين (ا)
و (ع) أو القريبة من الحلقية مثل (ق) . وقد عثر فى نقش ثمودى على إحدى
الصيغتين السابقتين وقد جاءت كلمة مبتدأة بالحرف (ك) مثل (هـ ن ا م ن)^(٤)

(١) H. Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems. Die altthamudische Schrift 1926.

E. Littmann, Entzifferung der thamudenischen Inschriften. Mitt. d. Vorderas. Gesellsch. IX, 1 (1904).

J. J. Hess, Die Entzifferung der thamdenischen Inschriften. Paris 1911 (=Recueil des Travaux XXXIII).

E. Littmann, Zur Entzifferung der Safit-Inschriften. 1901. (٢)

H. Grimme, Texte und Untersuchungen zur safatenisch-arabischen Religion. Mit einer Einführung in der safaten. Epigraphik. 1929.

H. Grimme, Zur dedanisch lühjanischen Schrift. OLZ Bd. XXXV (1932), Sp. 753 ff.

(٣) ظاهرة هدم تشديد الحرف الحلقى موجودة فى العربية ، فقد جاء فى ألفية ابن بويه ص ٣٧٤ :
وأهضة فى لغة من لا يشدد الحاء لىء أصغر يستخرج من بطن الجدى .

Müller, No. 14. (٤)

و (هن عن ك) ^(٣) و (ه بن قوب ر) ^(٤) و (هل ك صيب) ^(٥) .
 . والآن بعد أن رأينا أن الأسرة الكنعانية وبعض اللهجات البرية الشمالية تبتنم
 الـ (ه) أو (هن) أو (هل) كأداة تعريف نحب أن نتعرف إلى هذه الـ (ه)
 عن قِرب قبل أن نتقل إلى اللهجة القرشية .
 الـ (ه) ويرجح أنها كانت في الأصل (ها) ثم قصرت الحركة فصارت (ه) ثم
 استعوض عن هذا الإشباع بتضعيف الحرف الذي يليها ، هي بعينها التي نجدناها في
 الكثرة المطلقة من اللغات السامية كحرف إشارة أو تنبيه ، وقد ترد متصلة بأداة
 الإشارة (ذا) في مثل قولنا (هاذا) وفي السريانية والعبرية أيضا كما ترد مع ضمير
 الغائب أو الغائبة المفرد أو الجمع للإشارة إلى البعيد في العبرية مثل ^{הוא} ^{היא} ^{הם} ^{הן}
 (هم/هن/هو/هي) يعني ذلك الشعب ، كذلك الحال في اللهجات العربية الحديثة فالتنا
 مازلتا نجد في اللهجة العربية المصرية مثلا استعمال الـ (ه) مع أداة الإشارة في مثل
 قولنا (هك هـ) أو (دك هـ) وكما أنها واردة لاحقة هنا فكذلك ترد سابقة مثل
 (هدك) . وتستعمل العربية هذه الـ (ه) في مواضع أخرى في مثل قولنا (هاك
 وهاك ...) أو (هازيذا) ^(٦) . وتتفق مع العربية في هذه الاستعمالات لغات سامية
 أخرى كالعبرية والآرامية ^(٧) .

اللهجة العربية القرشية

اختلف النحويون في أداة التعريف ولخص ابن مالك هذا الاختلاف في قوله:
 "أل حُرُفُ تَعْرِيفٍ أَوْ التَّلَامُ قَطَطٌ قَسَمَطٌ عَرَفَتِ قُلُوبُ فِيهِ التَّحَطُّ"

Müller, No. 4. (١)

Jaussen, No. 81 (٢)

E. Littmann, Zur Entzifferung der Hammudischen Inschriften, S. 17. (٣)

(٤) راجع ابن عيشر ص ٩٠٠ .

(٥) في العبرية نجد مثلا ^{הוא} ^{היא} ^{הם} ^{הן} أي هنا وفي السريانية ^{ܐܝܬܐ} ^{ܐܝܬܐ} ^{ܐܝܬܐ} ^{ܐܝܬܐ} أي أنظروا ^{ܐܝܬܐ} أي ذلك
 و ^{ܐܝܬܐ} أي منه .

١٧٥. وقد أجمع الشراح على أن (ال) يجهلها هي حرف التعريف وفاقا للخليل الذي لم يقل: الألف واللام: وليست الهزة عنده زائدة بخلاف سيدييه الذي قال: باللام: فقط محتجا بسقوطها في الدرج، وخالف المبرد الاثنين فقال: الهمز: فقط لأن اللام تقلب في لغة حمير ميا إذا كانت مظهرة كقوله عليه السلام: ليس من أمير الصوم في السفر: وتحدثنا المصادر العربية أيضاً أن (ال) هذه تستعمل مع الفعل أحياناً كما في قول العرب السجدة واليتقصع واليحمد: ويقول ابن خالويه في كتابه ليس في كلام العرب ص ٨: وكانهم أرادوا الذي يجدد والذي يتقصع: أعنى أن (ال) هنا بمعنى (الذي). وفي غير التعريف والموصول تستعمل (ال) أيضاً في الإشارة وهي التي تسمى ال الهدية.

كقوله تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم، أي هذا اليوم الحاضر وهو يوم عرفة من جهة الوداع الذي تزلت فيه الآية. وفي غير هذه المواضع يجد اللام مستعملة في الإشارة في مثل الذي وذلك وهناك ولها ليل ولها للرجال ولها للدواهي وتنفق تقريباً سائر اللغات السامية مع العربية في هذا الاستعمال (١).

والآن بعد هذه المقدمة الوجيزة لعرض اللام في اللغات السامية نحب أن نرجع لقول ابن مالك في أداة التعريف. الواقع أن مجرد النظر إلى هذا البيت يجعلنا لا نتردد لحظة واحدة في الحكم على أن رجال النحو العربي لم يصدروا هذا الرأي بعد بحث شامل لأداة التعريف وذلك لأن حكمهم وأن وافق كتابة الأداة إلا أنه يخالف نطقنا لها. وهذا الخلاف بين كتابة الأداة والنطق بها يحتم علينا أن نرجع إلى الأصول الأولية للغة العربية أعنى الأبجدية.

نحن نعلم أن أبجديتنا مكونة من ثمانية وعشرين حرفاً، فلا إلفاظ المعرفة أو القابلة

(١) في العربية مثلاً **أَلْ** أو **إِلْ** معنا وكذلك **أَلْ** منه الية و **أَلْ** هذا اليوم

وفي البربرية مُضِلَّا الأت.

التعريف لاتزيد موادما عن هذا العدد. وتقسّم اللغويون هذه الالجدية إلى قسمين رئيسين متساويين :

حروف شمسية وهى : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن

حروف قرية وهى : ا ب ج ح خ ع غ ف ق ك م ه و ي

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تبين أخيراً من دراسة بعض اللهجات العربية أن بعض هذه الحروف التى اعتبرها المتقدمون قرية هى فى الواقع شمسية ومن هذه الحروف : (ج) فى مصر وبغروت^(١) ودمشق^(٢) والموصل^(٣) وبعض المدن الأفريقية الشمالية كالمدار البيضاء^(٤) وغير الجيم نجد (الكاف) فى مصر (والقاف) فى صغار^(٥) ومن هذا يتبين لنا أن اللام لاتسمع إلا مع مواد قليلة وتختفى ويحل محلها التشديد فى كثرة المواد. فاللهجة العربية القرشية متفقة فى هذه الظاهرة مع سائر اللهجات العربية الشمالية كاللحانية والنجدية والصفوية، وكذلك الاسرة الكنعانية حيث أداة التعريف فيها الهاء وتشديد الحرف الذى يليها مالم يكن حلقياً أو قريباً من الحلقى وفى الحالة الأخيرة نجد فى اللحانية والنجدية (ه ن) أو (ه ل) كما وجدنا فى الكنعانية المسد "تعويضى والتضعيف التقديرى. فنحن الآن أمام ظاهرة جديدة وهى أن (ه ن) أو (ه ل) تقابلان (ال) فى القرشية، وإذا كان الأمر كذلك أليس من الجائز أن (ن) الاداة (ه ن) تقابل (ل) الاداة (ه ل) من ناحية وأن (ه ل) تطورت فى العربية الشمالية إلى (ال)؟ بل فى النقوش العربية الشمالية المتأخرة كنقش النمار مثلاً الذى يرجع تاريخه إلى عام ٣٢٨ م نجد أن أداة التعريف فيه (ال) وفى نقوش أخرى نجد أن (ا) مستعملة إلى جانب (ه) كأداة تعريف. ونفس هذه الظاهرة أعنى قلب اللام

Mattsson, Le dialecte arabe de Beyrouth, p. 57

(١)

G. Bergsträsser, Zum arabischen Dialekt von Damaskus, Hannover 1924.

(٢)

Sozin, Der arabische Dialekt von Mosul und Mardin.

(٣)

G. Kampffmeyer, Marokkanisch-arabischer Gespräche.

(٤)

N. Rhodokanakis, Der vulgärarabische Dialekt im Dofâr (Südarabische Exped.

(٥)

نونا أو التون لاما أو الهاء همزة موجودة في لغتنا العربية حيث يقال في (لعل) (لعن) وفي (لاسيا) (ناسيا) وفي (اصيلا) (اصيلا) (اصيلا) وقول جميل .

وأنت صواحبا فقلن إذا الذي منح المودة غيرنا وجفانا
والنتيجة التي مهدت لها بهذا البحث وأحب أن أصل إليها هي أن أداة التعريف في لغتنا ليست (ال) بل الهمزة والتشديد وأما (ال) فلم تستعمل إلا في الحالات القليلة السابقة فقط والتي يتعذر فيها حقيقة التشديد وتتفق لغتنا في هذه الظاهرة مع معظم اللهجات العربية والأسرة الكنعانية .

ونتيجة أخرى أحب أن أقرأها في هذا البحث أيضاً وهي أنه ثبت لي عند عرض أداة التعريف أن اللغة السامية تميل إلى استخدام أداة الإشارة أو الضمير الشخصي للتعريف والرأي عندي أن الإشارة أقدم من الضمير الشخصي وهذا أقدم من التعريف وجميعاً تدل في الحقيقة على معنى واحد ألا وهو الإشارة .

وإذا كان الأمر كذلك فما هو السبب الذي حمل نحوي اللغة العربية على القول بأن (ال) هي أداة التعريف ؟ قواعد اللغة الفصحى كغيرها من قواعد اللغات الأخرى هي في الواقع نتيجة لعملية توحيد وتبسيط لمختلف القواعد السائدة في تلك اللغة وأعتقد أن ما تقوم به بعض المجامع اللغوية في أوروبا وأمريكا خاصة بلغاتها هو بعينه ما فعله لغويو العربية القديمة .

فؤاد مسمي

in the processions celebrating the spring feast of Isis at Kenchreæ. The neophyte also held a torch in his right hand when he was first presented to the Isis devotees (Apuleius, Met. XI, 24).

The position of the 'sacrorum' in the cult of Isis is still problematic (cf. Wissowa, RR², p.3; Darem.—Saglio, Dict., s. v. Isis). There is no doubt that they were initiated in the mysteries but it is not clear whether they formed distinct associations or whether they were allowed a lower rank in the sacerdotal collegia. In the inscriptions we find men and women designated 'sacrorum' or 'sacrorum Isidis' without any further indication or explanation (CIL VI, 2244-5, 2279-82, 37171; IX, 6099; XI, 819). In Apuleius, Met. XI, 23, we hear of 'turbae sacrorum' coming from all parts to offer presents to him, but he does not define their position in the cult.

Mohamed Selim Salem

Ovid, Met. IX, 776—7

by

Mohamed Selim Salem.

One of the beautiful episodes versified by Ovid in his *Metamorphoses*, IX, 666 ff. is a miracle wrought by Isis for one of her Cretan devotees named Telethusa. The lady was about to give birth to a child when her husband with tears in his eyes ordered her to kill the coming infant if it proved to be a girl. Isis however appeared to the sad lady in a dream and advised her to deceive her husband and to spare the child, be it a girl or a boy. The child who happened to be a girl was accordingly reared and given the equivocal name, Iphis. The father, believing that the child was really a boy, gladly performed all his vows. When Iphis grew up, the father decided to choose a bride for his supposed son. The mother was in great distress; she turned to Isis for succour. The goddess heard her prayer and changed the sex of Iphis.

The text of Telethusa's prayer is not certain, and editors have made various attempts to remedy it. As the text now stands, the words 'faces sistrorum' in lines 776—7 cannot be made to yield any sense. The corrections already suggested vary between rewriting line 776: *cunctaque cognovi, sonitum comitesque facesque*, so that a word of sound may go with 'sistrorum' and marking a lacuna after *facesque*. Those editors who attempt to rewrite line 776 obviously consider this line to be corrupt, but in my opinion this line does not seem to have been tampered with. Nor is there any need to mark a lacuna after it. The first word in the succeeding line, that is the word 'sistrorum', seems to be the cause of the difficulty. It has displaced the right reading which was, in my opinion, 'sacrorum'. The resemblance between the two words is obvious, and a fortuitous change in the 2nd and 3rd letters in 'sacrorum' may have led to the introduction of 'sistrorum' which was possibly a gloss explaining the meaning of 'sonitum'. The words 'faces sacrorum' are clear to any one with a little knowledge of the Isis cult; although the word 'sacrorum' itself is sometimes misunderstood. It may be taken to mean only 'rites' (sacra), and in this case 'faces sacrorum' become a puzzle hard to interpret. In this passage of Ovid the words 'faces sacrorum' mean of course the 'torches of the initiated' (sacri). The custom of carrying torches in the Isis processions is well attested by Apuleius, Met., XI, 9 who tells us that a number of men and women carried lamps, lanterns and torches

the Burgundians failed, for which they blamed the Englishmen. This caused a delay till ten o'clock at night before the rearward were in their tents, which were pitched inside the court or the fort of a monastery called St. Martin where there was some scarcity of bread that night. And then they took their way back towards the town of (Vallcines) above which a bridge was made for the body of the army to cross the river. And the Duke and his council of captains and many of the cavalry went to the town of Valenciennes where they tarried to put the king's artillery in safe custody and to despatch the English to England and the Burgundians to their homes. These had been in the two expeditions described before to fulfil the promise of the Emperor in his compact, which says that he bound himself to prepare for the King ten thousand men in harness both horse and foot and their wages for half a year. And in the same way the King was bound to the Emperor whenever one should call on the other, wherefore the King of England did not have to pay any of the cost of the Burgundians during these two expeditions.

And as soon as the Duke had put everything in order in Valenciennes and taken leave of the Burgundian chiefs, he took his retinue and rode from there to Tournay and from Tournay as it happened to Bruges, and from Bruges to Dunkirk, where he shipped many of the horses of the English in a couple of hoys, on which there rose a storm of wind that threw them on shore between Dunkirk and Sealand where the vessels broke up and the horses were drowned. At this time the Duke came to Calais about three weeks before Christmas and sent the soldiers across the sea to England but Lord Sands so performed the message of the Duke to the cardinal of York, who governed the King's dominions as he saw fit, that he, according to the account of the aforesaid lord made such slander between the Duke and the king that the Duke stayed in Calais till after Epiphany when he went to England. But he was in England from then till the feast of St. John before he was allowed to come before the king, and so this was the end of the expedition, and the soldiers came penniless to the kingdom."

M. B. Davies

struck its tents and booths and set fire to the huts which nearly set fire to the township, but certain of the captains of the rearward made the soldiers put out the fire which was running across the field in the straw like lighting because everything was so dry and sear from the force of the frost. And so the host marched against the freezing wind throughout that day which was Friday towards a town called le Cateau Cambresis (Kambessi) which was one of the worst and hardest days for frost that the oldest man in the host had ever seen, and there were many men who were over sixty years of age. This day if people can be believed many men on horse and on foot died from sheer cold. Others said that some had lost the use of their limbs from the force of the frost wind. And others said that they had lost the use of their waterpipes and could not pass any water that way until they had got fire and warm water to thaw them. Indeed this was a greater misfortune to some men than to others for in truth I was on a horse riding among men who had little enough round them to keep the cold wind from the body, as I myself. In this company there were old men and young who were on horseback from six o'clock in the morning till nine o'clock at night but I saw none of the afflictions aforesaid happen or fall upon any of them. Still, this matter may be true and might have happened to those stubborn lazy men who had long been sick in those members of a disease and a hurt that it was not easy for doctors to cure, in which places the cold wind struck so severely that the nature of the flesh was unable to strengthen the blood to give natural warmth to the members which had been overcome by the cold, wherefore they were lost, as is treated of before in this work.

The host stayed in and around this place and the next morning they marched towards the town of Saint Quentin which belongs to France, from which a certain number of men in harness emerged to skirmish with the Englishmen. The latter in order to begin the play rode along the wall of the city and past the bailies of the gate in order to entice them out to the field away from the town so that some of the English and Burgundian horsemen who were waiting in ambush to see what the French soldiers would do, whether come out of the town or not, could take them in the flank as they were coming past the town. This they would have done if there had been enough time for as soon as the horsemen of the rearward heard that some of the horsemen from the town had come out to skirmish and that the English archers were not able to stand against them they ran backwards fast which the French espied, and since they had not come far enough from the fortress for the Burgundians to break from their ambush and strike at them the plans of

of a knight called Sir Thomas Wainford that they would take their leave as soon as they saw the light of day. Against this some of their comrades said that it was as well to ask leave of their captains before quitting the camp, for fear of their lives, and that what they were discussing was no less than treason, namely to leave the king's captain on the field with the ordnance and to go off without knowing to their captains, which could not go without punishment. To this these obstinate senseless men answered that it was no worse being hanged in England than dying of cold in France. My master Sir Robert Wingfield heard all this noise and talking and made me get out of my bed where I was as snug as a small pig to listen to the talk and to take note of those men who were making this noise. After a long argument they put their heads down and shut up and I came to my master's tent and told him all about it, after which I laid my head in the straw again. But before I had warmed my bed one of the people next to me got up to make water in the door of the tent or the hall and shouted "Ah sirs, if I had known at the beginning of the night that there would be as much frost and snow as this I would not have taken so much trouble to search my shirt for lice, but I should have hung it out in the wind and let them die of cold, as we shall do if we stay here any longer." To listen to what he was saying I had to get up from my pallet the second time when the man who was in the door of the tent said "If any of you were of the same idea as myself I should shout 'Let us go home, home,'" But because it was now near the dead of night his neighbours told him to lie down till day came, which he did. And as soon as day came they began to talk about their journey to England all through the host and then they shouted out loud 'Home! Home!' especially the men of Essex and Suffolk among whom there were many wealthy farmers who used this confusion to urge on the poor men to go home.

It is certain that the Duke and all the captains who had any sense were amazed at this shouting, not only from shame that the foreigners from Burgundy should see the shiftlessness, the weakness and the unruliness of the English soldiers, but also for fear lest the enemy should get to know of this tumult and fall suddenly upon them. So the sensible men got up and went each to his company to pacify the unruly ones with fair words and promises that they should take their journey back to England the next morning. This made them shut their jaws and silenced their clamour and after the people had been quieted the Duke and his captains went into council to decide which way they should next take with their goods in safety. Next morning the whole host

enemies. During this time grey bearded winter began to show his face in black cold frost wind and short days and long nights which caused the decrepit shivering soldiers to complain and groan to each other. Some said it was too much for them to be there lying on the earth under hedges and bushes dying of cold, another said that he wanted to be home,* in bed with his wife which was a more comfortable place for his head than here. This complaint many of the English and the Welsh made with great weeping and wailing. And yet they had no reason to complain except of their own sluggishness and slovenliness. For there was no lack of food or drink or wood for fire or making huts, and plenty of straw to roof them and to lie on if they had only fetched it. But there was many a man weak in body who preferred from sheer laziness to lie under the hedge rather than take the trouble to make a snug warm hut to keep him from the frost wind and the snow, and they preferred to shiver with cold rather than take the trouble to light a fire, which was all very well known to me, Elis Gruffudd and Sion Dafydd and those who were in Sir Robert Wingfield's tents. On the second day of the frost these were divided into two parts. Some went with the cart to fetch wood, the others stayed at home to make a bank of turf and earth to keep off the wind which was blowing from the East. Inside the bank, after the wood had come they made a big fire. But by the time the fire was hot enough for a man to warm himself by it, none of the men who had taken the trouble to make it could get near enough to warm his paw, because the others would not move from it for fair words or foul. Many young men lay round it all through the night and I saw there one young man who had turned his backside to the fire and turned his stockings down over his knees and taken off his wrappings to warm his feet and legs, and in this way he lay with his back to the fire until the heat had blistered his knees and the soles of his feet, which was an extraordinary sight that a man could be so sluggish as to sleep so soundly that he could not feel his own flesh burning. But however great the cold they did not intend to leave there until getting letters from the King, though there was much murmuring among the common soldiers. At last on Wednesday night there rose a noise and shouting amongst the host and especially around the tents of the Duke and some of the soldiers said they would tarry there no longer and that they would go home willy nilly the next day. This talk spread from there among the men of Suffolk and Norfolk who began to swear mightily in the hall

* The Welsh has *ai ben yn nhin i ymaig*

saw clearly that they had not half enough people to hold so many towns nor a tenth of the artillery and ordinance to fully man one of them. For in Gods truth they had only a very few Cannon balls and less powder because they had decided to blow up certain of the strongest towers that were around the town with gunpowder. After this they took the host and rode back from there by another road to the town of Roy where the Duke heard Mass on New Year's Eve and knighted several gentlemen among whom Master Roger Salsbri of Llyweni was made a knight. While the Duke and the gentlemen were at Mass the host moved from the south to the north side of the town in which the Duke and his gentlemen kept their state until the day was done. Then they went to their tents and the next day they rode towards another town called Nesle (Nael) from which the people fled with all their goods as the inhabitants of Roy had done. And after the host had stayed around and in Nesle for two nights and a day they took their way towards a castle called Bohain (Vohaayn) beneath which i. e. about half way between Corbie and Bohain there was a bridge across the river Somme towards which the host went quickly, but before they could come near the place the French broke down the bridge and so they had to stay for three nights and two days on the banks of the river till the bridge was repaired. After this they roused the host and went across the river and shortly after the Duke of Suffolk sent Lord Sandys with new tales to the King about this expedition which the Duke repented a little later as will be shown more fully in this work when the time comes. Then the Duke and his host went on their way to a castle called Bouchain which, after the Duke had sent some people with artillery to lay siege to it, surrendered to the Duke. At this time letters came to the Duke from the King to say that his grace was anxious for them to make the best provisions possible and to spend the winter within the dominions of the king of France and saying that Lord Curson (Kwrsswn) was coming with much artillery and ordnance and money to pay the soldiers and this news was well received by the gentlemen of England and those men of the common soldiers who had set their mind on being men of war, but those who were thinking of their wives and children and husbandry and those cowardly men with base hearts who would rather go home to their mothers and fathers, some to plough and thresh, others to follow the cart and hedge and dig and live niggardly, these were unwilling and were angry with anyone who talked about staying there during the winter. Still the Duke and his council took the trouble to note down the towns and castles in those parts which could receive them and protect the soldiers from their

to fill the town full of every kind of fodder for men and beasts, which was easy to do because the country was full of wine and wheat and the fattest pigs ever a man saw. Because the country was so full of every kind of thing that pertains to the nourishment of man it is called *Seint teerr* which is the blessed land, or paradise. And in Gods truth, had the host been as well supplied with everything that is necessary for a host to hold the town as they were with provisions and men of good heart and enterprise they could have spent the winter there, without thanks to the king of France and all his people. And yet they were within thirty miles of Paris, which is the queen of all the towns and cities of France. In spite of this the French did not try to break a lance with any of them more than once or twice, which was a great wonder, considering that there was only a small army of English and Burgundians and that there was a great number of French soldiers both horse and foot defending the towns around namely Amiens (Amias), Doullens and Corbie, besides the castles in those districts which belonged to France. The reason for this lack of interference in the opinion of some of the Englishmen, was that it was for fear of the Duke of Bourbon who was one of the ablest men in France and next in blood to the Crown, who had turned against the king as aforesaid, and who, if the opinion of the people was to be trusted, had agreed with the Cardinal of York during the meeting at Guisnes to help the English to win France whenever the King of England should send his host to conquer it. But it is unlikely that this story is true because the aforesaid Duke took to his heels and fled from France in fear of his life before the English came near to Ancres. After this the King of France rode to Lyons de la Rhone with all his rout before and after him and there he stayed lest the Duke should come with a host from Italy to make havoc in France. Therefore he did not make much haste to turn back to drive the English from his kingdom since he was sufficiently familiar with them to know that they would do no harm in the world, only take their sport in strolling around the countryside and eating wheaten bread and meat and fish and drinking wine, which was a great treat for the English common people. And as soon as winter came it was sure that they would keep to their custom as they were used to do, which was true. For as soon as the French had left Montdidier the Duke of Suffolk called his council around him to find out what they would advise, whether to take their way further into France or not at that time, or to try to keep that town with Bray and Ancres so that help and succour in men and provisions and artillery could come to them along that way. But after having considered the matter well they

Lihon (Lihwn) which was so large that it lodged the whole host, horse and foot in houses, at which place the captains were in great fear of fire balls. From this place they went on their way till they came to Montdidier near which the English horsemen took some of the French horsemen prisoner. That afternoon siege was laid to the town and the second night after dark Christopher Morus set artillery against the wall and shot very rapidly. During this time, I know not why, one of the finest houses in the town caught fire and there was a great commotion on account of which they asked for a truce to talk with the Duke. By this time a great breach had been made in the wall and the people were ready to make the assault but although a great breach had been made in the wall, still the ditch was very deep and hard to fill, therefore the duke and his council were the more ready to allow a truce with the French. These after some parley agreed to surrender the town provided they could leave with all their goods which they were allowed to do. Soon after the horsemen rode out of the town and the footmen went in front with much of their property. The merchants and men of substance had fled with all their wealth two or three days before. After the French had left, some of the English and Burgundian soldiers came into the town. Some of them had some spoil in clothes and furniture from the town, which was built on the side of a hill above a gorge along which a stream of running water was flowing. The foundations of the town were laid on a rock of white limestone which was quarried under the town so that one could go through any of the caves from one side of the town to the other. This is known to me Elis Gruffydd and Sion ap Dafydd ap Rhys ap Gruffydd of Gronnant in Flintshire in North Wales who were there and took some men from the town and went through the ashes that were smouldering in the courtyard of one of the houses which had caught fire the night before, to the entrance of a cave they saw leading into the earth to try to get plunder inside it thinking that no one would try to go in that way, in which they were right. After they had come into the upper cellar which was under a loft they only found two or three vessels full of wine. From there they took a wide stair going lower down which they followed till they reached the floor of the cave which was very spacious. Through this cave and others they went till they came underground to the other end of the town where they found a great deal of worldly wealth, had there been any means of carrying it from there, wine, honey leather, and pieces of pewter, and salt, of which some of the lower caves were full. Indeed there was a great deal of grain in granaries in the town and therefore some of the captains wanted

created great discontent among the men on the south side of the river who put the whole blame on the Welshmen although there were twice as many Englishmen more eager to turn home than the Welshmen, but as the proverb says 'The dog who is to be killed, is the one that kills the sheep'. * At this time there was plenty of talk in the council, for some wanted to hang all the Welshmen there, others to kill them all, but as it happened the matter was settled when they turned round and came to the town, where most of them spent the night. During that night there was a shortage of bread among the host but no want of cattle and sheep and the fattest pigs I ever saw and plenty of wine and corn to make bread. Next morning the Duke sent his heralds to ride round the country and make proclamations to show that every man of the commons of the country would have a safeconduct to come to the host with bread and cheese and be paid for it as a result of which before ten o'clock the next day there were bread markets in several parts of the host, with no one asking its price. In this place the Duke and his people stayed three days waiting for the men who were coming after them from Burgundy with provisions. During this time the Duke sent to fetch those men he had left to hold the town of Ancres and all his people to the north of the town of Bray, and as soon as he had collected them on the south bank of the river, he caused the bridge to be broken down and broke up all the boats which could be collected on that side of the river. During this time the French took some of the Englishmen prisoners, who like fools had been wandering about the country collecting sheep, pigs and cattle, and took them to the town of Corbie. After the generals had taken counsel as to which way they would go they prepared a proclamation to be made in the name of the King and the Emperor to order everybody to take courage and arm themselves to withstand their enemies who were in front, behind, and all around them, and that there was no way in the world to fly and find safety except through stout hearts, which made those men who were feigning sickness put their hands on their breasts and ask for arms. Then the Duke and the earl mustered their host, which counting the waggoners and all, was not more than fourteen thousand of all sorts, of which there had come as many as ten thousand in harness from England with the Duke and five thousand with the Count of Egmont Buren, but their number had decreased greatly by this time. Still like men of good courage they took the host and rode and marched on towards a fortified town called Montdidier. On this expedition they spent a night in an open town called

* "Give a dog a bad name and hang him"

which flows on the south side of the town. As soon as the French heard that the Englishmen had entered the castle they set fire to the gate of the town and the street, which was very narrow, and began to break down the bridge so that the Englishmen would not be able to follow them any further. But before they had cut the bridge, the Englishmen had won the town and had begun to bicker with them on the bridge which they abandoned, and turned their backs on their enemies and took to their heels and fled fast along a great causeway of stone that stretched between two watery marshes, from the town towards France. This road was very narrow and the Englishmen pursued the Frenchmen very fast till they came to the further end of the causeway where there were two strong baillies of turf, one on each side of the road, in which were two brass serpents to guard it. But whether for lack of powder and shot or for fear of killing their own people they did not fire a single shot and the Englishmen kept the place. By this time the Duke and all his host had arrived in front of the gate that lies to the north of the town which the men of the town had closed with earth and dung and stones. This the workmen had great trouble to clear in order to open it, and through it the horsemen and the artillery and the baggage passed and went across the river on to French ground. During this time the footmen of the rearward were standing in front of the town on the slope of a watery hill where many men had water in their boots, and for this reason everybody was complaining because they could see night coming and the weather wet and they likely to stand in their ranks through the greater part of the night unless they crossed the river, or so the story went among those in the field. So the soldiers began to talk and to say that if they were not allowed to come to the town in time to stay there through the night, they would swear to retrace their steps to the place where they had had shelter the night before. Some Welshmen from South Wales who were under Lord Ferrers, among whom were many unruly men, heard this and these took the matter so seriously that they sent round word to cry all together 'On to the town' 'On to the town' which they all did, while beginning to turn back. Lord Ferrers and the captains of that end of the host perceived this and had trouble enough to pacify the unruly ones, concerning which word went swiftly to the Duke of Suffolk and the other end of the host, which was on the other side of the river where the camp and tents had been pitched for the night. This was explained to him in the worst possible way by saying that it was the Welshmen who were turning their faces towards England and saying they would not cross the river Somme. These tales

"In the following July the King of England sent a number of men in harness, on horse and on foot, to make war in France and the king appointed Sir Charles Brandon Duke of Suffolk, as captain or leader (pen teulu) of this army, who took his way from his palace in Southwark to go to Dover on St. Bartholomew's day or the twenty fourth day of August 1523. A few days later he and all his people, noble and common, landed safely in Calais, where people were dying from small pox. Therefore the Duke ordered all his captains to pitch their tents in the fields to the south of Calais, and there they lay for a month waiting letters from the king and his council to tell them which way they should take to ravage France, in which matter the Cardinal of York took his time, for everything passed through his hands. During this time Lord Berkeley who was lieutenant of the castle of Calais died, and the post was given to Sir Robert Wingfield. And during this time there was much skirmishing between the Englishmen and the French. After the king had sent his letters to the Duke to show him which way he should take on his expedition into France, the Duke gathered his army and went forward by stages until he came to the township near St. Omer called Esqueredes (Ackword) where the Duke and his host lay three or four days sitting with his council to consult about sending those people who were sick to Calais. Among these was many a man who made himself appear worse than he really was in order to try to go home. Indeed, many a man was unwilling to go further because the weather was wet and winter was beginning to show his face. Still the Duke took his men and passed on from there by Terouenne (Terwain) and through a town called Arras (Errei) and from there by a French town which the Lord Admiral had destroyed the year before but which they had made much stronger since. The name of the town is Doullens (Dorlans) and from there he took his host, he and Earl Powers who had joined his people to the English host, and from there they rode to a walled town called Ancres (Engkyr) which surrendered to the English and Burgundians and outside which the whole host stayed that night and all the next day. When night fell the Duke of Suffolk ordered some of his people horse, foot and artillery, to assault the town of Bray. These came to the fortress in the dead of night and planted certain great guns which gave the fortress such a good day as to shatter gaps in the wall so that men could scale them and assault the town, which the English soldiers did very gallantly. The men of the town did not stand an instant but gave up the struggle and fled after the rest of the people who were very hurriedly carrying their goods from the town and taking them across the river Somme,

Suffolk's Expedition to Montdidier 1523

by

M. B. DAVIES

Introductory Note.

This is an account of one of the campaigns undertaken in France by Henry VIII in pursuit of his ambition to play the Arbiter of the Balance of Power in Europe. The plan aimed at an invasion of France in which the English army would be reinforced by the Emperor Charles. As will be seen it came to nothing, because the Emperor merely used the English army as a covering force for his campaign in Italy and the Imperialist reinforcements when they arrived were insufficient. The Emperor's explanation was that most of his force had been made over to the renegade Constable of Bourbon and he suggested a rendez-vous near Compiègne to which Henry consented. But the Constable's forces mutinied and dispersed, so that there was nothing for the English army which had got as far as Montdidier to do, but to disperse also.

The account which follows is a translation from a Welsh Ms. now in the Welsh National Library written by a certain Elis Gruffydd. It is part of a History of England and Wales from the time of William the Conqueror to the sixth year of the reign of Edward VI, and the last 292 folios deal with the reign of Henry VIII. Gruffydd was one of those Welshmen who left Wales to seek his fortune abroad. He says that he entered on his wages as one of the retinue of Calais on the 27th January 1529, but he had evidently, as this extract shows, been on service before. The interest of the Ms. lies in the fact that apart from the racy idiomatic character of the style especially when he is writing of contemporary matters, much of what he describes is written from the standpoint of an eyewitness and has therefore a good deal of value from the historical point of view.

In the following extract for example his account of the mutiny of the troops contradicts that given by Hall and quoted by Oman in his History of the Art of War in the 16th Century.

In Gruffydd's account there are two outbreaks, one started by the Welsh who had cold feet from standing in water outside Montdidier, and the second on the way back by the men of Suffolk and Essex who cried 'Home, home'. Oman says the Welsh were responsible for the second, but Gruffydd was there and presumably he should know. It is passages like this, with their vivid, and idiomatic phrasing which make the Ms. valuable.

Gruffydd also served in the campaign of 1543 of which he gives an even longer and more detailed description. There are two other Mss. compiled by him apparently during the term of his service in Calais, one of which is a book of Welsh poetry, and the other a translation of various contemporary English books on medicine.

In the translation I have put the names of the places mentioned with the Welsh equivalent in brackets. Sir Robert Wingfield, under whom Gruffydd was serving, was made deputy of Calais after having been used by Wolsey on several diplomatic missions. The Dictionary of National Biography says that he took no part in the campaign though he was appointed to a command by his cousin the Duke of Suffolk. This as will be seen is not so.

matière à des temps différents, le type total demeurant toutefois, mais dans certaines limites, indépendant d'une pareille variation.

L'identité de l'organisme vivant qui se maintient dans le temps et dans l'espace n'est ni une identité logique, ni une identité statique et inchangée, mais dynamique et progressive. Identité dynamique, car tout nouvel équilibre instauré diffère de l'équilibre précédent en raison des modifications qui résultent de tout agent de perturbation et qui ne sont pas complètement annulées par les systèmes compensateurs partiels, mais plus ou moins atténuées. Ces modifications, dont l'effet plus ou moins durable subsiste toujours, constituent l'expérience individuelle de l'organisme et retentissent sur les dispositions innées, tout en étant conditionnées par elles, pour les modifier dans un sens ou dans un autre.

Ces possibilités de modification de l'organisme vivant tiennent à l'extrême complexité de la composition chimique de la matière vivante et de son organisation en un système individuel spatio-temporel. Cette plasticité de la matière vivante avec ce qu'elle comporte de variabilité et d'adaptation est une donnée en quelque sorte primitive pour l'étude du comportement.

Youssef Mourad

quelque chose d'aussi impensable qu'un organisme qui resterait immuable et qui ne subirait aucun changement. L'organisme se développe dans l'espace et dans le temps pour réaliser un type biologique propre. Une fois conçu, il se développe, se modifie, atteint sa maturité, puis dégénère; mais au cours de ces étapes successives et jusqu'au moment de sa dissolution, il obéit à une loi de développement continu et en vertu de son organisation biologique propre il conserve une identité générale qui fait qu'on peut parler du même organisme en dépit des changements qu'il subit. Cette identité de l'individu biologique diffère de l'identité statique d'un objet inerte ou d'un système physique ou chimique clos. Ce n'est pas une identité de matière, ni une identité de forme stable, mais l'identité réalisée par une unité spatio-temporelle qui se développe dans une direction donnée, grâce à des modifications qui sont régies par un mécanisme régulateur et compensateur interne.

Résumé.—Les considérations sommaires qui précèdent nous amènent à donner de l'organisme vivant la définition suivante : Un organisme vivant est un système dynamique tensionnel qui dans des conditions internes et externes qui changent constamment, tend à réaliser un type spécifique et à maintenir son identité fonctionnelle et biologique grâce à une organisation interne déterminée.

C'est un système dynamique, parce qu'il est agencé de telle sorte qu'à l'action de certains facteurs de changement, il oppose celle de certains facteurs de modération et de compensation en vue d'établir un équilibre proprement biologique qui se caractérise à la fois par son instabilité et son rétablissement rapide, et cela dans une direction progressive déterminée.

Il est tensionnel, en ce sens qu'il contient de grandes réserves d'énergie potentielle, et qu'il peut diriger, modérer ou inhiber ses dépenses énergétiques et réparer de lui-même ses pertes d'énergie.

La constance du type biologique est conditionnée surtout par la constance du milieu interne laquelle est réalisée par le fonctionnement de certains systèmes subsidiaires très complexes qui agissent comme des amortisseurs et des régulateurs. L'action de ces systèmes a pour but, en particulier, de maintenir constante la composition chimique du milieu vital.

Les besoins de l'organisme sont dans une grande mesure conditionnés par le milieu vital interne.

Le système biologique diffère de la majorité des systèmes physiques et chimiques en ce qu'il peut être composé de particules différentes de

subsidiaries qui sont régis par la loi de Le Châtelier. Mais pour l'organisme pris dans son ensemble et en fonction du cycle qu'il parcourt, croissance, maturité, vieillesse, le principe de Le Châtelier doit subir une légère modification et s'énoncer ainsi : "Si un changement se produit dans un des facteurs qui déterminent une condition d'équilibre dynamique, l'équilibre se modifie d'une manière qui tend à atténuer l'effet de ce changement."

La différence entre ce second principe et le principe de Le Châtelier est d'une importance capitale. Ce second principe, en effet, revient à dire que tout changement modifie l'organisme, et que le nouvel équilibre établi est différent de l'ancien. Cette modification dans la mesure où elle retentit sur le comportement extérieur, constitue pour l'individu une partie de son expérience. Cette modification, et partant ce que l'on appelle la plasticité de la matière vivante, n'est possible que grâce à la nature de l'équilibre dynamique propre à l'organisme vivant et qui est un équilibre tensionnel, non entre des particules de matière, mais entre des processus qui se déroulent dans l'espace et dans le temps¹.

Mais cette modification de l'organisme va de pair avec sa conservation. Ces deux aspects sont comolémentaires l'un de l'autre. Un organisme qui changerait au point d'être autre à chaque instant serait

(1) La plasticité de l'organisme vivant se manifeste sur le plan organique interne, sur le plane sensoriel et sur la plan moteur.

La constance et la régulation du milieu interne : sang, lymphe, liquides interstitiels, liquide céphalo-rachidien, sont assurées par de multiples mécanismes : chimiques, hormonaux et nerveux. Les limites dans lesquelles les variations du milieu interne peuvent s'accomplir sans entraîner de dérèglements graves sont variables. Les invertébrés supérieurs et les vertébrés poikilothermes (Poissons, Batraciens et Reptiles, appelés improprement animaux à sang froid) ont une résistance plus grande aux variations que les animaux homéothermes (Oiseaux et Mammifères). Chez ces derniers, un des phénomènes de régulation le plus délicat est le maintien de la composition chimique du sang et de son état physico-chimique (constance du pH). W. B. Cannon. *The wisdom of the body*. 1932.

Un exemple de plasticité sensorielle est la réorientation du champ de la vision chez des hémianopsiques. Une moitié du champ de la vision disparaît et un nouveau centre du champ se forme dans l'autre moitié.

La plasticité motrice est manifeste dans les cas d'amputation. Un chien, amputé d'une ou de deux pattes, coordonne immédiatement, après la cicatrisation de ses blessures et sans aucun apprentissage le mouvement de ses autres membres moteurs. La coordination se fait toujours selon un rythme complètement nouveau. Il n'existe pas de centres rigides et fixes de la coordination des mouvements. La plasticité du système nerveux est surtout mise en lumière dans les cas pathologiques. (BETHE et WOITAS, 1930). Cf. D. Katz. *Animals and Men*, 1936.

contrairement aux processus physico-chimiques qui doivent nécessairement suivre une direction déterminée. Il est vrai que la Physique du XXème siècle tend par ses conceptions générales à atténuer la rigidité d'un tel principe et dans la mesure où elle reconnaît que les lois physiques ne sont que des lois statistiques, elle substitue la probabilité à la certitude. Il n'en demeure pas moins, qu'à notre échelle spatio-temporelle, le déterminisme des processus physiques est mieux établi et plus simple en apparence que le déterminisme des processus biologiques.

Il est surtout malaisé de prévoir dans quel sens se produiront les manifestations du comportement, à cause du flux incessant des changements qui rompent à chaque instant un équilibre qui n'est jamais achevé. En effet, l'organisme vivant ne réalise jamais un état d'équilibre stable. Cet état d'équilibre stable, s'il existait, serait d'ordre purement physico-chimique et correspondrait à la mort. L'état d'équilibre réalisé par l'organisme vivant est un équilibre qui se qualifierait plutôt de dynamique et qui est caractérisé par la constance de certains facteurs qui maintiennent le système en l'adaptant à d'autres facteurs internes et externes qui changent rapidement.

En dépit ou plutôt en raison de ces ruptures d'équilibre et des rétablissements approchés et successifs de nouveaux équilibres, l'organisme se maintient tout au long de son développement jusqu'à ce que l'équilibre biologique soit rompu irrémédiablement et fasse place à un équilibre physico-chimique qui n'est plus celui d'un individu, mais d'un agrégat de particules matérielles dissociées. Tant que l'équilibre biologique avec ses mécanismes propres se maintient, l'organisme vivant conserve son identité individuelle et se comporte comme s'il tendait à maintenir cette identité ou en d'autres termes à persévérer dans son existence. Un système chimique par exemple qui se trouve en équilibre stable se maintient tant que ses réserves internes d'énergie ne sont point épuisées. Il obéit à la loi de Le Châtelier qui dit que si un changement se produit dans un des facteurs qui déterminent une condition d'équilibre, l'équilibre se modifie d'une manière qui tend à annuler l'effet de ce changement. Ce même principe s'applique aussi au système vivant avec cette différence que l'organisme est un système qui ne peut être isolé du milieu extérieur alors que l'on peut réaliser expérimentalement des systèmes chimiques qui constituent, pendant un laps de temps plus ou moins grand, des tous indépendants. D'ailleurs cette dépendance étroite et continue à l'égard du milieu extérieur est une condition nécessaire de la fonction à la fois transformatrice d'énergie, réparatrice et régulatrice de l'organisme vivant. A l'intérieur de l'organisme vivant, se trouvent d'autres systèmes

Cette tendance vers la réalisation d'un type, vers un équilibre dynamique optimum, n'est pas une cause extérieure qui s'ajouterait aux causes physiques, c'est une finalité immanente qui n'est que l'expression de ces causes physico-chimiques mêmes, qui, à des degrés divers et avec des variations de complexité, se retrouvent à l'œuvre dans certains phénomènes physiques et chimiques qui présentent le caractère de système et de forme et qui se retrouvent pareillement dans l'organisme vivant qui présente le type de système le plus achevé.

La perpétuation du type biologique aux diverses étapes de son développement et au sein d'un milieu extérieur qui exerce des influences constantes, et le maintien d'un équilibre biologique à l'intérieur du système qu'est l'organisme vivant ne font pas que l'organisme puisse être considéré comme un système total et isolé. L'organisme fait partie d'un milieu plus large qui inclut le milieu extérieur avec lequel l'organisme a de constants échanges de matière et d'énergie. Considérer l'organisme comme un système isolé serait une abstraction qui sous prétexte de simplifier l'étude de son comportement aboutirait à des conclusions et à des résultats erronés. Ici, la méthode employée en physique et qui s'accommode d'une certaine simplification et fait abstraction de certains facteurs pour établir des lois mathématiques qui ne s'appliquent qu'à des cas théoriques et idéaux serait inadéquate. D'ailleurs les fonctions de l'organisme vivant, irritabilité, motilité et reproduction, le maintiennent en étroit rapport avec son milieu extérieur. Ces trois fonctions qui sont conditionnées dans une certaine mesure par le milieu extérieur, le sont surtout par un facteur d'ordre plus primitif qui se confond avec les besoins de l'organisme. Ces besoins organiques sont l'expression directe du milieu intérieur. Le rôle du milieu intérieur, sur lequel Claude Bernard avait déjà particulièrement insisté, est dans la majorité des cas premier et initial, car c'est lui qui sensibilise l'organisme à l'égard du milieu extérieur. Cette priorité du milieu intérieur, comme la priorité de l'organisme à l'égard de ses parties constitutives sont la véritable clef pour la compréhension du comportement animal et humain.

C'est à cause des caractéristiques propres que présentent les échanges constants entre les deux milieux : rôle initiateur ou perturbateur du milieu interne, modes d'action et de réaction de l'organisme et des organes qui y sont intégrés, multiplicité d'aspects et variations du milieu extérieur, que les lois du comportement sont difficiles à établir. Il devient par conséquent malaisé, et dans bien des cas impossible, de prédire dans quelle direction se dérouleront les processus du comportement,

Cette identité dans l'altération, cette perpétuation du type biologique à travers le changement, montrent la priorité de l'organisme sur les éléments qui le composent. Ces éléments acquièrent un mode spécial d'existence par leur intégration dans l'ensemble. Ce n'est pas la somme des éléments qui forme l'ensemble, mais c'est le tout qui organise les parties; et ce sont les relations internes qui existent entre ces éléments pris un à un et entre eux et l'organisme pris dans son ensemble qui font que tel organisme est ce qu'il est. Un élément séparé n'est plus le même que quand il était intégré dans le tout. L'organisme qui est ainsi une véritable structure et non un agrégat d'éléments satisfait à un haut degré aux critères de la Gestalt.¹ Non seulement il est plus et autre chose que la somme de ses parties, mais il est aussi transposable en ce sens qu'il conserve ses propriétés caractéristiques et expressives tout au cours de son développement et qu'il est relativement indépendant vis à vis des variations du milieu extérieur. La matière extérieure ingérée n'est pas simplement juxtaposée, mais elle est assimilée et modifiée non seulement en conformité avec sa nature propre, mais selon les besoins de l'organisme en vue du maintien de la structure et de la forme générales. Les moyens mis à contribution peuvent varier, mais la fin à réaliser reste la même et cette fin dépend strictement des besoins de l'organisme qui découlent de son organisation spécifique et des relations internes qui existent entre ses parties. Dans l'économie générale de l'organisme, le facteur final est un fait réel et il est agissant dans la mesure où l'on peut dire que les parties de l'organisme sont déterminées par l'ensemble. Si nous considérons, par exemple, le cas du développement embryonnaire et larvaire d'un animal jusqu'à l'étape de la reproduction, nous nous trouvons en présence d'une série d'étapes complètement différentes. L'état adulte se présente comme la fin vers laquelle tend le développement au moyen de ces diverses étapes successive. Ces moyens qui sont les étapes du développement sont en un sens déterminés par le tout qui est la formation de l'individu adulte. K. E. von Baer² comparait déjà, il y a plus d'un siècle, le développement de l'individu à une mélodie. De même que dans une mélodie, la conception du tout par le créateur de la mélodie est antérieure à celle des parties et détermine le choix de ces parties et de leur agencement dans un système d'influences réciproques; de même, l'état adulte d'un individu est un tout qui détermine les diverses phases du développement.

1. R. Malthus. Das Gestaltproblem. München 1929.

2. Cité par F. Alverdes. The psychology of animals, p. 9. London 1932.

D'autre part, la méthode synthétique de Pavlov a eu aussi pour résultat d'exagérer le rôle des mécanismes réflexes dans les réactions motrices en les désintégrant du complexe total. Coghill insiste sur la prédominance du système total sur les parties qui le composent et se réfère aux travaux de R. Magnus¹ sur les réactions posturales de l'animal et où il démontre la subordination des réflexes à l'activité totale de l'organisme. Ce point a été aussi mis en lumière par M. Minkowski² dans ses études sur le développement des mouvements chez le fœtus humain.

La subordination des parties au tout considéré dans son activité dynamique s'exprime aussi par la subordination des diverses fonctions à l'organisme pris dans son ensemble. H. Wallon³ discutant la notion de fonction formule un jugement qui confirme et éclaire les résultats auxquels sont arrivés Coghill, Magnus, et Minkowski. "... La fonction est en elle-même une notion systématique et abstraite. Sans doute, elle offre en un sens plus de réalité que l'organe, puisqu'elle est sa raison d'être dynamique, son fondement et son explication biologiques. Par contre elle en a moins que l'organisme où elle se développe, car il répond à des nécessités particulières et à des formes déterminées d'existence, auxquelles elle reste subordonnée comme un élément dans l'ensemble. Le développement d'un être n'est pas celui de ses fonctions, mais celui de son être adulte" (p. 305).

Maintien de l'identité à travers le changement.— Un second caractère de l'organisme, étroitement lié à celui de l'individualité une et totale est celui de son opposition au monde extérieur. L'organisme a un dedans et un dehors, le dehors étant formé par tout ce qui constitue le milieu matériel externe. Quoiqu'il soit difficile de tracer la ligne de séparation entre l'organisme et son milieu, il n'en demeure pas moins que cette distinction existe. Certes, entre l'organisme et le milieu extérieur, il y a un échange continu de matière et d'énergie, mais en dépit de ces échanges l'organisme se développe suivant les caractéristiques de son type morphologique et fonctionnel et demeure plus ou moins le même, et dans certaines limites, indépendamment des variations du milieu extérieur.

1. R. Magnus. Animal posture. Coronian Lectures. Proc. Roy. Soc. (B), 98 (B), 1925.

2. M. Minkowski. Sur les mouvements, les réflexes et les réactions musculaires du fœtus humain de 2 à 5 mois et leurs relations avec le système nerveux fœtal. Rev. Neur. Vol. 37, pp. 1105—1118, 1235—1250.

3. H. Wallon. Le problème biologique de la conscience. in Nouveau Traité de Psychologie par G. Dumas. Tome I, pp. 293—329. Cf. aussi H. Wallon, L'évolution psychologique de l'enfant. Paris, 1941.

système nerveux et de ses parties et celui du comportement. Ce dernier avec ses caractères typiques ne se présente pas tout d'abord d'une manière fragmentaire et désordonnée pour s'intégrer ensuite, mais il est l'expansion progressive d'une forme totale parfaitement intégrée dès le début et c'est au cours du développement que se produit l'individuation des structures partielles qui deviennent peu à peu et à des degrés différents discrets. Même avant l'apparition du système nerveux l'embryon est parfaitement intégré. Avant l'intégration due au système nerveux il existe un processus non-nerveux d'intégration. Ce processus se retrouve chez les organismes inférieurs qui ne possèdent pas de système nerveux. Ces organismes comme les organismes supérieurs présentent une propriété de polarisation. L'activité glandulaire et musculaire se fait dans certaines directions marquées par des axes physiologiques, des lignes de clivage. Cette notion de "gradients physiologiques" a été développée particulièrement par C. M. Child dans son ouvrage sur les fondements physiologiques du comportement.¹

C'est ce principe de polarité que possède l'organisme et ses tissus qui rend l'animal capable de diriger ses forces de telle manière qu'il se place dans une relation appropriée avec son milieu. Cette polarité de l'animal, insiste Coghill, n'est pas simplement une affaire de différences structurales ou physiologiques ordinaires entre les parties; elle est l'expression de forces en action, elle est, en un mot, dynamique.

C'est grâce à ce phénomène de polarisation axiale que les organismes inférieurs dépourvus de système nerveux présentent eux-aussi le caractère d'unité et d'intégration des organismes vivants en général. C'est aussi ce phénomène qui préside au développement du système nerveux comme il a présidé à celui des cellules glandulaires et musculaires au cours de l'évolution de l'espèce.

Ainsi le développement est commandé par une totalité qui présente dès le début un caractère d'intégration : la partie est toujours en relation avec le tout de telle sorte qu'à chaque étape de la croissance de l'individu nous avons affaire non à une somme arithmétique de parties anatomiques, mais à une unité organisée. Coghill dénonce comme démesurée l'importance accordée au réflexe. Les travaux de Sherrington et de ses collaborateurs, par leur méthode d'étude analytique, ont contribué à mettre le réflexe tellement en relief, que sa distinction et son autonomie ont été surestimées relativement au comportement typique pris comme un tout.

1. C. M. Child. *Physiological foundations of behavior*. New York 1929.

Les formes physiques satisfont ainsi au double critère qu'Ehrenfels¹ avait établi pour les mélodies et les figures : 1°) Une forme est autre chose ou quelque chose de plus que la somme de ses parties. 2°) Elle est transposable. A ces deux critères d'Ehrenfels, Köhler ajoute un troisième : Ce qui caractérise une collection sommative d'éléments c'est que ces éléments restent identiques à eux-mêmes et ne subissent aucune altération ; tandis que dans une "Gestalt" les éléments qui la forment deviennent autres par leur intégration et par les relations qui découlent de cette intégration. Chaque élément est déterminé par sa place dans le tout et son déplacement modifie cet élément et les autres éléments du système.

Les propriétés que nous avons reconnues au système en général : propriétés de l'ensemble qui ne sont pas la somme des propriétés des parties, mais qui découlent des relations spéciales qui naissent de l'organisation de ces parties à l'intérieur du tout et ensuite la tendance que manifeste tout système à se conserver et à compenser les changements perturbateurs en vue du rétablissement de l'ancien équilibre ou d'un nouvel équilibre qui ne modifie pas l'aspect général du système dans le temps et dans l'espace, se retrouvent, mais avec une plus grande complexité, dans l'organisme vivant.

L'organisme vivant; son caractère d'unité et d'intégration.— L'organisme vivant présente par excellence la réalisation de la relation : pluralité dans l'unité. Les connexions qui existent entre les diverses parties de l'organisme, la subordination des parties au tout font qu'on a affaire à un individu, c'est-à-dire à un tout ou à une unité qui ne peut se fragmenter ni se diviser sans perdre son caractère spécifique. Ces connexions des diverses parties entre elles sont à la fois d'ordre structural et fonctionnel. Dans les organismes suffisamment évolués, la totalité est réalisée par le système nerveux. Ce point a été mis en lumière par les travaux de Sherrington² et mis à contribution par les théoriciens de l'école organiciste.³ Dans son étude sur le développement de *Pamblystoma*, Coghill⁴ a montré l'étroite corrélation qui s'établit entre le développement du

1. Ch. v. Ehrenfels, Ueber Gestaltqualitäten. Viert. f. wiss. Phil., 1890, p. 249—292.

2. Ch. Sherrington. The integrative action of the nervous system. 1911.

3. W. E. Ritter. The unity of the organism. 1919.—Une bibliographie étendue des travaux de l'école organiciste moderne est donnée par W. M. Wheeler dans son livre : "Emergent Evolution and the development of societies". 1928.

4. G. E. Coghill. Anatomy and the problem of behavior. 1929 Cf. Youssef Mourad. L'Eveil de l'Intelligence, Paris 1939. pp. 90—98.

changements internes peuvent se produire, mais sous ces changements la permanence du tout doit être sauvegardée sinon le système est détruit. Il faut que les relations fondamentales qui maintiennent l'unité du système ne soit pas altérées en dépit des changements internes, et c'est dans cette mesure qu'on peut parler d'un système qui reste le même dans le temps et dans l'espace. La nature inorganique présente des cas où les relations internes qui existent entre les parties du système soient telles que toute menace de changement est suivi automatiquement par des changements de compensation qui tendent à conserver constant le système menacé et ce dans certaines conditions de température et de pression.

Mais cette tendance à la conservation n'est pas la propriété fondamentale que présente un système, ce n'est qu'une propriété dérivée. Si grâce aux relations internes que soutiennent entre eux les éléments du système, celui-ci se maintient en équilibre avec le minimum de dépense d'énergie, les éléments à leur tour sont modifiés par leur position à l'intérieur du système. Si ces éléments sont isolables logiquement, ils ne peuvent l'être en fait, sinon l'intégrité du système est menacée. Non seulement la soustraction d'un ou de plusieurs éléments, détruit le système, mais certains déplacements partiels suffisent. Le système ne peut donc être considéré comme une sommation de parties discrètes, il présente de nouvelles propriétés qui ne peuvent s'expliquer par la propriété de chacun de ses éléments et qui sont dues à l'organisation des éléments et à leur mode de connexion à l'intérieur du système. La notion de système se rapproche ainsi de celle de la forme telle que l'entendent les Gestaltistes. Köhler¹ a étudié de près la propriété des systèmes physiques en équilibre. Il a démontré qu'il existe des faits physiques qui présentent les caractères des formes telles qu'elles sont définies dans la psychologie de l'école. Ces systèmes physiques manifestent des propriétés d'ensemble qui contrastent avec les propriétés des parties. Ils sont plus que la somme de leurs parties et ne sont pas additifs. De plus, ils sont transposables, c'est à dire que les propriétés du tout sont indépendantes de la matière particulière qui le compose et des valeurs quantitatives qui sont en jeu, tant que les relations nécessaires à la formation du système subsistent.

1. Cf. à ce sujet l'ouvrage de W. Köhler : *Die physischen Gestalten in Ruhe und im stationären Zustand, Eine naturphilosophische Untersuchung*, Erlangen, 1920. Un résumé détaillé de cet ouvrage a paru en anglais dans l'ouvrage de W. D. Ellis, *A source book of Gestalt Psychology*. Kegan Paul, London 1938.

dans leurs études l'importance qu'il mérite, et sa signification profonde a échappé à une méthode exclusive et systématique d'analyse.

Pour ne pas maintenir une coupure trop tranchée entre le monde inorganique et le monde organique, on a cherché à établir plutôt les propriétés communes à ces deux mondes. L'observation courante a toujours constaté la communauté de certaines propriétés telles que l'inertie, la solidité, la pesanteur. Ces propriétés générales de la matière ont justifié aux yeux des mécanistes l'application universalisée des lois physico-chimiques, telles qu'elles ont été établies par la méthode analytique, à tous les faits de la nature. Mais de bonne heure, la biologie a reconnu à l'organisme vivant des propriétés d'ensemble que l'analyse faisait disparaître, mais qui ne s'imposaient pas moins à l'observation du savant. Les notions de système, de forme, de tension, de dynamisme auxquelles ont eu recours philosophes et savants exprimaient d'une manière plus ou moins claire l'existence de ces propriétés qui résistaient à toute analyse.

Mais l'observation de certains faits physiques a montré que l'organisation n'est pas une propriétés des seuls êtres vivants, mais qu'elle se retrouve dans la nature entière, à diverses échelles et avec plus ou moins de complexité. Non seulement en chimie, mais en physique aussi on rencontre des systèmes qui présentent de grandes analogies avec les systèmes vivants. Mais il convient de faire remarquer que cette similitude qui rend plus grande la continuité entre le monde inorganique et le monde organique ne doit pas détruire l'autonomie relative de chacune des sciences de la nature; elle contribuera tout au moins à donner un fondement plus large et plus stable aux recherches biologiques et psychologiques qui concurremment avec la méthode analytique tendront à donner une description aussi complète que possible et un commencement d'explication des manifestations de la vie et du comportement, prises dans leur ensemble.

Avant de traiter de l'organisme vivant et de ses propriétés intrinsèques, nous dirons quelques mots de la notion de système en général. Un système peut être défini comme une unité ou un tout, formé de plusieurs parties; mais ces diverses parties considérés comme un tout ne constituent de véritable système qu'à la condition qu'il existe entre elles des relations internes et réciproques. Nous avons d'une part les éléments, puis les relations réciproques que soutiennent entre eux les éléments, enfin le tout; un système présente ainsi le caractère de la pluralité dans l'unité. Ces relations internes peuvent présenter de nombreuses variétés, peuvent être plus ou moins complexes, plus ou moins stables. Des

Bergson, entéléchie pour Driesch, hormé pour Mac Dougall. Les vitalistes méthodologiques rejettent et critiquent vivement de pareilles entités et préfèrent laisser en suspens le problème de l'explication totale pour se contenter de décrire les faits vitaux en tenant compte de leur spécificité et de leurs qualités d'ensemble. Ils soutiennent que les faits d'autorégulation et d'adaptation ne peuvent être expliqués par les principes mécanistes et préfèrent considérer que le facteur essentiel des phénomènes vitaux est encore inconnu.

Cette attitude nous met sur la voie d'une véritable solution et le dilemme vitalisme-mécanisme sera levé si l'on assigne à chacune des sciences naturelles son objet propre d'étude. Le savant d'une manière générale cherche à décrire et à expliquer la nature en montrant les multiples relations que soutiennent entre elles les diverses conditions des phénomènes. Sa principale préoccupation est de prédire et de contrôler les faits et les processus naturels. Mais ces faits ne se présentent pas sous le même angle en physique, en chimie et en biologie. La science physique ne peut pas s'ériger en science universelle sous prétexte que les composants des corps inertes et vivants sont en dernière analyse les mêmes. De même toutes les lois physiques ne peuvent être appliquées telles quelles aux phénomènes chimique et biologiques, il y a des lois scientifiques d'une portée générale qui marquent l'interdépendance des trois grandes sciences qui constituent le groupe des sciences naturelles, mais à l'intérieur de ce groupe chaque science a droit à une certaine autonomie et peut faire appel à des concepts propres pour rendre raison de certains faits spécifiques. Les concepts d'individualité, d'organisation, d'autorégulation, d'adaptation et enfin d'intégration sont fondamentaux en biologie, alors qu'ils sont de moindre importance en physique ou en chimie. Le point important qui mérite d'être souligné et qui légitime l'autonomie dont doit jouir la biologie est que l'organisme vivant est un système dynamique qui tend à se maintenir dans un milieu. Une méthode saine pour une science compréhensive du comportement de l'être vivant, animal et homme, doit être établie d'après les caractéristiques propres du système vivant et ce sont ces caractéristiques qui doivent tout d'abord être mis en lumière.

Système et Forme. — Les notions d'organisme et d'organisation impliquent l'existence d'un certain ordre, d'un certain nombre de relations internes qui concourent à la réalisation du tout. Ce caractère d'organisation que possède l'être vivant a toujours été reconnu et n'a jamais fait l'objet d'un doute; seulement certains savants ne lui ont pas accordé

est la physique et que par conséquent les lois de la physique doivent être appliquées à tous les phénomènes de la nature, y compris les phénomènes vivants. La biologie et la psychologie ne seraient que des subdivisions de la physique. Beaucoup de biologistes, sans nier la valeur des lois physico-chimiques pour l'explication des faits organiques isolés, considèrent pourtant que l'analyse physico-chimique ne suffit pas pour résoudre le problème fondamental de la nature des processus organiques. Cette méthode analytique est de même impuissante à expliquer d'une manière satisfaisante les réactions motrices qui s'intègrent dans un comportement qui se déroule dans un temps plus ou moins long et qui est marqué par des étapes successives qui se soutiennent et s'appellent mutuellement. L'apparition de la vie fait émerger de nouvelles qualités et de nouvelles organisations qui exigent une nouvelle méthode d'investigation. Cette nouvelle méthode demeure basée sur l'observation et l'expérimentation, mais sur le terrain biologique et celui du comportement l'observation et l'expérimentation n'ont plus affaire à des faits qui peuvent s'isoler et se fragmenter sans perdre leur qualifications, mais à des tout organisés, et l'observation ainsi que l'expérimentation constatent des phénomènes étrangers en apparence au monde physico-chimique tels que les tendances, les besoins, la recherche, consciente ou non, peu importe, d'une fin. Alors que la physique étudie des phénomènes de masse par des procédés quantitatifs et statistiques, la biologie a pour objet d'étudier des individus organisés, des systèmes vivants partiellement autonomes et qui possèdent une histoire. Il est vrai que dans les faits physiques se rencontrent des unités qui ont leur organisation propre, mais ces unités échappent vu leur petitesse à l'analyse quantitative. Mais quand le physicien s'attache spécialement à l'étude de ces unités, il ne peut s'empêcher souvent d'élargir la terminologie mécaniste et de faire appel à des notions qui sont propres à l'étude de l'être vivant, telles que celles d'individualité, de tendance et d'autorégulation. Nous verrons plus loin que la notion de système avec ses qualités propres d'unité et d'organisation interne, trouve aussi place dans les conceptions physiques.

Le vitalisme, qui dénonce l'étroitesse de vue des explications mécanistes, se présente sous deux aspects différents dès qu'il s'agit de remplacer l'explication mécaniste par une autre plus adéquate aux phénomènes vivants. Ces deux aspects sont l'un positif et l'autre méthodologique. Le point de vue positif postule l'existence d'une entité extra-spatiale qui s'ajouterait à la causalité mécaniste pour la compléter et la diriger. Cette entité reçoit des noms différents selon les auteurs : élan vital pour

Structure fondamentale de l'organisme vivant

par

YOUSSEF MOURAD

Parmi les problèmes fondamentaux qui s'imposent à l'attention du psychologue, il en est un qui ne cesse de faire l'objet de nombreuses controverses : c'est celui de la méthode. L'idéal du savant et du philosophe a toujours été de formuler les règles d'une méthode universelle s'appliquant à l'étude de tous les faits naturels. Dans les sciences physiques et chimiques, les progrès réalisés militent d'une manière péremptoire en faveur de la méthode d'analyse expérimentale. Cette méthode a été appliquée à la Biologie et à la Psychologie et elle a donné de nombreux résultats partiels. Mais si la méthode expérimentale est indéniablement la seule méthode scientifique, son application à des domaines variés soulèvent de nombreuses difficultés. En passant des sciences physico-chimiques aux sciences biologiques, un nouveau phénomène apparaît, celui de la vie et de l'organisation de l'être vivant. Il s'agit alors de savoir dans quelle mesure les manifestations vitales sont réductibles à des phénomènes physico-chimiques¹ et si le mécanisme avec ses procédés analytiques suffit pour expliquer les faits biologiques et le comportement total de l'être vivant. Le vieux conflit entre le mécanisme d'une part et le vitalisme et le finalisme d'autre part est toujours pendant. Les tenants des deux doctrines opposées se réclament tous deux de la méthode expérimentale. Ce conflit ne tient pas seulement à une question de sentiment et d'appréciation subjective comme le soutient E. Rabaud². Nous estimons que le point de vue finaliste mérite d'être considéré et discuté. Il est vrai que les termes de mécanisme, vitalisme, finalisme, volontarisme, etc . . . , présentent des acceptions diverses et nuancées et leur emploi systématique contribue souvent à obscurcir le débat. Les deux thèses opposées, formulées brutalement sous la forme d'un dilemme, sont certainement inconciliables et l'acceptation de l'une entraîne forcément le rejet de l'autre.

Les mécanistes professent que le type achevé des sciences de la nature

1. Un bon guide dans l'étude de ce problème est l'ouvrage magistral de J. Lefèvre, *Manuel critique de Biologie*, 1048 pages ; Masson, Paris 1938.

2. E. Rabaud : "Psychologie animale et finalité". *Journal de Psychologie*, 34^{ème} année, 1937, pp. 305—323.

The former, who occupied a prominent place in the court life of the later Umayyad Khalifs (c. A.D. 700-750) was a great opponent of the Iconoclastic movement which had broken out in the Byzantine Empire, and wrote three books against it. But although he also wrote against Islam, he never accuses the Muslims of being guilty in this respect, but only the Christians and Jews. On the other hand Theodore Abu Qurra, Bishop of Harran, who was a contemporary of Harun ar-Rashid and al-Ma'mun and the first Father of the Church to write in Arabic, actually does include the Muslims amongst the people opposed to painting.

Dr. Zaky Hasan says that Abu Qurra "could judge the Muslims by what they said in their books, and not merely by what they practised — No wonder he was better acquainted than his master with the attitude of Islam towards pictorial art". This argument won't hold for a moment, for John knew what the Muslims wrote every bit as well as Theodore. for, as Becker points out, his quotations from the Qur'an in Greek are sometimes almost literal translations of the original, and he even gives the actual names of the suras when citing them.

All this indirect contemporary evidence is so consistent that I feel bound to accept it in the absence of any contemporary evidence to the contrary.

K.A.C. Creswell.

Note on the Attitde of Islam Towards Painting

by
K. A. C. Creswell

Dr. Zaky Hasan has very kindly suggested that I should defend my point of view in a note to follow his paper on "The Attitude of Islam Towards Painting."

I am very glad to avail myself of this opportunity. First of all I would like to emphasize the fact that we have no contemporary evidence to show that the prohibition against painting goes back to a period earlier than the end of the eighth century A.D. Against this we have contemporary indirect evidence of great importance.

1) The statement of Azraqi that Muhammad, on entering the Kaba after the capture of Mekka gave orders that the picture of Mary with Jesus on her lap was not to be rubbed out. This early evidence cannot be set aside merely by refusing to believe it.

2) The fact that Sa'd ibn Abi Waqqas and his Arabs, after the capture of al-Madain or Ctesiphon, used the great Iwan for the Friday prayer and were not disturbed by the paintings of the siege of Antioch which decorated it, cannot be explained away as due to lack of time, the victorious troops being in a hurry to celebrate their great victory, for these paintings were allowed to remain for long after, and were seen by al-Buhuri who died in A.D. 897.

3) The only instance cited of an Umayyad Khalif objecting to a painting is the case in which Umar ibn Abd al-Aziz expressed his indignation at a painting in a bath. I suggest that this painting was most probably pornographic, as was often the case in *hamdams* (e.g. al-Ghuzuli, *Matali' al-Budur*, Cairo 1300 H., II, p. 8., Ibn al-Hagg, *Madkhal*, Cairo, 1348 H., II. pp. 178-9, and that this was the real cause of Omar's anger.

4) Dr. Zaky Hasan says that the attitude of a dynasty like the Umayyds towards painting is no test of the real feelings of Islam at the time. To which I reply, let us leave this dynasty for a moment and consider the fact that the most rigid Khalif of all — 'Umar I — used a censer with human figures on it, to perfume the Mosque of Madina, and that it was only in A.D. 785 that a Goveunor of Madina had these figures removed (Ibn Rusta, p. 66, II. 15-19). This hardening of opinion towards the end of the eight century is in perfect keeping with what we learn from John of Damascus and Theodore Abu Qurra.

Thus we come to the conclusion that pictorial art, in its different forms was disliked in the Prophet's time. The theologians, however, may have exaggerated in putting into Muhammad's mouth, these traditions which mean strict and absolute prohibition. On the other hand, we do not believe that the objection to pictorial art was meant to be general. In fact it is not a part of the Muslim credo.¹ Further, the fundamental cause of that objection is the horror of idolatry and the suspicion with which a statue or a picture was regarded "through apprehension of the possible influence it might exercise on the faithful by leading them astray into the heresy most abhorred by Muslim theologians, *shirk*, or the giving a partner to God."² It cannot be meant for all times and circumstances especially when Muslims get far away from the pagan life of Pre-Islam and when they become a powerful nation full of confidence in their faith and power, and lastly when picture-making proves to have so many scientific and artistic uses which nobody can deny.

Zaky M. Hassan

1. We must recall that the Koran does not prohibit pictorial art. Professor Creswell did not do Ali al 'Enani justice in writing that he—Enani—suggested that Quran II, 92, contains such a prohibition. He translated that verse as, "Oh, ihr, die ihr glaubt, siehe der Wein, das Spiel, die Bilder und die Pfeile sind ein Greuel von Satans Werk. Meidet sie." Dr. Enani has actually translated the word *Ansab* into "Bilder" which means, "images", but he explained it in detail and asserted that he meant paintings and statues which were deified or used as good omens. He even says expressly that the Koran does not prohibit any other images except those. He mentions that Solomon was allowed to use pictures and statues for reasonable ends. See A. Enani : *Beurteilung der Bilderfrage im Islam nach der Ansicht eines Muslim*" pp 9—10 and especially p. 10, lines 10—16.

2. Th. Arnold, *op. cit.* pp 10—11.

Nielsen thinks even that it is in Northern Arabia and not in Southern Arabia that the representation of Gods in images was known.

"Die bildliche Darstellung von Göttern in der religiösen Kunst kommt im Heidentum nur in Nordarabien als nordsemitische Entlehnung vor und hört mit dem Bilderverbot im Islam völlig auf!"

Wellhausen mentioned that the Arabs used to engrave some of the holy stones in order to create a similarity between them and human beings. "Manche (Steine) sind etwas bearbeitet, indem eine natürlichen Ähnlichkeit etwa mit einem Menschenhaupte, durch Kunst nachgeholfen ist, wie Dhul Chalaça und al Galsad. Sie machen den Übergang zu eigenen Bildern. Diese hat man von den Steinen wohl zu unterscheiden².

H) Again it is thought that the Prophet could not have had an intolerent attitude towards figured art, if we judge by a conversation between his wives sitting round his bed during his last illness. Two of the Prophet's wives, Umm Salamah and Umm Habîba had been to Abyssinia. They spoke of a church, St Mary's, which they had seen there and praised its beauty and the splendour of its pictures.

In fact Ibn Sa'd's text on that subject does not show that Muhammad shared his wives' enthusiasm for those pictures. This author, who died about 844 A.D. states expressly that the Prophet joined in the conversation and said : "It is the custom of these Abyssians, when one of their holy men dies, to build a house of prayer over his tomb, and paint such pictures in it. Such people are most wicked in the sight of God³."

1) Finally, we cannot say that there was no objection to pictorial art in Early Islam, simply because of the many figured objects of art and paintings which we know of the Umayyad period. In fact the theological objection to paintings and statues is a definite thing, while the attitude of certain persons toward that objection is absolutely something else. Many a thing had been prohibited by the Koran but was practised by the Umayyad Caliphs and by many Muslims of their time, We do not expect anybody to hold that wine was not prohibited by Islam, simply because some Umayyad Caliphs and other Muslims used to drink it in Early Islam.



1. *ibid* p. 187 ; cf. also pp 201,231.

2. J. Wellhausen, *op. cit.* p 102.

3. Cf. Th. Arnold, *op. cit.* pp 6—7 and Creswell, *op. cit.* pp 270 and Ibn Sa'd ; *Biographien* Vol 2 p 34.

to practise idolatry, these two images were among the idols which they worshipped."¹

Moreover, the Arabic lexicographers and writers differed in opinion about the definition of "Asnām" in a way bearing witness to their having known real statues as well as natural idols. "Some of them said that idolized pieces of stone are "Ansāb". If real statues, they are "Asnām" and "Awthān." Others said that idols made of wood, gold or silver in the form of human beings are "Asnam"; if made of stone, they are "Awthān"²

In a verse of the thirty-seventh sura of the Koran, mention is made of carving. The following is related of Abraham when his tribesmen came back to him with hasty steps he said, "Worship ye what ye carve when God hath created you and that ye make?"³

We have also to mention what the Arab historians and learned men of the "Hadith" reported about the 360 images found in the Kaaba when Mekka was conquered by the Prophet. If we admit that there was not enough place in that temple for such a big number of idols, it is nevertheless true that the Kaaba contained many idols for different Arab tribes. At least many of these idols are spoken of by historians as having eyes and faces.⁴

There is no doubt that the Arabs knew real statues before the Muslim Conquests⁵. They ascribed their introduction into Hijaz to Amr ibn Lohay who brought the first statues from Palestine and put them round the Kaaba⁶.

We should bear in mind, moreover, that many of the Arabs of the Hijaz before Islam were familiar with Syria and Yemen. They used to carry goods and conduct caravans between the north and south parts of the peninsula⁷.

1. *ibid* pp 9, 29; cf. J. Wellhausen, *op. cit.* p 77; Azraqi *op. cit.* pp 44, 45, 69—71.

2. Ibn al-Kalbi *ibid* pp 33, 53; Ahmad Taymur (ed. Zaky M. Hassau) : *Al-Taswir 'end al-'Arab* pp 43—49; cf. J. Wellhausen, *op. cit.* p 102.

3. J. M. Rodwell : *The Koran translated from the Arabic* p 82.

4. Ibn al-Kalbi, *op. cit.* p 31, Azraqi, *op. cit.* p 71; Ph. Hitti, *History of the Arabs* (2^d ed.) p 100.

5. Mordtmann, Müller and Nielsen mention the two antelope golden statues which 'Abd al Mutalib found when he dug out Zamzam, the famous well. See J. H. Mordtmann and D. H. Müller, *Sabäische Denkmäler* (Wien 1883) p 10 and D. Nielsen, *op. cit.* p 237. See also J. Wellhausen, *op. cit.* p 76.

6. Ibn al-Kalbi *op. cit.* p 8; cf. J. Wellhausen, *op. cit.* p 72.

7. D. Nielsen, *op. cit.* pp 110 sqq.

Wherever the traveller took up his quarters or pitched his tent, he used to put down the stone from the Ka'ba and walk round it as he used to walk round the Kaaba itself¹. Some of these stones were a cubic piece of rock like "Al-Lat"², or a slab of white stone like "dhi al-Khalasa"³, or a long piece of rock like "Sa'd"⁴ or a protuberance in the mountain resembling a human figure like "al-Fals."⁵ The pre-islamic Arabs used also to worship some houses as they used to worship the Kaaba in Mekka. Among such houses there are "Riam"⁶ in San'a, the kaaba of Bani al-Harith ibn Ka'b in Nagrah,⁷ the kaaba of Iyad between Kufa and Basra⁸ and the church of al-Qalis⁹ in San'a.

But it is incorrect to assume that the pre-islamic Arabs did not know any graven images except in the outskirts of the peninsula. The old Arab historians, and specially Ibn al-Kalbi¹⁰ († 204 A.H., 819 A.D) mentioned among the idols worshipped by the Arabs, some statues resembling human figures, in the Hijaz and in the Kaaba itself. Among these images is "Hobal," "which was of red chalcedony, having the figure of a human being with a broken right hand. When the tribe of Quraish planted itself in this region, they made him a golden hand"¹¹ The Kalbites in Dumat al-Djandal used to worship "Wadd", which was the statue of a powerful man armed to the teeth¹².

Among such images there are also Isaf and "Na'ila". They are thought to have been originally a man and a woman of the tribe of "Jurhum." They entered once the Kaaba and, seizing the opportunity of nobody watching them, they were guilty of misconduct. They were metamorphosed into two stones, which the Arabs placed near the Kaaba as a bad example and a warning to anybody who failed to respect the holy temple. They remained a long time there, and when the Arabs began

1. Ibn al-Kalbi : *kitab al-Asnam* (2nd ed.) p 6.

2. *ibid* p 16.

3. *ibid* p 34. See also D. Nielsen, *Handbuch der Arabischen Altertumskunde* p 231.

4. Ibn al-Kalbi : *ibid* pp 36—37.

5. *ibid* p 59.

6. *ibid* pp 11—12.

7. *ibid* pp 44—45.

8. *ibid* p 45.

9. *ibid* p 46.

10. Cf. J. Wellhausen : *Reste Arabischen Heidentums* (2^e ed. Berlin 1927) pp 10—13.

11. Ibn al-Kalbi : *ibid* p. 28 ; cf. J. Wellhausen, *op. cit.* p 75, Azraqi, *op. cit.* pp 69.

12. Ibn al-Kalbi, *ibid* pp 10,56.

qoranique il désigne non — comme plus tard — les images, mais les formes extérieures, les dimensions géométriques des corps. Comment expliquer cette attitude, cette indifférence de Mahomet à l'endroit des idoles ? Par la nature spéciale du polythéisme à son époque et dans son Arabie à lui, celle du Higaz et du Nagd limitrophe, à l'exclusion du Yemen, de l'ancienne Nabaté et des cantons soumis à l'influence des régions syro-mésopotamiennes. La religion préislamique de la Péninsule, ainsi délimitée relève entièrement du fétichisme. C'est un culte à l'usage des Bedouins — race médiocrement religieuse — culte d'origine nomade, même lorsque — c'était le cas pour la Ka'ba — le centre se trouve fixé dans une agglomération citadine. Ce culte sans temple, sans liturgie, sans hiérarchie proprement dite, ne fabrique pas ses dieux : il les rencontre dans la nature. Au lieu d'effigies divines, il honore les pierres et sous les formes les plus variées, rochers, blocs erratiques, stèles, obélisques Toutes les anciennes idoles plus ou moins historiques : Manat, Al-Lat, Ozza, Dou'l Halasa, Fals, Sa'd, Oqaisir etc., appartiennent à la catégorie des *acheropita*, pour me servir de ce terme emprunté à l'archéologie chrétienne : pierres brutes, protubérances rocheuses, blocs tenant encore au sol, bizarrement corrodés par les agents atmosphériques et où, avec de l'imagination, on croyait parfois découvrir de vagues linéaments humains¹

When Profesor Creswell read the arguments which we give in this article, he wrote to me." In the time of Muhammed this question (horror of paganism and idolatry, and fear that the Arabs might return to the cult which was prevailing among them before Islam) did not arise. It is very doubtful if any 'graven images' existed in the Hijaz, for the Arabs practised litholatry, worship of shapeless pieces of stone. When the Muslims got far away from the pagan (i.e. litholatry) life, they found themselves in countries where there were statues in public places in the cities. It was then that the danger began, not before, in Arabia, where lumps of stone, because of their bizarre form or meteoric origin were revered."

We think, however, that this argument is miscalculated. It is true that the Arabs worshipped stones before Islam. Ibn al-Kalbi wrote that this litholatry originated in an old Arabian immemorial usage: no traveller left Mekka without carrying with him a stone from the Kaaba, as a token of reverence to the House of the Gods and of love for the Holy city.

1. Lammens, *L'attitude de l'Islam* pp 242-244.

that he who paints anything living, will be compelled on the Day of Resurrection to breath into it a soul." Lammens pointed out to Professor Creswell that although the Muslims were not actually named "la citation presque verbale du *hadith* musulman prouvent qu'ils sont visés, et de plus que le *hadith* en question était déjà en circulation parmi les musulmans au temps d'Abou Qurra". Professor Creswell concludes that the iconoclastic movement in Islam may be placed towards the latter part of the eighth century.

We can hardly accept this proof. We think that if John of Damascus did not mention that statues and paintings were forbidden in Islam it is because he lived in Syria and saw the Umayyad Castles decorated with paintings and various objects of art. But we know that the Umayyad Caliphs did not keep on the straight and narrow way in matters of religion. The only one of them who is known to have kept in the right path is the Caliph Omar ibn Abd al-'Aziz. We read in his biography a story which shows to what extent he hated painters and paintings. Ibn al-Jawzi († 1200 A.D.), the biographer of this pious Caliph wrote :

"Hussein Ibn Wardan related to us that 'Omar ibn Abd al 'Aziz passed by a bath having a picture. He had it rubbed out and exclaimed. "If I could only find out who painted it, I would have him well-beaten".

Abu Qurra, on the other hand, got in touch with the Jurists of Iraq. He knew Arabic well¹ and could Judge the Moslems by what he read in their books and not only by what they practised. No wonder that he was better acquainted than his master John of Damascus with the attitude of Islam towards pictorial art.

7) P. Lammens and Professor Creswell draw an inference that images were not prohibited in the Prophet's time from the fact that Arabs in the Hijaz did not know any graven images at that early time of Islam. "Un seul texte (Qoran, 22, 31) nous laisse en suspens", wrote P. Lammens. "Il recommande d'éviter l'impureté des awthan. Faut-il comprendre images ou fétiches, le terme *awthan* comportant cette double signification ? Idoles ou fétiches, la Qoran n'en interdit nulle part la fabrication, parce que, nous le verrons tantôt, cette interdiction n'avait pas de sens en Arabie. Quant à la peinture, le recueil n'y fait jamais une allusion explicite. On y rencontre bien le terme *soura*, mais dans la langue

1. Creswell : *ibid* pp 270—271.

2. Ibn al-Jawzi, *Sirat Omar ibn Abd al-'Aziz* p 80, cf. Arnold : *op. cit.* p 46.

3. See C. Brockelman, F. N. Finck J. Leipoldt und E. Littmann. *Geschichte der Christlichen Literaturen des Orients* p. 68.

We do not want to deal here with other coins and medals bearing effigies which were struck by some Abbasid Caliphs and by princes belonging to dynasties of Turkoman origin. Mention may be made of a medal bearing on one side the effigy of the Caliph Mutawakkil and on the other a man leading a camel. On another medal the Caliph Muqadir is represented with a cup of wine in his right hand and a weapon in his left. On the obverse is a musician playing a lute. On a third medal, the caliph Muti is represented "holding a wine-cup in his hand, with an attendant on either side of him, one holding a musical instrument, the other a cloth with which to drive away flies, on the obverse is a musician playing a five-stringed bûte¹." Coins struck for Saladin in northern Mesopotamia bear his effigy sitting on the throne².

6) P. Lammens and Professor Creswell use a further argument to prove that Early Islam was not uniformly hostile to all representation of living forms³. This is that John, Patriarch of Damascus did not mention the Muslims amongst the enemies of images. John was one of the Bani Sardjoun Christian family who served the Umayyads in financial administration more than half a century⁴. He was a boon companion of the Caliph Yazid II, but he lived long after him, and retired to lead a solitary life in one of the monasteries of Damascus. He gave himself up entirely to writing polemic works on the superiority of Christianity to other religions until he died in 754 A.D. It is known that John was one of the most bitter adversaries of iconoclasm. It is argued that had he known that the Muslims were iconoclasts, he would never have failed to mention it and attack them in that field.

On the other hand, one of his disciples in the monastery to which he retired in Damascus, won great fame and had the opportunity, fifty years after his master's death to state that Moslims did forbid painting and sculpture. His name is Theodore Abu Qurra. He lived long enough to become a contemporary of Harûn al-Rashîd and al-Mamun, and was the first father of the Church to write in Arabic. He was also a bitter enemy of the iconoclasts. Abu Qurra did not actually mention the Moslims in connection with iconoclasm, but wrote of "those who assert

1. Arnold, *op. cit* pp 125—126.

2. See Hauteœur et Wiet, *Les Mosquées du Caire* pp 176-177.

3. See Lammens, *L'Attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés* pp 367 and sqq. and Creswell, *op. cit.* p 270.

4. See H. Lammens, *Etude sur le Règne du Calife Omayyade Mouwiya Ier* pp 384 sqq.

4) Neither can we deduce that there was no condemnation of pictorial art in Early Islam from the fact that some Companions of Muhammad and other Moslems felt no hesitation in retaining in their possession woven stuffs and vessels decorated with figures of men and animals¹. In fact they were eager to make use of these stuffs and vessels, and they were not responsible for their images. Further, it is recorded that some of those Moslems destroyed the images and that some of the stuffs were divided between the 'Faithful' in such a way as to deform the ensemble of their pictures. This was the case with the famous carpet of Kiswa, which the Caliph Omar distributed among Moslems².

5) A further argument of those who hold that there was no theological objection to pictorial art in Early Islam is that some Arabic coins had figures and drawings. Maqrizî mentioned in his treatise about Muslim coinage that Mu'awiya struck dinars on which there was a figure of a girl with a sword³. We do not know of any of these coins to-day, but a number of coins with the effigy of Abd al-Malik have been preserved. The Caliph is represented holding a sword in his right hand⁴.

But we do not think that this argument is solid. In fact it is not safe at all to consider the Umayyad Caliphs as authorities in theological subjects. They were far from being model Moslems from the religious point of view. Moreover, such figures on coins were, most probably, not intended to be actual portraits. As Professor Arnold suggested, they were merely a modification of the design which portrayed the Emperor on the Byzantine coins to which the inhabitants of Syria, Palestine and Egypt had been accustomed under the old regime⁵. But this transitional concession to the popular conception of current coinage did not last long. Maqrizî adds that the companions of the Prophet did not object to anything in those new coins except to the figures on them⁶. Later on, about 696 A.D. Abd al-Malik struck new coinage without any pictorial representation.

1. See Arnold : *op. cit.* pp 7—8.

2. Tabarî Vol 4 pp 178—179.

3. See *An-Naqd al-'Arabiyya wa 'Ilm an-Mummiyat ou Monnaies Arabes et Numismatique d'après les Meilleurs Auteurs de Langue Arabe* par le P. Anastase-Marie de St. Elie (Cairo 1939) p 33. Professor Creswell (*op. cit.* p 95) writes that Muawiya himself was represented on these dinars. Silvestre de Sacy (*Bibliothèque des Arabisants Français*, t. I p 19) wrote : "Muawia fit encore frapper des dinars sur lesquels il était représenté ceint d'une épée."

4. See Th. Arnold, *op. cit.* p 123 and Creswell, *op. cit.* pp 95—96.

5. *Ibidem*.

6. P. Anastase-Marie de St-Elie : *op. cit.* p 34.

the figures of men and horses. He did not even touch them. Neither he nor his troops refrained from holding the prayer in that palace because of these figures¹.

This does not prove, however, that there was no objection to pictorial art in Early Islam. If we admit what Tabari wrote, we can explain it by the fact that Sa'd ibn Abi Waqqās and his troops were deeply moved at their great victory in capturing the capital of Iran. They, also, had such great confidence in themselves and in their faith. The first thing they did was to hold prayer in the greatest building of the captured city. So anxious they were that they did not care to remove or obliterate the paintings which decorated Khosrau's Iwan. These images did not expose Muslims to danger, because these had not been acquainted with them before Islam and because they had not been worshipped by the Persians. Besides, the Moslems themselves were not in any way responsible for those images.

We cannot refrain from pointing out that victorious armies do not always act according to religious principles.

Some of the paintings in Iwan Kisra survived up to Buhturī's time. This poet, who died in 284 A.H. (897 A.D.) mentions them in his famous poem about that palace of the Sasanian kings. The description of the painting, which represented the fighting between the Persians and the Romans at the siege of Antioch by Anushirwan in 538, is as follows :

When I saw the picture of Antioch, I stood in awe of the
multitudes of Romans and Persians,

With death overhanging and Anushirwan pushing the columns
under the large standard

Having a haughty deportment and dressed in green, yellow
and red

And the fighting of men before him all quiet and without
the least noise,

Some warrior charging with his spear

And another protecting himself with his shield,

They appear life-like and seem to have between each other signs
like those of the dumb.

I could not believe that they were merely pictured before I felt
them with my hands.

1. See Tabari (Cairo ed.) Vol 4 pp 173—174 ; Th. Arnold : *op. cit.* p 8 ; Creswell : *op. cit.* pp 15,270.

picture perished in the fire which destroyed the Kaaba. We think it more probable that the picture was obliterated at the same time as all other images in the Kaaba¹. Some traces of it, however, may have remained till they were completely destroyed in the fire of the Kaaba.

In fact the authority who is credited with having seen that picture before the fire says clearly that he saw it with traces of obliteration on it². This was passed over in silence by Arnold who made use of this story³.

2) One of the arguments given by Professor Creswell to prove that there was no hostility to painting in the Prophet's time is that "Muhammad's wives were acquainted with fabrics woven or embroidered with figures of human beings and animals, and employed them without any religious scruples⁴". His authority for that are some Traditions in Bukhari. Professor Arnold, however, was more precise. On examining the same Traditions he comes to the conclusion that the Prophet does not appear to have objected to the figures of men or animals on the woven stuffs with which his house in Medina was decorated, *so long as they did not distract his attention while engaged in prayer, and so long as they were in their proper place, being either sat upon in cushions or trampled underfoot in carpets*. When he found that A'ishah had hung up a curtain with figures on it at the door of her room, he exclaimed that those who thus imitated the creative activity of God would be most severely punished on the Day of Judgment; but he was quite satisfied when his wife cut up the offending fabric and made cushion covers out of it⁴.

We are not aware of any Traditions which show that the Prophet accepted at his house and allowed his wives unconditionally the use of woven stuffs with figures of men and animals.

3) It has been also argued that the Companion of the Prophet, Sa'd ibn Abi Waqqâs appears to have been untroubled by any iconoclastic scruples. When he entered Ctesiphon after winning the battle of Qâdisiah in 637 A.D. he held a solemn prayer of thanksgiving for the victory of the Muslim armies. The place in which this prayer was held and which he turned into a mosque was Iwan Kisra, the great palace of the Sassanian kings. Tabari expressly states that Sa'd paid no heed to

1. See Azraqî (Mekka ed.) Vol 1 p 106.

2. *Painting in Islam* p 7.

3. A. C. Creswell : *Early Muslim Architecture* Vol 1 p 270.

4. Th. Arnold, *op. cit* p 7.

should be judged by the results and object in view. If some legal judgment or physical treatment or discovery of scientific matters depend on pictures, there is no doubt that making them is a thing approved and wished for by the Divine law. If pictures are only for decoration or licit entertainment, they are lawful. But if they are venerated or worshipped or taken as a source of blessing, they are absolutely forbidden; both the one who makes them and the one who has them are bound to be punished¹.

* *

Let us now answer the arguments of those who hold that painting was not forbidden or disapproved of in Early Islam.

1) The retention, by the Prophet, of the paintings of Mary and Christ, when going inside the Kaaba after conquering Mekka, and his order effecting the removal and obliteration of the rest of the paintings is a matter of doubt. Some theologians believe that the Prophet did not enter the Kaaba before all paintings and statues were obliterated². But Azraqi, the authority for the story of keeping those two pictures died in 244 A.H. (858)³. He is earlier than Bukhari in whose *Sahih* we read that the prophet had all images removed or obliterated before he went into the sanctuary. Bukhari died in 256 A.H. (870). If, however, we admit that the Prophet ordered that all the pictures should be rubbed out except that of Mary and Jesus, this could be explained by the high opinion the Prophet held of Christianity and the respect he bore for Christ. Furthermore, Muhammad, may have esteemed that it was no source of danger and that none of his followers, all pagans before Islam, would deify that Christian image.

We doubt, however, the veracity of what the same Azraqi adds about that picture having remained in the Kaaba until years later, in 183, when 'Abd Allah ibn al-Zubayr was being besieged in the Holy City by the Umayyad troops. According to Azraqi, it was not until then that the

1. *Ibidem*. See also the similar view of Shaikh Muhammad 'Abdu, the most authoritative of Muslim modern theologians, in *Tārikh al-Ustaz al-Imam al-shaykh Muhammad 'Abdu* ed. by Muhammad Rāshid Rida Vol 2 pp 499—501

(تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده جامع السيد محمد رشيد رضا)

See also our article in the *Ithaqafa* no 90 about 'Pictures, Paintings and Statues in mausoleums and Mosques.

2. See their arguments in Azraqi (Mekka ed.) Vol 1 pp 104—105.

3. Dr. H. Haikal pasha adopts that view in his biography of the Prophet "*Hayat Muhammad*" 2^d. ed p 409, where he writes that the Prophet ordered *all* the pictures in the Kaaba to be obliterated.

images goes back to the time of Muhammad and that it emanated from a horror of paganism and idolatry and from fear that the Arabs might return to the cult which was prevailing among them before Islam. There was, furthermore, the aversion of luxury during that early period of Islam, when the 'Faithful' led a simple life of devotion and fought for the Faith of God.

Shaikh Abd al-Aziz Shāwīsh, one of the modern leading authorities on Moslem theology, wrote the following :

"If the Prophet disallowed having any images whether detached or engraved or painted, it is only because his followers were fresh in leaving idolatry and it was feared for them that they should be attracted by what was worshipped by their ancestors and was familiar to them for a long time."¹

We believe, too, that the unlawfulness of painting and sculpture depended on whether or not the object was in a place of honour. The theologian who registered the Traditions about the prohibition of images did not ascribe to the Prophet something which was altogether of their own creation. All that could be held against them is that they made the prohibition in these Traditions absolute and all-sided. Shaikh 'Abd al-'Aziz Shāwīsh develops this view in the following passage :

"The theological objection to pictorial art was not intended to be general for all times and all nations. In fact such an interdiction would have no *raison d'être* if it is sure that the worship and veneration due to God remain for Him only. How could picture-making be completely prohibited when it could be a means of safeguarding legal rights as is the case with pictures of unknown drowned and dead, pictures which the government exhibits to the public so that these people may be identified by their relatives. Thus can judgment be passed about inheritance, matrimonial matters, liabilities etc . . . Pictures may be a means of warning the public against stealthy thieves and impostors who cover up their tracks and conceal themselves from the government. When their pictures are published, the public can trace them and direct the authorities to their hiding places. Other pictures illustrate the mysteries of the Almighty's power and wisdom in his creations, as is the case in pictures of animals and their different parts, given in books on natural history and anatomy. Some other kinds of pictures, like X-ray photographs, help to cure patients suffering from internal diseases or bullet wounds. One of the principles of religious law is that means

1. See 'Abd al-'Aziz Shāwīsh, *On the attitude of Islam towards images* (in *Al-Hidāya*, Vol 3, pp 487-491)

a dress or any other design, whether the picture hangs on a wall or is on a robe or a carpet, whether in an object of inferior status in common domestic use or not, as is the clear meaning of the Traditions, especially the one, called the Numruqah, which was related by Muslim¹. This is a sound view.

Others admit pictures on textiles whether on objects of inferior status or not; they dislike pictures casting a shadow or painted on walls and similar objects, whether a design or not. They state that the Prophet said in some of the Traditions of this Chapter : "except what is in the form of a design on a dress." This is the view of al-Qasim ibn Muhammad.

All authorities agree in forbidding pictures which cast a shadow and to destroying or mutilating them. Al-Qāṣi takes exception to dolls for little girls to play with; but Mālik does not like a man buying such dolls for his daughters. Some authorities hold that the lawfulness of dolls for girls is made nul by the Traditions which are the object of this commentary"²

That is the orthodox view on the subject summed up by Nawawi, the Shafeite legist of the thirteenth century.



But some orientalists and historians of art hold that the Prophet did not dislike or forbid painting, and that hostility against it started among Muslim theologians in the second half of the second century A.H (VIII A.D.). They argue that Traditions attributed to the Prophet on this subject are apocryphal and represent only the view of the theologians living in the time when the Hadīth was collected and written (ca. III century A.H, IX century A.D). One of the pioneers of those orientalists and art historians was the R.P. Lammens, who wrote an article in the *Journal asiatique* (September—October 1915 pp 239—279) entitled "L'Attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés" His thesis in that article was to prove that the Prophet was not hostile to painting or sculpture and that no such hostility existed in the first century A.H.

One of the most fervent advocates of this theory in our days is Professor K.A.C. Creswell, head of the Institute of Moslem Archaeology in the Fuad I University of Cairo. He adopts it in his monumental work "Early Muslim Architecture" (Vol 1, pp 269—271).

But we disagree with that point of view. We believe that hostility to

1. *Sāḥih* (Cairo 1334 A.H) Vol 6 p 166

2. Yahya ibn Sharaf al-Nawawī : *Al-Minhaj fi Sharḥ Muslim ibn al-Hajjāj* (Bulaq, 1304—1306 Vol 8 p 398. See also Muslim's *Sāḥih* Vol 6 pp155 sqq.

Nawawi, the Shafeite legist of the 13th century, in his *Commentary on Muslim's book of Traditions* summed up the orthodox view on the subject in the following passage¹ :

"The learned authorities of our school² and others hold that the painting of a picture of any living thing is strictly forbidden and is one of the great sins, because it is threatened with the above grievous punishment as mentioned in the Traditions, whether or not it is intended for things to sit on or trample underfoot. So the making of it is forbidden under every circumstance, because it implies a likeness to the creative activity of God ; whether it is on a robe, or a carpet or a coin, gold, silver or copper, or a vessel or on a wall etc. On the other hand, the painting of trees and mountains and other things that have no life is not forbidden. Such is the decision as to the actual making of a picture.

As to using things with pictures of living beings the decision is the following : It is forbidden to make use of any object on which a living thing is pictured, whether it be hung on a wall or worn as a dress or a turban or is on any other object which is not in an inferior status by being sat upon or trampled underfoot. But if it is on a carpet trampled underfoot, or on a pillow or cushion or any similar object of inferior status, then it is not forbidden. In all this there is no difference between what casts a shadow and what does not cast a shadow. This is a short report of the decision of our school on the question.

The majority of the Companions of the Prophet and their immediate followers and the learned of succeeding generations were of an opinion confirming ours ; it is also the view of Thawri, Mâlik, Abu Hanîfah and others.

Some authorities in the past believed that the prohibition referred only to objects that cast a shadow, and saw no harm in objects that had no shadow. But this view is quite wrong, for the curtain with the picture to which the Prophet objected was certainly condemned, as everybody admits, yet the picture on it cast no shadow ; and the other Traditions make no difference between one picture and another.

Az-Zuhrî holds that the prohibition refers to pictures in general, and similarly to the use of objects containing them and to entrance into a house in which they are found, whether it is a case of a design on

1. We give here Sir Th. Arnold's translation of the part which he translated of this passage in his "*Painting in Islam*" pp 9—10, except for some changes which were necessary. The rest of the passage is our own translation.

2. i.e. the Shâfi'i school.

The Attitude of Islam Towards Painting

by

ZAKY M. HASSAN

Azraqī (— c. '850 A. D.) wrote that when the Prophet entered the Kaaba after he had conquered Mekka, he said to Shaybah ibn 'Othmān : "O Shaybah ! Destroy every picture in the place except what is underneath my hands". Azraqī continued that, when the Prophet removed his hands, there were underneath the pictures of Jesus, son of Mary and his mother¹.

Some orientalist have taken the above passage as a proof that painting was not forbidden or disapproved at the time of Muhammad.

It is admitted that the Koran does not forbid painting or sculpture. The condemnation of pictorial and plastic art is based on the Traditions (hadith) ascribed to the Prophet. He is reported to have said :

1) "Those who will be most severely punished by God on the Day of Judgement are the painters."

2) "The Angels will not enter a house in which there is a picture or a dog."

3) "Those who make images will suffer on the Day of Judgment; they will be called upon to breathe life into the forms that they have fashioned."

4) "Those who will be most severely punished on the Day of Judgment are the murderer of a Prophet, one who has been put to death by a Prophet, one who leads men astray without knowledge, and a maker of images or pictures." 'A head will thrust itself out of the fire and will ask: Where are those who invented lies against God, or have been the enemies of God, or have made light of God ? Then men will ask: Who are these three classes of persons ? It will answer: The sorcerer is he who has invented lies against God; the maker of images or pictures is the enemy of God; and he who acts in order to be seen of men, is he that has made light of God²."

1. Azraqī : *Akhbār Makka*, Mekka 1352 A. H., Vol 1 pp 106—107.

2. Sir Th. Arnold : *Painting in Islam*, p 6, See also 'Alī al-Muttaqī, *Kanz al-'Ummal*, Vol 2, p 200.

FOUAD I UNIVERSITY

Bulletin of the Faculty of Arts

Vol. VII.

July, 1944

Contents of the European Section.

	Page.
1) Zaky M. Hassan : The Attitude of Islam towards Painting	1
2) K. A. C. Creswell : Note on the Attitude of Islam towards Painting	16
3) Youssef Mourad : Structure fondamentale de l'organisme vivant	19
4) M. B. Davies : Suffolk's Expedition to Montdidier .	33
5) Mohamed Selim Sallm : Ovid Met. IX, 776-7	45

Contents of the Arabic Section.

1) Hassan Ibrahim Hassan : The Spread of Islam in India.	1
2) Amin el Kholi : This Grammar ? !	29
3) Aly Ibrahim Hassan : Some Observations on the History of the Bahri Mamluks.	69
4) Ibrahim Amin : Persian Sources for Moslim History .	89
5) Mohamed Abd el Monem el Sharkawy : Some Problems of Frontier Delimitation and their Consequences	125
6) Gamal Mohamed Mehrez : Fatimid Lustre Ceramics in Dr. Aly Pasha Ibrahim — Collection.	143
7) Fouad Hassanein : The Defenite Article in Arabic .	169

FOUAD I UNIVERSITY
BULLETIN
OF THE FACULTY OF ARTS

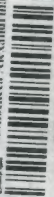


Vol. VII—July, 1944

This Bulletin is published annually, at the end of every University Session. All requests for copies should be made to the Fouad I University Librarian, Qiza. Communications for the editors and manuscripts should be addressed to Dr. Zaky M. Hassan, Editor of the Bulletin, Faculty of Arts, Qiza, Egypt.



Bibliotheca Alexandrina



0542802